مؤلف السلسلة الأكثر مبيعًا "أرض زيكولا"

عمرو عبد الحميد



إهداء

إلى

د. أسماء محمد ربيع

الرئيس التنفيذي لمدرسة الدلتا الأمريكية بالمنصورة


رواياتك

(1)

يوسف

تسرب ضوء الفجر الأول عبر شقوق النوافذ الصغيرة في بيتنا، وكأن النور يحاول التسلل بحذر، مخافة إيقاظ الأرواح القابعة في الظلام. الليل في الواحة ليس كأي ليل، فهو مليءٌ بالهمسات والأصوات الخافتة التي تختلط بالرياح المحملة بالرمال الدقيقة. كنت أنا، يوسف، جالسًا على عتبة باب غرفتنا، أترقب بلهفة لحظة قدوم أختي الصغرى إلى هذا العالم. كان ذلك قبل أربع سنوات تقريبًا، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.

كانت أمي دلال تتألم بصمت، والقابلة توجِّه إليها كلمات الطمأنينة بصوتها المتماسك. الجميع يعلم أن مواليد واحة اليعقوب يأتون إلى الحياة دون جفون، ميزة كبرى جعلتنا لا نخشى الخروج من البيت قبل بلوغ العاشرة من العمر حيث يكتمل نمو جفوننا.

بعد ساعات طويلة بدت كأيام، شقت صرخة ريم الصغيرة صمت بيتنا العميق، مُعلنة قدومها إلى هذا العالم. القابلة سلمتني المشيمة التي لا تزال تقطر دمًا بعد قطع الحبل السري، وأنا بدوري حملتها بعناية كي أتوجه بها إلى أبي أيوب الذي كان ينتظر في حظيرة القبور.

قبل مغادرة البيت، قامت عبير -أختي الأخرى التي تكبرني بعام- بتثبيت جفوني المفتوحة بالصمغ، بالطريقة نفسها التي اعتادت أمي على فعلها منذ بلوغي العاشرة، وبعدما لوّحت بيدها أمام عيني وتأكدت بأن جفوني لا ترمش، وضعت الشفيفة أمام عيني، وهي قطعة قماشٍ خفيفة تحمي أعيننا من الأتربة العالقة بالهواء دون أن تحجب الرؤية، وقالت وهي تحكم رباطها حول رأسي:

- لتسرع إلى أبينا قبل أن تتجلط الدماء.

فأومأتُ برأسي موافقًا، وركضتُ إلى الخارج.

***

كانت حظيرة القبور مكانًا يجمع بين السكون والرهبة. تقع في أعماق جبل كبير يوجد في شرق الواحة على بُعد نصف ميل تقريبًا من بيتنا، الممر الضيق الذي يؤدي إليها كان مظلمًا ومليئًا بصدى أصوات خافتة. والجو داخل ساحتها الدائرية خانق وكأنه يحتفظ بذكريات وأنفاس الأرواح التي سكنت هناك.

على امتداد الحظيرة كانت مئات القبور محفورة جنبًا إلى جنب، كل قبر حُفر مع ولادة صاحبه، وعلى جدران الجبل من الداخل توجد نقوش مرسومة لأشكالٍ غريبة ومرعبة، من بينها وجوه وأيادٍ ممتدة كأنها تحاول الإمساك بشيء، وأعين بلا جفون تراقب الزائرين بصمت.

الإضاءة المحدودة من الفوانيس الزيتية المعلقة على جوانب الجبل كانت تلقي بظلال غامضة على النقوش، والصدى الخافت لقطرات الماء المتساقطة من سقف الجبل كان يملأ المكان بأصوات تشبه الهمسات، مما يزيد من رهبة ذلك المكان.

عندما وصلت إلى أبي، كان لا يزال يحفر قبر ريم بجوار القبور الأخرى. كان قد لصق جفونه بالصمغ ووضع شفيفته على عينيه هو الآخر، فالحظيرة ليست محصنة مثل البيوت، وأطفال البئر لا يرحمون.

حين انتهى من الحفر، أخذ المشيمة التي كنت أحملها، وقطّر أولًا من دمائها في قربة صغيرة كانت معه، ثم أعطاني تلك القربة، وسألني أن أرجّها برفق كي لا تتجلط الدماء في داخلها، بينما بدأ يقطّر دماء المشيمة فوق قاع القبر في حركة دائرية، قبل أن يضع المشيمة برفق في وسط القبر وهو يتمتم بدعاء يبارك حياة ريم الجديدة.

حينها التفتُّ لألقي نظرة على قبري الذي يفصله قبر واحد عن قبر ريم. الأرض في قبري كانت جافة، بلا أثر لمشيمتي التي تحللت منذ زمن، مثله مثل باقي القبور.

بعد أن تأكّدنا أن دماء المشيمة قد تسللت إلى أعماق قبر ريم، قال أبي:

- لقد انتهينا من الجزء الأول بنجاح.

قلت:

- خشيتُ أن تجف الدماء قبل وصولي إليك، فتفقد ريم فرصتها في الخروج من الواحة ذات يوم.

مسح على رأسي، وقال:

- لقد أحسنت صنعًا يا فتى، لنعد إلى البيت الآن كي نكمل الجزء الآخر من الطقوس، ولا داعي للركض، سيمنع سائل القربة تجلط الدماء.

***

عدنا معًا إلى البيت. ومع عبورنا إلى داخل السور الحجري المحيط به ظهرت ظلال حراسنا بجوارنا، فأزلنا الشفائف عن أعيننا وفككنا الصمغ عن جفوننا، ثم وقف أبي أمام النقوش المحفورة عليه وأخذ يحدق إلى تفاصيلها، بينما تحركت أنا إلى مكانٍ بعيد عن الشمس، وأغمضت عينيَّ لثوانٍ كي أرطبهما.

النقوش المحفورة على السور كانت مزيجًا من الرموز واللغة الغامضة، تتشابك الأشجار المرسومة بأغصانٍ طويلة مضيفة بينها أعين مفتوحة وأخرى مغلقة تعبر عن اليقظة والحماية، ومثلثات متباينة الأحجام تضفي تصميمًا هندسيًا معقدًا، يبدو كبوابات لعوالم خفية.

أبرز ما في النقوش هي النجوم المنقوشة بعناية على السور، كان عددها تسعة متناثرة على طوله، قال أبي وهو يقترب من إحداها:

- هذه النجوم ليست مجرد رموز بل سجل حي للأرواح التي يحميها هذا السور، سمعنا أن كل سور كان يمتلك سبعين نجمة وقت بنائه، لكن الزمن لم يترك لنا إلا هذه النجوم التسع.

وأضاف وهو يمسح بيده التراب عن تلك النجمة:

- لهذه النجمة خمسة أضلاع، الضلع الأول لي، والثاني لأمك، والثالث لعبير، والرابع لك، والأخير لريم.

كانت آثار دمائنا على الأضلاع الأربعة زاهية بينما كان الضلع الخامس باهتًا تترسب عليه آثار شحيحة لدماء قديمة، فهمتُ بعد ذلك أنها كانت دماء أحد الأشخاص الذين عاشوا في بيتنا قديمًا، وماتوا، ولم يعودوا في حاجة إلى الحماية.

بعدها، أخرجَ أبي مكحتًا حديديًا صغيرًا وبدأ يكحت بحرص آثار الدماء الباهتة عن ضلع النجمة الخامس حتى أزالها تمامًا، ثم نفخ الغبار بعيدًا، وأشار لي كي أناوله القربة التي كنت أحملها، فناولته إياها،

فسكب بعضًا من دمائها على سبابته؛ وأخذ يصبغ ضلع النجمة الأخير، ثم انتهى فسألني باسمًا وهو ينظر إلى الضلع الخاص بي:

- ألا تريد تجديد حمايتك؟

نظرتُ إلى الظل بجواري، وقلت:

- لا، إنني بخير يا أبي، سأنتظر يوم موعدي السنوي.

أومأ برأسه متفهمًا، ونظر إلى ظله هو الآخر، وقال:

- وأنا أيضًا، لا يزال حصني بخير.

ثم ألقى نظرة متفحصة نحو شقٍّ كبير ظهر مؤخرًا في السور، وحاول إخفاء القلق الذي بدا جليًا على وجهه، قبل أن يتحرك لينثر دماء ريم على أماكن متفرقة من السور وهو يقول:

- أعلم أن ضلع النجمة هو الأهم، لكني رأيت أحد جيراننا يفعل هذا أيضًا.

في تلك اللحظة، خرجت إلينا عبير، وقالت في فرحة كبرى:

- ظهر الجني الحارس لريم! لقد صارت مُحصنة الآن.

(2)

ركضتُ خلف عبير نحو غرفة أمي، وتبعنا أبي بخطوات متزنة. كانت أمي تربت على ريم الصغيرة بحنان، وعلى الأرض ظهر ظل جديد يتحرك بنشاطٍ طفولي في أرجاء الغرفة دون توقف، كأنه يستكشف عالمه الجديد، حتى إن ظلالنا ابتعدت عنه وانسحبت إلى الجدران، كأنها تتحاشى طاقته المفرطة.

كانت هذه المرة الأولى التي أشهد فيها ميلاد جني حارس، ففي واحتنا يسود عرفٌ غير مكتوب يمنع أي شخصٍ من رؤية الجني الحارس في يومه الأول، إلا إذا كان من أفراد الأسرة المباشرين. حتى القابلة، حالما أنهت دورها، غادرت لتتركنا نستقبل تلك اللحظة بخصوصية.

بعد لحظات، قبَّل أبي جبين أمي، ثم حمل عنها ريم وقبَّل جبينها هي الأخرى، ثم مررها إليَّ، ففعلتُ الأمر نفسه. كانت الصغيرة جميلة حقًا ببشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين الواسعتين، قلتُ منبهرًا وأنا أداعب خديها:

- لقد ورثت جمال عينيكِ وبياض بشرتكِ يا أمي.

ضحكت أمي وقالت:

- أخيرًا ورث أحدكم شيئًا مني.

كانت محقة، فكنت أنا وعبير نشبه أبانا كثيرًا، بأعيننا السوداء وبشرتنا القمحية الداكنة وشعرنا الأسود الكثيف، بينما كانت أمي تتميز بعينيها الزرقاوين الواسعتين وشعرها البني الناعم وبشرتها الفاتحة التي تبدو كالحليب.

***

مع مرور السنوات، أصبحت علاقة ريم بجنيِّها الحارس فريدة من نوعها، فبينما كنا نرى الجن الحراس مجرد ظلال صامتة تتبعنا داخل أسوار منازلنا، ونتجاهل وجودها بمرور الوقت رغم ما تقدمه لنا من حماية، كانت ريم تتعامل مع ظلها كأنه حيوانها الأليف، تلاعبه طوال الوقت، وتقدم له من طعامها قبل أن تضع لقمةً في فمها، وتتحدث إليه أكثر مما تتحدث إلينا. أتذكر ذلك اليوم الذي كنا نجلس فيه إلى مائدة الطعام، وألقت إلى ظلها قطعة كبيرة من الخبز، فقال أبي ضاحكًا:

- لو تعلمين كم تعبنا هذا العام في حصاد المحصول لما أهدرتِ فتات خبزٍ واحدة.

كانت في الثالثة من عمرها حينها، فتجاهلت تعليق أبي، وبدأت تتحدث إلى ظلها كي يبدأ الأكل، فقالت لها عبير:

- إنهم لا يأكلون مثلنا يا صغيرتي.

فأجابتها بنبرة طفولية مصرة:

- لا، إن بِندو يأكل كي يكبر مثلي.

تفاجأنا بالاسم الذي أطلقته ريم على جنيِّها، ومن يومها صار ذلك الظل مميزًا وكأنه أحد أفراد أسرتنا، جاء بندو، ذهب بندو، أكل بندو. كانت أمي فقط تتحمل مشقة إزالة بقايا الطعام المُلقاة على الأرض كل مساء بعد نوم الصغيرة، وللأمانة لطالما استمتعنا بحكايات ريم

الطفولية في كثير من الليالي عندما كانت تحكي عن أشياء أخبرها إياها بندو، كنا ندرك، جميعًا في قرارة أنفسنا أنها ليست إلا مخيلة طفلة جعلت من حارسها الجني صديقها المقرب.

أما عبير فكانت عمليةً للغاية، وأكثر من يفهم فينا طبيعة الحيوانات وطرق تربيتها، فمنذ أن ذهبت في طفولتها مع أمي إلى حظيرة الماشية والطيور الملحقة ببيتنا ويبدو أن قلبها تعلق بذلك المكان، لا تتحدث إلا عن الدجاج الذي كبر وصار مؤهلًا للبيض، أو عن البقرة ذات الخوار المتواصل التي تتطلع إلى التزاوج بثور أحد جيراننا، أو الفروقات بين لبن البقرة ولبن الماعز.

أما أنا، فمع اكتمال نمو جفوني وصرت ظلًا لأبي، أرافقه في كل مكان تقريبًا. ذهبت معه للمرة الأولى إلى منطقة الحقول في سن العاشرة، لأرى أخيرًا المكان الذي يقضي فيه أغلب أوقاته نهارًا. أبي مزارع من الدرجة الأولى، وأكثر من يفهم في المحاصيل وطرق الري المناسبة لها، وأعتقد أن البئر الصغيرة التي تتوسط مزرعتنا كي تجمع مياه الأمطار هي الأفضل بين آبار المزارع هناك.

في تلك الزيارة كلفني بمراقبة البقرة التي تدير ذراع الرافعة حول البئر كي ترفعَ الماء إلى قنوات الري، نُهِشتُ حينها من وجود شفيفة على أعين البقرة معْ علمي بأن أطفال البئر لا يهاجمون الحيوانات، لكنه أشار بعيدًا نحو الدوَّارة، تلك الدوامات الرملية العملاقة التي تحيط بواحتنا من كل جانب، وقال:

- إننا في أواخر فصل الشتاء، وقد تنحرف الدوارة عن مسارها في أي لحظة، وحينها ستكون الرياح مشبعة بالرمال.

ثم جلس على الأرض، ورسم مربعًا صغيرًا على الرمال أمامي، تحيط به دائرة كبيرة، وقال:

- هذا المربع يمثل واحتنا، وهذه الدائرة تمثل الدوارة. من حسن الحظ أنها لا تنحرف عن مسارها إلا أيامًا قليلة في السنة، وإلا دُمرت محاصيلنا ومُتنا جوعًا مع عدم قدرتنا على عبور دواماتها.

وقتها، تركتُ كل شيء وجلستُ أحدق نحو تلك الدوامات البعيدة التي ترتفع رمالها إلى عنان السماء وتجعل من واحتنا سجنًا لا مفر منه. قبل أن يخرج أبي زجاجة المرطب العشبي من جيبه ويغمس إصبعه فيها، ويضع على عيني طبقةً من تلك المعجون الساحر الذي تصنعه أمي ببراعة وتبيعه لأهل الواحة.

كانت أمي آخر الضيوف الذين سمحت لهم حظيرة القبور بالقدوم إلى الواحة قبل عشرين عامًا، وأدركت أنها لن تستطيع المغادرة، فتأقلمت، وبحثت عن شيء تتجو به في ذلك المكان، وبطريقة غير مسبوقة استطاعت صناعة معجون مرطب للعين من أعشابٍ برية تنمو بالقرب من الحقول، ليجعلها لاحقًا من أثرياء الواحة. قال أبي بعدما وضع طبقة من المعجون لعينيه هو الآخر:

- قبل قدوم أمك إلى الواحة كان أقصى ما تتحمله أعيننا دون ترطيب ساعتين، بعدها يشتد جفافها وتصبح عرضة للتقرح، وإذا لم نعد إلى بيوتنا في الحال من أجل تحرير جفوننا من الصمغ، فالعمى مصيرنا لا محالة، خاصةً أن الأقمشة المبللة بالماء التي نرطب بها أعين الأطفال لا تستطيع استخدامها في الخارج مع أثرها العكسي بتليين الصمغ.

فكرت فيما سيفعله بنا أطفال البئر إذا رمشت جفوننا خارج البيوت، قبل أن يكمل أبي فخره بأمي:

- بفضل مرطب أمك استطعنا البقاء في الحقول لنهارٍ كامل، كل ما عليك فعله هو التأكد أن زجاجته في جيبك، وحالما تشعر

بجفاف عينيك، تستريح قليلًا وتغطي عينيك بطبقة منه، ثم تكمل عملك في الحقل مرة أخرى بعدما تمتصه عيناك. لقد كانت أمك سببًا رئيسيًا في زيادة إنتاج المحاصيل وتحقيق اكتفاء ذاتي من الطعام في هذه الواحة.

***

في عامي الثالث عشر، قادني أبي للمرة الأولى إلى غرفة الاتصال، وهي غرفة صغيرة ذات باب عتيق تقع في قبو بيتنا العميق تحت الأرض. داخل تلك الغرفة التي ليس بها نوافذ تشعر كأنك في عالم آخر، خاصة مع الإضاءة الضعيفة المرتعشة للفانوس المتدلي من السقف. الجدار المواجه للباب مُقسم بأكمله إلى صفوف منتظمة من الفتحات الدائرية المتجاورة، كل فتحة قطرها بوصتين تقريبًا، ومغطاة بغطاء دائري من الفخار، قال أبي حينها وهو يشير إلى ذلك الجدار:

- يوجد في واحتنا خمس عشرة غرفة اتصال موزعة في أرجائها، كل غرفة منها تخدم مجموعة من البيوت. كانت هذه الغرف وسيلة التواصل بين الأهالي في الأيام التي يصعب فيها الخروج من البيوت.

نظرت إلى الفتحات الجدارية بانبهار، وفكرتُ في أهل الواحة البالغ عددهم ألف فرد تقريبًا، وكيف يمكن لهذه الغرف أن تربط بينهم في الأوقات العصيبة. لكن أبي قطع انبهاري سريعًا حينما أضاف:

- لكني لم أرها تعمل يومًا.

ثم أزال الغطاء الفخاري لإحدى الفتحات، وبدأ يجرب صوته أمامها بنبرة مرحة:

- هل تسمعني يا فريد؟!

كان بيت السيد فريد هو أقرب البيوت التي تحتوي على غرفة اتصال أخرى، وبالفعل لم تأتِ أي إجابة عبر تلك الفتحة. فأردف أبي:

- في الحقيقة، لا أحد يعرف السر الحقيقي وراء وجود هذه الغرف في أقبية بعض البيوت، الاعتقاد الشائع أنها كانت وسيلة اتصال، كما قلت لك. لكن هناك أساطير تقول إنها بوابة للتواصل مع الموتى، وهناك أساطير أخرى تقول إن هذه الفتحات تستمع إلى أحاديث الناس هنا وتكوِّن وجدان ضيوف الواحة قبل قدومهم إليها.

وأضاف باسمًا:

- وإن أنكرت أمك هذا الأمر.

ثم تركني وغادر، فبقيتُ في تلك الغرفة أنظر إلى الفتحات الجدارية، وأفتح بعض أغطيتها وأغلقها مرة أخرى. ومن وقتها وتعلق قلبي بتلك الغرفة، فمن الرائع أن تجد مكانًا تبوح فيه بكل ما يدور في داخلك وأنت تعلم أنه لن يسمعك أحد. لذلك اخترت إحدى الفتحات، وكنت أتوجه إليها بصورة شبه يومية في المساء وأفتح غطاءها وأبوح لها بأي شيء يدور في بالي بشأني أو بشأن أسرتي، وخاصةً أبي الذي كان قلقه يزداد يومًا بعد يوم مع تمدد شق سور بيتنا بصورة ملحوظة.

***

في منتصف عامي الخامس عشر اجتاح الرعب واحتنا إذ انهار فجأة سور أحد البيوت ليلًا، ونهضنا جميعًا لنجد أشلاء سكانه الخمسة متناثرة في كل مكان بالخارج، وفي خلال ستة شهور أخرى انهارت أسوار ثلاثة عشر بيتًا آخر، والتهم أطفال البئر أصحابها، ومع الشقوق المنتشرة بكل أسوار بيوت الواحة أدرك الجميع أن هلاكهم مسألة وقت

لا أكثر. حاول أبي ترميم شق سورنا مرارًا في ذلك العام، لكن فشلت كل محاولاته، وكان الشق يزداد أكثر وأكثر، لنصبح مثل غيرنا في انتظار هزة أرضية خفيفة تطيح بالسور ونقوشه أرضًا، وحينها سنمسي جميعًا من الماضي.

أتذكر الصمت الذي ساد وجوهنا ونحن نجلس إلى طاولة الطعام خلال ذلك النهار الذي سقط فيه سور بيت جارنا العم لبيب، ومُزق هو وزوجته وبناتهما أمام أعيننا دون أن نستطيع فعل شيء، حتى قطعت أمي الصمت الطويل، وقالت لأبي:

- ربما ندعِّم السور بأخشاب إضافية تساعده على الصمود.

هز رأسه في غير اقتناع، وقال:

- لم تنجح الأخشاب في منع سقوط أسوار البيوت التي انهارت، إنه قدر محتوم.

وأخرج زفيره، ثم قال:

- لقد طلب حكيم الواحة أن يجتمع ممثلو الأسر في الحصن السداسي يوم الجمعة القادم من أجل البحث عن حلٍّ يؤجل موتنا الجماعي.

ثم نظر نحوي، وتابع:

- ستكون قد بلغت عامك السادس عشر يا يوسف، ستأتي معي إلى هذا الاجتماع.

أومأت برأسي موافقًا في صمت، دون أن أدرك ما كان ينتظرني في ذلك الاجتماع.

(3)

مع بزوغ فجر يوم الجمعة، كنت أنا وأبي نسير بخطوات هادئة نحو الحصن السداسي الذي يقع في قلب الواحة. في ذلك التوقيت كانت شوارع الواحة هادئة للغاية، وعندما مررنا ببعض البيوت المهجورة ذات الأسوار المهدمة أدركتُ أهمية الاجتماع الذي ينتظرنا.

الحصن السداسي بناء شامخ ذو جدران حجرية عالية، كل ضلع من أضلاعه الستة يحتوي على بوابة خشبية ضخمة تؤدي إلى الداخل، حيث الساحة الواسعة التي تحيطها المدرجات المرتفعة.

الجدران الداخلية للحصن مزينة بنقوش معقدة تحكي قصصًا عن تاريخ واحتنا، وتعاويذَ تؤمِّن وجودنا داخله أحرار الجفون ليوم واحد كل أربع سنوات.

فورَ دخولنا إلى الحصن، ظهرت ظلال الجن الحراس بجوارنا، وتبعتنا بصمت، فحررنا جفوننا. وما هي إلا لحظات حتى بدأت ساحة الحصن تمتلئ بالناس الذين تجمعوا في مجموعات صغيرة، وأخذوا يتبادلون الأحاديث بنبرة منخفضة، سألتُ أبي وأنا أراقب الحشد:

- متى يبدأ الاجتماع؟

أجابني بصوت منخفض:

- حالما يدخل الحصن السيد رشيد كبير الحكماء.

بين الحضور رأيت بعض الشبان الذين كنت أعرفهم، كان هناك سالم المعروف بقوته البدنية وبشرته السمراء وشعره المجعد الكثيف، بجانبه كانت ليلى ذات الشعر البني الداكن والعينين العسليتين، كما رأيت قاسم ذا العين الواحدة واللحية الكثيفة، يتحدث مع والدته وفي يده قوسه الذي لا يفارقه، كان طويل القامة، قوي البنية، وعينه الواحدة تتوهج بالغرور كونه أمهر الصيادين في واحتنا.

تركت أبي الذي انشغل بالحديث مع صديق له، وتحركت نحو مجموعة من الشبان الذين كان لي معرفة أعمق بهم؛ رزان ابنة أشهر صانع صمغ في الواحة، السيد عقيل، وحسّان الشاب الذي دائمًا ما يتفوق في حل الألغاز، وناجي المنصور أكثر شبان الواحة اهتمامًا بقراءة الكتب ومحاولة فك رموز الجدران.

كانت رزان جميلة كالعادة بشعرها الأسود الطويل الذي ينسدل على كتفيها وعينيها الخضراوين الواسعتين اللتين تشعان بالثقة والوقار، سألتني بعدما رحبت هي والباقون بي:

- كيف تشعر اليوم؟

فقلت:

- أشعر بالقلق قليلًا، لكني متحمس لمعرفة ما سيحدث.

قال حسان:

- يبدو أن أباك أكثر حماسًا.

نظرت نحو أبي، كان بالفعل يتنقل للحديث من سيدٍ إلى آخر كأنه يهتم بالشأن وحده. قال ناجي الذي كان يحمل كتابًا في يده:

- أعتقد أن هذا هو أهم اجتماع قد نعاصره في حياتنا، سأدوّن كل كلمة ينطق بها السادة في هذا الاجتماع.

ثم تابع متباهيًا بثقافته الواسعة:

- هل تعرفون قصة الضيف الذي اكتشف أن الحصن السداسي يحمي من بداخله ليوم واحد كل أربع سنوات؟

كنت أعرف القصة، لكنه استمر في حديثه خاصةً بعدما اقتربت مجموعة أخرى من الشبان، وقال:

- قبل زمنٍ طويل؛ أتى ذلك الضيف إلى واحتنا، وذات يوم كان يتجول بالقرب من الحصن السداسي واشتدت حرارة الشمس، وصار صمغه على وشك الذوبان، فركض إلى داخل الحصن فاقدًا الأمل، لكنه فوجئ بجنيِّه الحارس يظهر بجواره فورَ عبوره بوابة الحصن، ثم قام بتقوية صمغه بمساعدة أحد المارين قرب الحصن، وانتظر في داخله حتى منتصف الليل، ليُفاجأ باختفاء ظله بعدها. حينها كرر ذهابه إلى الحصن كل ليلة لمدة أربع سنوات كاملة، مدونًا ملاحظاته عن كل يوم، ليكتشف أن الحصن يوفر الحماية ليوم واحد فقط كل أربع سنوات، وأكد اكتشافه عندما انتظر أربع سنوات أخرى، كان ضيف آخر قد أدخل خلالها التقويم الميلادي إلى واحتنا. ومنذ ذلك الوقت، صار معروفًا أن يوم التاسع والعشرين من فبراير، الذي يأتي كل أربع سنوات، هو اليوم الوحيد الذي نستطيع فيه البقاء داخل الحصن بأجفان محررة دون خوف.

وأردف ملوحًا بكتابه:

- لطالما قدَّم الضيوف الكثير إلى هذه الواحة.

هز الجميع رؤوسهم متفقين معه، وبينهم أنا. فلولا الضيوف لما اكتشفنا تاريخ الواحة أو سبل التعامل مع أطفال البشر، وإنْ كنت أشعر ببعض التميز بين الشبان، فربما يكون ذلك بسبب أمي، آخر ضيوف الواحة التي اكتشفت مرطب الأعين. وإن دُهش الجميع من عدم سماح

حظيرة القبور لها بالرحيل بعد مساعدتها لأهل الواحة، مثلما فعلت مع كل الضيوف الذين تحدثت كتب التاريخ عنهم.

بينما كنا نتحدث، بدأت الهمهمات تتزايد بين الحاضرين. توجهت أنظارنا حينذاك نحو المنصة المركزية، فوجدنا بعض السادة قد اتخذوا أماكنهم على مقاعدها الحجرية، من بينهم أبي الذي جلس بجوار السيد فطين الحكيم ذي الرؤية الثاقبة، والسيد بشير الذي يتحدث بلغة قوية ومؤثرة وله حضور لا يمكن تجاهله. كان هناك أيضًا السيد طاهر الذي عُرف بقدرته على التفكير السريع واتخاذ القرارات الصائبة، والسيد نجيب الذي كان يمتاز بروحه المرحة وقدرته على تهدئة النفوس.

فجأةً، ساد الصمت في المكان. إذ دخل السيد رشيد، كبير الحكماء، إلى ساحة الحصن. كان رجلًا في الثمانينات من عمره، وجهه محفور بالتجاعيد، وعيناه مغشاتان بسحابة بيضاء. تقدم ببطء نحو المنصة دون مساعدة أحد، ثم وقف في منتصفها، وأدار وجهه نحو الحاضرين، وقال بصوت مهيب:

- أهلًا بكم جميعًا. اليوم نجتمع لنتحدث عن مستقبل الواحة وكيف يمكننا حماية أرواحنا وأرواح أطفالنا.

بعد ذلك، التفت إلى سادة المنصة، وتابع بنبرة هادئة لكنها مليئة بالثقل:

- الجدران تتساقط، والموت يقترب منا جميعًا. نحن بحاجة إلى حلول فورية لإنقاذ الواحة.

ساد الصمت للحظة، ثم بدأت الهمهمات تعلو بين الصفوف. فوقف السيد نجيب، وقال:

- ربما يمكننا تدعيم أسوار بيوتنا ببقايا الأسوار التي تهدمت بالفعل. يمكننا إذابة الطمي الناتج عنها، واستخدامه في ترميم الأسوار المتضررة.

أومأ السيد بشير رافضًا، وقال:

- أحد أصحاب البيوت التي تهدمت قام بذلك بالفعل سرًا، لكنه لم ينجح في حماية سور بيته.

وأردف في أسف:

- أخبرني ما فعله كي أقوم بالفعل نفسه، لكنه لم يدرك أن سور بيته المرمم سيسقط بعدها بأسبوع.

عادت الهمسات بين الحضور، مؤيدة في معظمها كلام السيد بشير، فجلس السيد نجيب، ووقف السيد طاهر، وقال بنبرة متفكرة:

- ماذا لو استخدمنا جدران الحصن السداسي لتدعيم أسوار البيوت؟

انطلقت الهمهمات الغاضبة، وقال السيد فطين:

- ندرك جميعًا أن الحصن لا يوفر لنا الحماية إلا في يوم واحد كل أربع سنوات، لكننا لم نفك بعد جميع الرموز المنقوشة على جدرانه، ولم نكتشف كل أسراره. لذا، لا يمكننا المخاطرة بسلامته.

اتفق الباقون مع ما قاله السيد فطين، قبل أن يقف شاب من الحضور، ويقول:

- ماذا عن بناء أسوار جديدة حول البيوت ونقل الطبقة التي تحتوي نقوش الحماية إليها؟

فقال ناجي بنبرة من التهكم:

- إن أزلت طبقة صغيرة من سور بيتك فستسقط كل نقوشه في الحال، عليك أن تقرأ التاريخ أولًا يا صديقي قبل أن تتفوه بتلك الاقتراحات المتهورة.

هز الشاب رأسه في حرج ثم جلس، وساد الصمت لبعض الوقت، حتى نطق أبي الذي لم يتفوه بكلمة منذ بدء النقاش:

- ليس أمامنا حل سوى استحضار ضيف جديد إلى الواحة.

وأردف:

- لطالما استدعت حظيرة القبور ضيوفًا في الأوقات الحرجة، استطاع جميعهم أن يخرجوا الواحة من تلك الأوقات.

ونظر إلى ناجي، وسأله:

- أليس كذلك يا قارئ التاريخ؟

ابتسم ناجي بفخر، وقال:

- بلى يا سيدي.

قال السيد نجيب مستغربًا من اقتراح أبي:

- أظن أنك أكثر من يعلم أن آخر ضيوف الواحة كانت دلال زوجتك، قبل أكثر من عشرين عامًا، ولم يأتِ أحد إلينا منذ ذلك الحين.

ثم أضاف بنبرة ساخرة:

- عليك أن تذهب إلى حظيرة القبور وتستجديها كي ينبع الماء في أحد قبورها من أجل استحضار ضيف جديد.

حينها خطرت في بالي الطريقة التقليدية التي يصل بها الضيوف إلى الواحة، فلكل فرد في هذه الواحة قبر جاف الأرضية في حظيرة القبور. وعندما تقرر الحظيرة استحضار ضيف جديد، يبدأ الماء بالتدفق في أحد القبور، محولًا أرضه الجافة إلى وحلٍ يتزايد يومًا بعد يوم حتى يغمر القبر بالكامل. عندها، يُغطى جسد صاحب القبر بذلك الوحل الذي يحميه من أطفال البئر ويقيه من شدة الدوارة. ثم يغادر الواحة، متجهًا إلى داخل الدوارة في رحلة بلا عودة. وبعد أيام، يحل ضيف جديد على الواحة عبر الدوارة أيضًا.

لا أحد يعلم كيف تختار الحظيرة ضيوفها، ولا من أي بلد يأتون. جميعهم يصلون مغطين بالوحل، فاقدين لذاكرتهم، ولا يعرفون كيف وصلوا إلينا. ومع إدراكهم لواقعهم الجديد، لا يجدون أمامهم إلا التأقلم.

يحفرون قبورًا لأنفسهم في الحظيرة، ويقطرون فيها من دمائهم، ثم يمرون على بيوت الواحة بيتًا تلو الآخر، ويصبغون بدمائهم أحد أضلاع النجوم المنقوشة على أسوارها، حتى تظهر الجن الحارسة الخاصة بهم في أحد البيوت، فيصبح ذلك البيت مسكنهم في الواحة.

عندما حدثني أبي قديمًا عن تلك الطريقة، سألته:

- ماذا لو لم يرد صاحب التبر الذي غُمر بالوحل الرحيل؟

أجابني:

- لقد اختارته الحظيرة دونًا عن غيره كي ينجو من الواحة. لذا، إن جف وحل قبره دون أن يغادر، تتخلى عنه الجظيرة والجن الحارسة ويفقد حمايته في أي مكان، حتى داخل سور بيته.

وأردف شاردًا:

- رفض أي مختارٍ للرحيل يعني موته الوشيك.

أتذكر أنني سألته حينها:

- لماذا لم تأتِ الحظيرة بضيوفٍ آخرين بعد أمي؟

قال:

- لا أعرف، للواحة أسرار كثيرة لم تُكشف بعد.

لذلك، شعرت بالدهشة عندما طرح فكرة استحضار ضيف جديد أمام الحاضرين، الذين استقبلوا اقتراحه بتهكم وهمهمات ساخرة، خاصة بعد أن ذكر السيد نجيب أمر أمي، لكن الصمت خيم على الجميع عندما قال السيد رشيد:

- أعتقد أن اقتراحك هو الأفضل يا أيوب. نحن في حاجة ماسة إلى ضيفٍ يساعدنا. وإذا كانت الحظيرة قد امتنعت عن جلب الضيوف بطريقتها التقليدية، فعلينا أن نلجأ إلى الطريقة الأخرى لاستحضار ضيف جديد.

تساءلت في نفسي:

- أي طريقة أخرى؟!

وأعتقد أن الكثيرين تساءلوا مثلما تساءلت، حتى أكمل السيد رشيد:

- لقد آن الأوان لننقب من جديد عن أحجار زُمير الكريمة في الواحة القديمة خلف الدوارة، كي نقدمها إلى حظيرة القبور.

***

شهق الجميع فورَ سماعهم ما قاله السيد رشيد، فالتنقيب خلف الدوارة أمر لم يحدث في الواحة منذ أكثر من مائتي عام، وعلى مدار قرون طويلة من التنقيب، لم ينجُ من المنقبين إلا شخص واحد، تمكن من العثور على قطعة واحدة فقط من أحجار زُمير. ولطالما تحدثت الأساطير عن الموت المحقق لكل من شرع في تلك المهمة المستحيلة. أما أنا فغصت في أعماق ذاكرتي مستحضرًا قصة الواحة القديمة التي اكتشفها أحد الضيوف قبل خمسة قرون عندما تمكن من تفسير بعض النقوش على جدران الحصن السداسي وحظيرة القبور. تحكي النقوش ما حدث في واحتنا قبل ألف عام، عندما كانت مساحتها أكبر بكثير مما هي عليه الآن، وكان أهلها يعيشون في سلام ورخاء. إلى أن جاء يوم وسقط إلى أرضها شهابٌ عظيم، محدثًا بئرًا عميقة لم يشهد الناس مثل مائها العذب. كانت تلك البئر سببًا في تحويل أرض الواحة الجرداء إلى أرض خصبة صالحة للزراعة، فازدهرت الحياة في الواحة، وأصبح أهلها من أغنى الناس. لكن، كما هي طبيعة الإنسان، لم يقنع أجدادنا بتلك النعم وانساقوا خلف طمعهم بعد اكتشافهم أحجار زُمير الكريمة في البئر، مما أدى إلى إفساد كل شيء طيب.

بدأت القصة عندما لاحظ مزارع يُدعى زُمير أن البئر تمتلئ بالماء بغزارة ما دام القمر في السماء، وتنحسر مياهها في الليالي المظلمة. وفي فجر إحدى هذه الليالي، لفت انتباهه ضوء خافت ينبعث من أعماق البئر. بدافع الفضول، ربط نفسه بحبل طويل ونزل إلى القاع، ليكتشف أن مصدر ذلك الضوء هو أربع زهور كبرى، تتشابك أغصانها لتغطي قاع البئر. في قلب كل زهرة من الثلاث الأولى، كان هناك حجر مضيء بحجم رأس إنسان، أما الزهرة الرابعة فاحتوت على حجر أكبر، حجمه يعادل حجم الأحجار الثلاثة مجتمعة.

كانت هذه الأحجار تتوهج بلون فيروزي عميق، ينبض بنور هادئ يشبه بريق الأمل في أحلك الليالي. فكّر زُمير أن هذه الأحجار هي سر تدفق الماء الغزير. وخرج من البئر وشيطانه يوسوس إليه بالعودة. وبالفعل عاد عند انحسار الماء في الشهر الجديد. واقتلع واحدة من تلك الزهور وخرج بها، ثم قطّع حجرها الكريم إلى أربع قطع، وألقى بتلك القطع في آبار جافة مهجورة كان قد اشتراها في واحة أخرى. فنبع الماء فيها بغزارة، وازدهرت أرضه وتجارته ليصبح أثرى رجل في الواحات.

لم يكن يعلم بسر زُمير إلا زوجته، التي أفشت السر لاحقًا دون قصد لأختها. فانتشرت قصة أحجار البئر بين أهل الواحة، وقرر بعض ضعاف النفوس اقتلاع زهرتين إضافيتين من زهور البئر، وتركوا الزهرة الأخيرة التي تحتوي الحجر الأكبر، وتعاهدوا على عدم المساس بها خشية أن تتوقف البئر عن إمدادهم بالماء. ثم قسّموا حجري الزهرتين إلى قطعٍ صغيرة، كل قطعة بحجم حبة تمر، ووزعوها على أنفسهم، مُطلقين عليها «أحجار زُمير الكريمة». ومع كثرة الأراضي الخصبة في الواحة، فضّل بعضهم بيع القطع إلى الواحات الأخرى بأسعار خيالية،

فحققوا ثروات هائلة، بينما احتفظ آخرون بالقطع أو أهدوها لزوجاتهم ليضعنها قلائد حول أعناقهن.

لكن ما لم يتوقعه أحد هو أن شخصًا مجهولًا ذهب إلى البئر ليلًا واقتلع الزهرة الأخيرة. بعدها لم تمر أيام حتى جفت البئر العظيمة، وجفت معها جميع الآبار الأخرى. ماتت الأرض الخصبة من الجفاف، واشتد القحط، ليخيم شبح الموت جوعًا على الجميع. حتى رأى أحدهم رؤيةً يُقدِّم فيها أهل الواحة الأطفال أحياءً كقرابين لنبتة البئر كي تعود لإنتاج الماء. وهكذا بدأت قصة أطفال البئر.

أفاقني من شرودي بقصة الواحة القديمة صوت السيد رشيد الذي كان يقول:

- ستُجرى الآن قرعة علنية لاختيار أربعة أشخاصٍ من بيننا، ممن لم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من أعمارهم، للتنقيب عن أحجار زُمير في الواحة القديمة خلف الدوارة، حيث هلك أجدادنا. لعلهم يعثرون على قطعة واحدة نضعها في أحد قبور الحظيرة، فتمنح صاحب القبر في المقابل وحلًا يغادر به الواحة، ويأتي مكانه ضيف ينقذنا مما نحن مقبلون عليه.

حينذاك، بدأ أربعة من السادة، بينهم أبي، يمرون بين الصفوف وفي أياديهم أوانٍ فخارية. لم أفهم ماذا أفعل إلا عندما وقف أمامي السيد نجيب، وطلب مني أن أعطيه شفيفتي، فناولته إياها، فقطع منها قطعة صغيرة ودوَّن عليها اسمي، ثم وضعها في إنائه، وتحرك ليفعل الأمر نفسه مع من يجلسون بجواري. نظرت نحو أبي الذي كان يجمع قطع الشفائف في صفوف بعيدة، وبين الحين والآخر ينظر إليَّ، حتى انتهى هو وبقية السادة من جمع القطع، فعادوا إلى المنصة، ووضعوها كلها في إناء واحد كبير، لينطق السيد رشيد بصوتٍ رخيم:

- إن الموت قادمٌ قادم، فليعلم من يختارهم القدر أنهم سيضحون بحياتهم من أجل نجاة الآخرين.

ثم مد يده إلى الإناء، وحركها بين الشفائف، وأخرج قطعة واحدة منها، وأعطاها للسيد نجيب الذي قرأ الاسم المكتوب على الشفيفة بصوت عالٍ:

- المنقِّب الأول قاسم زيدان.

نظر الجميع إلى قاسم ذي العين الواحدة، فوقف متباهيًا ورفع قوسه بيدٍ واحدة، وبيده الأخرى ضرب على صدره بحماس. بعدها مد السيد رشيد يده مرة أخرى إلى الإناء، وأخرج شفيفةً أخرى، وأعطاها للسيد طاهر، فقرأ لنا السيد طاهر اسم صاحبها:

- ناجي المنصور.

نهض ناجي قارئ التاريخ، بوجه شاحب يقطر عرقًا من التوتر. لكنه سرعان ما تدارك أن الجميع ينظرون إليه، فرفع يده يحييهم كأنه يتقبل القرعة.

بعد لحظات، مد السيد رشيد يده مرة أخرى، وأعطى الشفيفة المختارة للسيد بشير، فقرأ السيد بشير الاسم بصوته الأجش:

- رزان عُقيل.

وقفت رزان في صمت، فقط نظرت نحو أبيها الذي وضع رأسه بين يديه من الصدمة، ثم جلست مرة أخرى. بعدها مد السيد رشيد يده ليخرج اسم المنقب الأخير، ثم أعطى الشفيفة التي اختارها لأبي، وقتها نظر أبي طويلًا إلى الاسم المدوَّن عليها، ثم نظر نحوي وابتلع ريقه، وقال بصوت يسمعه الجميع:

- يوسف أيوب.

(4)

في مزيج من المشاعر المضطربة والصمت العميق، تلقيتُ إعلان أبي عن اسمي كرابع المختارين للتنقيب عن حجر زمير. لست جبانًا، لكنني أيضًا لم أكن أمتلك أي ميزة تجعلني مؤهلًا لخوض تلك المغامرة. وقفتُ مكاني دون أن أحيي الحاضرين، فقط حدقتُ إلى أبي الذي واصل نظره نحوي في صمت. قبل أن أجلس، وكأن الزمن توقف بي. بعدها أنهى السيد رشيد الاجتماع، معلنًا عن اجتماعه بالمختارين الأربعة فقط مع شروق شمس يوم الاثنين التالي في حظيرة القبور.

في أثناء مغادرتي الحصن، كان الحاضرون يومئون لي ويوجهون إليَّ بعض كلماتهم. ووسط التشوش الذي كنت أشعر به، لم أتمكن من تحديد ما إذا كانت كلماتهم تحمل في طياتها تحفيزًا أم شفقة. كانت رزان هي الأخرى تسير صامتةً بجوار أبيها، الذي كان يحتضن كتفيها بذراعه، بينما تجمع الشبان حول قاسم الذي بدا سعيدًا باختياره، وكأنه كان ينتظر تلك المغامرة منذ وقت طويل. أما ناجي، فلم أبصره في تلك الأثناء، وكأنه انزوى في مكان ما.

في طريق العودة إلى البيت، سرت بجوار أبي دون أن أنبس بكلمة. هو الآخر لم ينطق بشيء، كنت أعرف أن تأنيبه لنفسه على اقتراحه استحضار ضيف جديد وما ترتب عليه من اختياري في تلك القُرعة كان يأكل داخله، فليس سهلًا على المرء أن يدفع بابنه نحو التهلكة.

فورَ دخولنا البيت، سألتنا أمي بقلق عندما رأت اضطراب حالتينا:

- ماذا حدث في الاجتماع؟

لم أقل شيئًا، بينما قال أبي باقتضاب:

- ستُرسل الواحة أربعة منقبين إلى الواحة القديمة كي يبحثوا عن قطعةٍ من أحجار زمير نستحضر بها ضيفًا جديدًا إلى الواحة.

احمرَّ وجهها على الفور، وسألت وهي تنظر في أعيننا:

- مَن منكما سيذهب؟

صمت أبي وعيناه تلمعان بالدموع، بينما أومأتُ برأسي وقلت:

- لقد اختارتني القُرعة يا أمي.

وضعت راحة يدها على فمها في صدمة، فقال أبي محاولًا تمالك نفسه:

- لقد صار رجلًا، والقُرعة لا تفرق بين شخص وآخر في الواحة.

فقلت مهدئًا من روعها:

- نعم يا أمي، لقد جرت القُرعة على جميع الشبان والشابات في الواحة، وكنت أنا المختار الأخير.

نظرت نحو أبي وقالت:

- يمكن لأحدنا الذهاب معه، أنا أو أنت.

هز أبي رأسه رافضًا وقال بحزم:

- سيذهب الأربعة فقط يا دلال. وسننتظر هنا مصيرنا الذي يتعلق بنجاحهم فيما هم ذاهبون من أجله.

ثم بدأ نقاشهما يحتد، فانسحبتُ إلى غرفة الاتصال، وجلستُ أمام الفتحة التي أتحدث إليها كل مساء، لكنني لم أنطق بكلمة حتى غلبني النعاس.

***

مع شروق شمس يوم الاثنين، توجهتُ إلى حظيرة القبور. كانت رزان الوحيدة التي وصلت قبلي. رأيتها تقف أمام قبرٍ وتحدق إلى أرضيته شاردة، لدرجة أنها لم تشعر بي عندما اقتربتُ منها، وجفلت حينما ألقيتُ عليها التحية. فاعتذرتُ لها، فقالت:

- لا بأس، كنت شاردة وأنا أنظر إلى قبري، لا آتي إلى هنا كثيرًا.

قلت:

- وأنا أيضًا. المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هنا كانت قبل أربع سنوات، يوم ولادة أختي الصغرى.

أومأت برأسها ثم سألتني:

- هل تقبَّل عقلك ما نحن ذاهبون إليه قريبًا؟

أجبتها:

- إلى حد ما، قلت لعقلي قد لا ننجو من تلك المهمة، لكن الموت آتٍ لا محالة إلى الواحة إن لم نقم بها، لذا اقتنع في النهاية بأنه لن يكون هناك فرق كبير بين الحالتين.

وسألتها:

- ماذا عنكِ؟

قالت:

- كانت صدمة كبيرة لي في البداية، لكن مع مرور الوقت، بدأ عقلي يتقبل الفكرة. أبي هو من يحمل همي كثيرًا، فمنذ إجراء القرعة وهو شارد ومغموم على الدوام. كان يعدُّني لخلافته في صناعة الصمغ، كي أكمل مسيرة عائلتنا المشهورة بأجود أنواع الصمغ منذ قديم الأزل. ولم يتخيل قط أن يكون هناك احتمال لفقداني مع بلوغي عامي السادس عشر. لكنني وعدته بأنني سأعود إليه.

في تلك الأثناء، دخل قاسم إلى ساحة الحظيرة. ظننت أنه سينضم إلينا، لكنه رمقنا بنظرة عابرة ووقف يتأمل النقوش الموجودة على الجدران بعيدًا، دون أن يعيرنا أي اهتمام.

فقلت لرزان:

- أعتقد أنكِ أُخترتِ في القُرعة لمهارتك في صناعة الصمغ، وربما أُختير قاسم لقوته ومهارته في الصيد، وربما أُختير ناجي لثقافته الواسعة ومعرفته الغنية بتاريخ الواحة. أما أنا فلا أعرف حتى الآن لماذا اختارتني القُرعة.

قالت بابتسامة:

- ربما لكونك ابن الضيفة التي لم تغادر.

ضحكتُ وقلت:

- كنت أظن أن تلك ميزة قبل هذه اللحظة.

قالت وهي تلقي نظرة أخرى نحو قبرها:

- أظنها كانت مجرد قُرعة عادية لا تتعلق بأي مميزات في المختارين.

دخل ناجي في ذلك الوقت إلى الحظيرة، وما إن رآنا حتى لوّح لنا بيده واقترب منا، متجاهلًا قاسم الذي لم يلتفت إليه وظل مستغرقًا في تأمل نقوش الجدران. وقبل أن يبدأ ناجي أي حديث، دخل إلى الحظيرة السيد رشيد متكئًا على عصاه، وخلفه مساعده الذي كان يحمل لفة قماشية كبيرة، ثم اتجه نحو صخرة مسطحة تقع بعيدًا قليلًا عن القبور، وجلس عليها. فتحركنا نحوه جميعًا وجلسنا في مواجهته.

***

قال السيد رشيد:

- أعلم كم كانت مشاعركم متضاربة خلال الأيام الماضية، لكن عليكم أن تعلموا أن القدر هو مَن اختاركم لإنقاذ أهل هذه الواحة.

وأضاف بصراحة شديدة:

- كما هو مُدون في الكتب، لم ينجح من المنقبين القدامى إلا واحد فقط استطاع العودة بقطعة واحدة من أحجار زمير. لكنه لسوء الحظ مات قبل أن يدوِّن ما رآه في ذلك المكان الموحش.

وابتسم بسخرية:

- نجا من أهوال الواحة القديمة، لكنه لم ينجُ من الغدر بعدما طعنه أحد أصدقائه وسرق الحجر منه كي يضعه في قبره ويستخدم وحله للخروج من الواحة.

وأردف وهو يوجِّه عينه البيضاء إلى الأعلى:

- لكننا نعلم جميعًا أن الواحة القديمة مكان ملعون يسكن الشر جميع أركانه، حيث لا تجدي تعاويذ الحماية، ولا تظهر الجن الحارسة لتمنع عنكم أطفال البئر، في حال رمشت جفونكم.

قال قاسم بحماس:

- أنا مستعد لمواجهة أي تحدٍّ هناك.

فقال السيد رشيد:

- الشجاعة وحدها لا تكفي يا ولدي. قوتكم في جماعتكم. إن نجوتم، فسيكون بفضل تعاونكم فحسب.

ثم أضاف:

- ستوفر لكم الواحة ما يلزمكم لاجتياز الدوارة. سنصنع لكم ثيابًا قوية من جلود الحيوانات، وشفائف من الزجاج، وسنمد كل واحد

منكم برمجٍ يساعده على اجتياز الرمال الناعمة أسفل الدوارة، ودرع خشبي قوي لأوقات اشتداد رياح الدوارة.

وتابع:

- كما دُوِّن في قصصنا القديمة، استطاع المنقِّب الوحيد الذي عاد بقطعة زمير اجتياز الدوارة عندما انحرفت عن مسارها في أواخر فصل الشتاء، حيث تتكون ثغرة تكون فيها الرياح أضعف من باقي أجزاء الدوارة. منذ ذلك الحين، لاحظ قدماؤنا أن تلك الثغرة تتكرر كل عام في اليوم التاسع من مارس، الساعة الثالثة عصرًا تحديدًا، أي بعد ستة أيام من اليوم.

ثم أشار إلى مساعده، فقدَّم له اللفة القماشية. فتح السيد رشيد اللفة بحذر، وأخرج منها شيئًا دائريًا منحوتًا بدقة من حجر متين. في وسطه برز نتوء معدني، مثبت بميل فوق سطح مزخرف بنقوش دقيقة موزعة بشكل منتظم حوله.

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها شيئًا كهذا، وبدا على رزان وقاسم الشعور نفسه. أما ناجي، فاقترب منها مبهورًا وقال:

- إنها ساعة شمسية! لقد رأيتُ رسمتها من قبل في أحد الكتب وأعرف طريقة عملها.

وتابع:

- عندما توضع تحت أشعة الشمس، يجب أن يُوجه هذا النتوء نحو الشمال. الظل الذي يلقيه النتوء على السطح المزخرف يتحرك ببطء مع تغير موقع الشمس، ليكشف عن الوقت بطريقة ساحرة وبسيطة في آن واحد.

قالت رزان:

- إذن ستكون هذه الساعة مسئوليتك.

أومأ برأسه باسمًا ومرحبًا باقتراح رزان، لكن السيد رشيد قال:

- لا، ستكون هذه الساعة مع قائدكم.

نظرنا نحوه جميعًا في حيرة، حتى أردف بحزم:

- يوسف هو قائد هذه المهمة.

اندفعت الدماء إلى وجهي مدهوشًا مما قاله السيد رشيد، ولم يستطع الآخرون إخفاء دهشتهم. حتى قاسم أطلق نخيره مستهجنًا وهو يرمقني بعينه الواحدة. فتابع السيد رشيد قائلًا:

- وعليكم أن تقسموا في هذه الحظيرة أن تتبعوا أوامر يوسف أيًا كانت.

كان الاحتقان يملأ وجه قاسم، بينما نظر ناجي ورزان إلى بعضهما بعضًا، ثم نظرا نحوي. فرفعتُ كتفي إليهما بأنني مثلهما تفاجأت بالأمر. بعدها ساد الصمت لبعض الوقت، حتى قالت رزان:

- أقسم إنني سأطيع أوامره.

ثم تبعها ناجي:

- وأنا أيضًا.

وبعد تردد طويل، أخرج قاسم زفيره، وقال:

- وأنا أيضًا.

فكرتُ حينها أن أسأل السيد رشيد عن سبب اختياري لقيادة الفريق لكنني أمسكت بلساني كي لا يظن أحدهم أنني لا أثق بنفسي، وقررتُ أن أترك السؤال لوقت آخر. بعدها قال السيد رشيد لناجي:

- عليك أن تعلّم يوسف كيف يستخدم هذه الساعة وكيف يحدد اتجاه الشمال وقت الليل ووقت النهار.

وأكمل موجهًا حديثه إلينا جميعًا وهو يمد يده إلى داخل اللفة القماشية الكبرى مرة أخرى:

- ستساعدكم الساعة الشمسية لمعرفة الوقت نهارًا، أما ليلًا فعليكم الاستعانة بهذه الساعة الرملية.

ومد يده إلى رزان بساعة رملية زجاجية، أخرجها من لفّته وهو يقول:

- يستغرق تدفق الرمال من الغرفة الأولى إلى الثانية ساعة كاملة. ستكون هذه معك.

ثم سعل سعالًا طويلًا ونهض من جلسته، وقال:

- لا تتطلب مهمتكم إلا العثور على قطعة واحدة من حجر زمير.

وتابع مؤكدًا:

- قطعة واحدة في حجم حبة التمر تكفي. اعثروا عليها في أسرع وقت، وعودوا سالمين إلينا قبل أن تعود الدوارة إلى مسارها الطبيعي.

فتساءلت رزان:

- كم تستغرق الدوارة للعودة إلى مسارها؟

فأجابها السيد رشيد:

- ثمانية أيام كحدٍ أقصى.

فسألته من جديد:

- ألم تذكر القصص القديمة أي شيء عن أماكن محصنة في الواحة القديمة قد نلجأ إليها؟

هز رأسه نافيًا، وقال:

- إن نجوتم من الدوارة، فعليكم أن تبقوا مثبتي الجفون حتى تعودوا إلى هنا. إن أطفال البئر هناك أكثر شرًا.

وتابع إليها:

- والدكِ سيمدكم بما يكفي من الصمغ لخمسة عشر يومًا، وأم يوسف ستوفر لكم ما يكفي من مرطب الأعين. وسيوفر أهل الواحة لكم من الطعام والشراب ما يكفي تلك المدة.

فقال ناجي:

- إذن، إن لم نعثر على الحجر خلال الأيام الثمانية، يجب أن نعود قبل لانتظام الدوارة؟

قال السيد رشيد:

- نعم.

ثم استدار كي يغادر، وتابع وهو يبتعد عنا:

- ليتني أستطيع إخباركم المزيدَ، لكنَّ لكلِّ إنسانٍ حدودًا للمعرفة. لقد اختاركم القدر كي تكتشفوا المجهول بأنفسكم.

وقبل أن يختفي عن أنظارنا أردف بصوته الذي رن صداه في الحظيرة:

- انعموا إلى أحبابكم واستمتعوا معهم بما تبقى من وقت حتى يوم رحيلكم. وعدوهم بأن تعودوا إليهم ومعكم طوق النجاة.

***

عندما عدت إلى البيت ومعي الساعة الشمسية، كان أبي في انتظاري. بينما كانت أمي مع عبير وريم في حظيرة الطيور الخلفية، حكيتُ له ما دار في اجتماعنا مع السيد رشيد. ظل صامتًا وهو يستمع إلى كل

كلمة، حتى انتهيت، فسألني أن ننزل معًا إلى غرفة الاتصال. فوافقته في دهشة من طلبه الغريب بعدما لم ينزل إلى تلك الغرفة منذ وقت طويل. لكن ما إن دخلنا إليها، وأغلق الباب من خلفنا، حتى توجه مباشرة إلى إحدى الفتحات الجدارية وأزال غطاءها الفخاري، وأخرج منها قنينة زجاجية صغيرة في حجم سبابته تحتوي على سائل أحمر، وقال وهو يريني إياها:

- لقد اختارك السيد رشيد لقيادة هذه المهمة بسبب هذه.

سألته متعجبًا وأنا أنظر إلى القنينة:

- ما هذه؟!

قال:

- إنها آخر قطرات دم الجد الأكبر يعقوب.

سألته في دهشة:

- الجد يعقوب، مؤسس الواحة وتعاويذ الحماية؟

قال:

- نعم، لقد توارثتها عائلتنا جيلًا بعد جيل دون علم أحد. أخبرتُ السيد رشيد بامتلاكي لها قبل أيام من الاجتماع في الحصن السداسي كي يوافقني على اقتراح إرسال المنقبين مجددًا إلى الواحة القديمة، الذي أراه السبيل الوحيد لإنقاذنا.

زادت دهشتي مما قاله، لكنه تابع بنبرة جادة للغاية:

- يعلم السيد رشيد قيمة هذه الدماء في الواحة القديمة، لذلك اشترط أن أعطي هذه القنينة للمنقبين كي يدعم اقتراحي أمام أهل الواحة.

فتساءلتُ مستغربًا:

- ما الذي تستطيع فعله هذه الدماء؟

قال:

- قطرة واحدة من هذه الدماء تستطيع أن تجعل بيت الجد يعقوب في الواحة القديمة محصنًا من أطفال البئر حتى يزول أثرها عن جداره.

فقلت:

- أصر السيد رشيد أنه لا توجد أماكن محصنة في الواحة القديمة. لماذا لم يخبرنا أمرَ هذه الدماء؟

وأجبت نفسي في الحال:

- هل يظن أن بيت الجد يعقوب قد انهار مع الزمن أو أننا لن نعرف أي بيتٍ هو؟ لذا لم يرد إعطاءنا أملًا مزيفًا.

فقال أبي:

- كان سيخبركم، لكني مَن طلبت منه إخفاء الأمر عنكم، أو بالأحرى عن الثلاثة الآخرين، مثلما طلبت منه سابقًا أن تكون ضمن فريق المنقبين.

قلت وأنا أنظر في عينيه متشككًا:

- لكن القُرعة هي من اختارتني.

قال بنبرة هادئة:

- لا، كانت الشفيفة الأخيرة التي اختارها السيد رشيد تحمل اسمًا آخر. لكنني لم أكن لأثق بأحد آخر ليحمل هذه الدماء.

وقبل أن أنطق بشيءٍ أعبر به عن مزيج المشاعر الذي اجتاحني، تابع:

- لم أكن لأجازف بحياة الواحة مع شخصٍ غير حكيم. فمثلما تستطيع هذه الدماء توفير حصن لكم هناك، فبإمكانها أيضًا فتح نافذة كبرى في دوامات الدوارة التي تفصل بيننا وبين الواحة القديمة، سواء كنتم ذاهبين أو عائدين.

ثم وضع القنينة في راحة يدي، وأردف:

- عندما تنثر محتوى القنينة من الدماء على رمالها الثائرة، ستُفتح نافذة كبرى فيها، تسمح لكم بالمرور عبرها.

ثم أضاف محذرًا:

- لكن عليك أن تعلم أن تلك النافذة التي ستُفتح لن تسمح بعبوركم فحسب، بل ستأتي بكل الشرور الحبيسة في الواحة القديمة إلى واحتنا.

وأكمل وهو يغلق راحة يدي برفق فوق القنينة:

- هذا يعني إنك إن استخدمتها لذلك الغرض، فلن يكون أمامنا سوى أيامٍ معدودة، وستصبح هذه الواحة مجرد ذكرى.

(5)

كان الشعور بأن جدران الغرفة تضيق عليَّ ببطء مع ما قاله أبي يغمرني كليًا. وبعقلٍ مشوشٍ وقلبٍ مثقل بالاضطراب، تساءلت في نفسي موجهًا حديثي لأبي دون أن أنطق:

- كيف تضحي بي بهذه السهولة؟ وماذا إن لم أقبل المغادرة مع الفريق بعدما عرفت الآن أنه حقي تمامًا، ولن يصيبني مكروه ما دامت لم تخترني القرعة وكان الأمر مزيفًا من البداية؟

فجأة قال أبي، وكأنه سمع صوتي الداخلي:

- تعرف كم أحبك يا يوسف، ولو استطعت اختيار نفسي بدلًا منك في القرعة لفعلت ذلك دون تفكير، لكن كما قلت لك، الأمر يتعلق بحياة نحو ألف شخص. وأنا أعرفك جيدًا وأعلم أنك قادر على التحكم في استخدام هذه الدماء لإنجاح المهمة فقط.

قلت بصوت مليء بالحدة:

- لا تريدني أن أستخدمها مهما كان لفتح تلك النافذة في الدوارة، حتى لو كان على حساب حياتي وحياة الفريق؟ أليس كذلك؟

فصمت أبي وأومأ برأسه آسفًا، ثم قال:

- احرصوا على العودة قبل انتظام الدوارة فحسب.

ثم تركني وغادر، فاستلقيت على أرضية الغرفة، محدقًا في شرود نحو الفانوس الزيتي المعلق في السقف وعقلي يردد:

- لقد ظلمتني يا أبي.

***

في اليوم التالي، كان التوتر الذي يعصف بداخلي قد هدأ بعض الشيء. وبدلًا من الانغماس في التفكير الانهزامي بإمكانية بقائي في الواحة بينما يذهب الباقون للتنقيب، فكرت بإيجابية في المسؤولية التي ألقاها أبي عليّ من أجل إنجاح تلك المهمة. سألتني أمي وأنا أتناول الفطور معها ومع ريم إن كنت بخير، فأومأت برأسي إيجابًا. كنت أعرف أن أبي لن يخبرها أمرَ القرعة مهما حدث. كانت ريم تداعب ظلها الحارس في ذلك الوقت وترمي له فتات الخبز كالمعتاد. فأردفت أمي:

- لقد سألني السيد رشيد أن أمدكم بما يكفي من معجون الأعشاب لخمسة عشر يومًا. سأمدُّك وحدك بضعف هذه الكمية.

قلت:

- أعتقد أننا في حاجة إلى ما يكفي لثمانية أيام فقط. لا نريد أن نثقل أنفسنا بأوزان لا حاجة لنا بها قد تبطئ مرورنا عبر الدوارة.

أومأت برأسها متفهمة، ثم سألتني:

- هل ستتبعون خطة ما لعبورها؟

هززت رأسي نافيًا، وقلت:

- سيكون الأمر ارتجاليًا تمامًا.

***

في ذلك اليوم، التقيتُ ناجي في مكان فسيح قريب من بيتنا. كان معه كتاب قديم، فتحه لي وأخذ يشرح كيفية تحديد الشمال الجغرافي عن طريق الشمس. ثم غرز عصا عمودية في الرمال، وقال وهو يشير إلى ظل العصا:

- سنضع علامة أولى عند نهاية هذا الظل.

ووضع حجرًا صغيرًا عند نهاية الظل، ثم انتظر لعدة دقائق حتى تحركت الشمس في السماء وتحرك معها موضع ظل العصا، وأردف وهو يمسك بحجر صغير آخر:

- وسنضع علامة ثانية عند نهاية الظل الجديد.

ثم مد بإصبعه في الرمال خطًا بين العلامتين، وقال:

- هذا الخط يخبرنا اتجاه الغرب والشرق.

ثم رسم خطًا عموديًا على ذلك الخط، وتابع باسمًا:

- وبذلك يمثل هذا الخط العمودي الشمال والجنوب. فقط ضع العلامة الثانية التي تمثل الشرق على يمينك، وستجد الشمال أمامك والجنوب خلفك.

وقتها أخرجت الساعة الشمسية ووضعتها على الأرض، موجهًا النتوء المعدني نحو اتجاه الشمال الذي حددناه. فألقى النتوء بظله على السطح المزخرف، وكشف لنا عن الوقت، حيث أشار نحو الثانية عشرة ظهرًا تقريبًا. بعدها تركني ناجي ووعدني بأن يعود ليلًا كي يعلمني كيفية تحديد الشمال الجغرافي عن طريق النجوم. فجلست أراقب الوقت مع تغير موضع الشمس في السماء، لم يشغلني عنه سوى الصراخ الذي سمعته فجأة.

***

عندما حملت الساعة الشمسية وركضت نحو مصدر الصراخ، وجدت أغلب أهل الواحة يتجمعون بالقرب من منزل انهار سوره فجأة، ومُزق

ثلاثة من سكانه، لم تكن جفونهم مثبتة بالصمغ، بينما بقي على قيد الحياة طفل في الخامسة من عمره لم يكتمل نمو جفونه بعد، والأب الذي كان في الخارج وقت انهيار السور.

كنا نعلم أن مصير ذلك الأب هو الموت القريب أو العمى، فكل إنسان حمايته مرتبطة ببيته فقط، ولن يستطيع أن يحرر جفونه من الصمغ ولو للحظة بعد انهيار سور بيته واختفاء جنِّيه الحارس. كان يقف مصدومًا ينظر إلى ابنه الصغير الذي يرتعش خوفًا، وإلى أشلاء أسرته التي تناثرت أمام البيت بفعل أطفال البئر، دون أن يبكي، فالدموع قد تذيب الصمغ.

نظرت إلى الطفل وفكرت في أن حياته صارت محدودة باكتمال جفونه في سن العاشرة، إلا إذا نجحنا في استحضار ضيف قادر على بناء أسوار البيوت المنهارة مرة أخرى. في تلك اللحظة، انتزعت من داخلي تمامًا ذلك الشعور الذي عصف بي خلال اليوم السابق وجعلني أتردد في الذهاب مع المنقبين بجبن شديد. ولُمت نفسي على كل لحظة أنانية جعلتني أفكر في نفسي فقط، وأقسمت داخل نفسي بأن أفعل ما في وسعي لإنجاح تلك المهمة.

بعدها لم تمر سوى بضع دقائق حتى تناهى إلى مسامعنا صوت حطام جديد. سقط أحد الأسوار أيضًا، وبعد ساعة أخرى سقط سور آخر عند أطراف المنطقة السكنية. عندما ذهبت إلى هناك مع أهل الواحة، تفاجأنا بأن السور الذي سقط كان سور بيت قاسم. لكن أحدًا لم يمُت، حيث لا يعيش في المنزل سوى قاسم وأمه، وكان كلاهما خارج البيت مثبتي الجفون في ذلك الوقت. وعندما وصلا إلى المنزل مع من تجمعوا أمامه، بدا الذهول عليهما واضحًا، خاصةً قاسم الذي وقف جامدًا ينظر إلى السور المنهار وهو يحتضن أمه التي كانت ترتجف بين ذراعيه.

قالت رزان، التي وقفت بجواري عندما تجمعنا أمام المنزل:

- لقد مات أبوه منذ وقت طويل، ولم يتبقَّ له في الحياة إلا أمه.
مسكين، لا أعتقد أن أمه ستتحمل البقاء بعينين مفتوحتين لوقت
طويل.

كان قاسم يربِّت ظهرَ أمه مهدئًا لها، ويهمس في أذنها بكلمات غير مسموعة قبل أن يلتفت إليَّ بعينيه. فكرت أن أقترب منه لأواسيه لكننا لم نكن أصدقاء قط، ودائمًا ما كان الشعور بالقلق يتملكني تجاهه. ثم خطر لي أنه مع سقوط سور بيته واختفاء جنِّيه الحارس، سيكون أمامه احتمالان لا ثالث لهما؛ إما أن تغفو عيناه رغمًا عنه خلال الأيام القليلة التالية، فنفقده قبل الذهاب إلى الواحة القديمة، وبذلك سينقص فريقنا عنصرًا قويًا مثله، وإما أن يتحمل فتح عينيه الأيام الخمسة المتبقية على انحراف الدوارة، مما يعني أنه سيزيد على البقية خمسة أيام كاملة دون نوم، ولا أدري ماذا سيكون أثر ذلك على تصرفاته لاحقًا.

في داخلي، كنت أعرف أنه لن يسمح لعينيه بالغفوة وسيتحمل كل شيء من أجل إنجاح المهمة. فأي فشل فيما نحن ذاهبون لا يعني سوى حكم بالموت على أمه. بعدها تفاجأنا به يترك أمه ويتحرك نحوي أنا ورزان من بين الحضور، وبنبرة قوية قال:

- لن ندع تلك المهمة تستغرق منا أكثر من ثلاثة أيام.

هزت رزان رأسها إيجابًا في صمت، قبل أن يتابع:

- سأتخلى عن نصف حصتي من الصمغ ومرطب الأعين لأمي، وسأكتفي بما يكفي لمدة خمسة أيام على الأكثر.

قالت رزان:

- لا تشغل بالك بهذا الأمر، سأقنع والدي بأن يمد أمك بالصمغ اللازم حتى عودتنا.

فقلت:

- وأنا أيضًا سأقنع أمي بالأمر ذاته.

هز رأسه ممتنًا، وقال:

- شكرًا لكما.

فمدت رزان يدها له، وقالت:

- لا تقلق، سنبذل قصارى جهدنا كي نعود بحجر زمير من أجلها.

أومأ برأسه شاكرًا مجددًا في صمت، ثم عاد إلى أمه مرة أخرى.

***

في مساء تلك الليلة، علمني ناجي كيفية تحديد الشمال عن طريق النجوم. قال وهو يشير إلى السماء نحو سبعة من النجوم تتخذ شكل مغرفة:

- تلك هي مجموعة المغرفة الكبرى.

نظرتُ في الاتجاه الذي أشارت إليه يده، واستغرقتُ بعض الوقت حتى استطعت تحديد النجوم السبعة، فقلت مبهورًا:

- نعم أراها بوضوح.

فنزل على ركبتيه ورسم شكل المغرفة على الرمال باستخدام سبعة أحجار صغيرة، ثم قال وهو يشير إلى آخر حجرين من وعائها:

- هذا النجمان يسميان الدليلين، إذا رسمنا خَطًا وهميًا بينهما ومددناه على استقامته لمسافة خمسة أضعافه، سنجد النجم الذي يدلنا إلى الشمال.

نظرت مجددًا إلى السماء، وبالفعل استطعت تحديد نجم الشمال عن طريق آخر نجمين في مجموعة المغرفة الكبرى. فتابع:

- إن ذلك النجم لا يترك مكانه أبدًا، فقط ابحث عن مجموعة المغرفة في السماء وستصل إليه.

فواصلت تحديقي نحو السماء، بينما أخذ ناجي يبحث عن مجموعات أخرى من النجوم، لكنه لم يجدها، وقال:

- هناك مجموعات أخرى من النجوم قد تساعدنا أيضًا في تحديد نجم الشمال، لكني لا أستطيع رؤيتها اليوم. ربما إن ظهرت خلال الأيام القادمة سأريك إياها.

أومأت برأسي إيجابًا، ثم سألته:

- أخبرني يا ناجي، ماذا تعرف عن دماء الجد يعقوب؟

تفاجأ بسؤالي كأنه لم يتوقعه، ثم قال:

- نفدت جميعها منذ مئات السنين.

ثم أردف وهو ينظر إلى السماء:

- لقد عاشت هذه الواحة في خير ذلك الجد منذ نشأتها.

ثم نظر إليَّ وأكمل:

- عندما جفت البئر العظيمة بعد سرقة أحجار زُمير، رأى ساحر قديم يُدعى شيخون منامًا يقدمون فيه الأطفال أحياء إلى نبتة البئر كي تعود البئر إلى إنتاج الماء. فقدَّم سكان الواحة أول طفل إلى البئر، طفلًا من العبيد، ألقوا به حيًّا في أعماق البئر، فنبع الماء في البئر وارتفع، لكنه لم يملأ أكثر من ربعها. فألقوا طفلًا آخر، فزاد منسوب الماء بمقدار ربع آخر. ليدركوا أن البئر تحتاج إلى أربعة أطفال لتمتلئ عن آخرها بالماء، وهذا ما حدث بالفعل، وكأن كل طفل عوَّض حجرًا من الأحجار الأربعة التي سُرقت.

وقتها أُقيمت الاحتفالات اعتقادًا من أهل الواحة بأن اللعنة قد زالت مع التضحية بالأطفال الأربعة، وارتفع شأن شيخون بينهم لدرجة التمجيد. لكن مع اختفاء القمر عن السماء مع بدء دورة قمرية جديدة، جف الماء في البئر من جديد.

ثم أضاف:

- حينها قدموا أربعة أطفال آخرين مع الشهر الجديد. وعندما جفت البئر مرة أخرى في نهاية الشهر كرروا الأمر نفسه في الشهر التالي، وكذلك في الشهور التي تليه، حتى أبيد جميع الأطفال العبيد في الواحة. فأعلن شيخون أن كل بيتٍ ملزم بتقديم طفلٍ حتى لو كان من أهل بيته.

وأكمل ناجي في نبرة حزينة:

- فبدأوا في جلب الأطفال من الواحات والبلاد الأخرى. منهم من كان يشتري الأطفال بماله الوفير، ومنهم من كان يسرقهم أو يخطفهم من أهاليهم، ليلقوا بهم في البئر دون رحمة أو اعتراض من أي شخص في الواحة إلا رجل صالح هو الجد يعقوب، كان في الخمسين من عمره. وكان يرى أن ترك الناس للواحة واتخاذهم بلدًا آخر أهون كثيرًا من إزهاق روح واحدة بريئة دون وجه حق. كان معروفًا بحسن خلقه ومحبوبًا من الجميع. لكنه عندما حاول إقناع أهل الواحة بالتوقف عن التضحية بالأطفال لنبتة البئر التي صارت شيطانًا مع سرقة أحجارها، هاجموه واتهموه بالجنون.

قالت الكتب إنه كان يبكي حتى تجف عيناه مع سماعه كل صرخة طفل تعتصره النبتة دون رحمة داخل البئر، بينما تدق الطبول حول البئر احتفالًا بذلك الطقس البغيض. ثم جاء يوم وكانت هناك قافلة آتية إلى الواحة تحمل أربعة وأربعين طفلًا. كان أهل الواحة ينوون التضحية بهم على مدار أحد عشر شهرًا متتاليًا. فوضع يعقوب خطة لإنقاذ أولئك الأطفال. وفي أثناء تجمع الأهالي حول البئر للاحتفال بالتضحية بأربعة منهم، أخذ يعقوب فأسه وذهب إلى حيث يُسجن بقية الأطفال وأخرجهم من هناك كي يهربوا من

الواحة. لكن لسوء حظه، رأته إحدى النساء، وقبل أن ينجو الأطفال بأنفسهم، اعتُقلوا جميعًا.

توقف ناجي لالتقاط أنفاسه، ثم سألني:

- أتدري ماذا حدث بعدها؟

وعندما لم أجب بشيء، واصل:

- أمر الساحر شيخون بإلقاء الأطفال الأربعين جميعهم إلى أعماق البئر في تلك الليلة أمام أعين يعقوب، الذي أمسك به الأهالي ووضعوه على حافة البئر كي يرى النبتة وهي تعتصر الأطفال المُلقين إليها تباعًا.

وأمام الجميع، أعلن ذلك الساحر أنه سيقطع رأس يعقوب إذا نحى رأسه جانبًا أو رمش بعينه رمشة واحدة، وكذلك رأس أي طفل ترمش عيناه خوفًا قبل أن يُلقى في البئر. فتعالت الاحتفالات مؤيدة ذلك الحكم الجائر من شيخون. لم يعلموا أن أرواح تلك الأطفال ستحكم علينا لاحقًا بألا ترمش جفوننا بعد تلك الفعلة في تلك الليلة المشؤومة.

ثم نهض ناجي وقال:

- سأكمل لك قصة الدماء لاحقًا، لكن عليَّ أن أعود الآن إلى البيت. هناك أسرة تريد أن تقضي معي أطول وقت ممكن في هذه الأيام.

شكرته على مساعدته لي، وعدت أنا أيضًا إلى بيتي ورقدت على سريري يفكر عقلي فيما حدث في ذلك النهار، وفي ذلك الطفل ذي الخمسة أعوام الذي فقد أمه وإخوته. لتتساقط دموعي رغمًا عني وأنا أتخيل ريم في مكان ذلك الطفل إن سقط سور بيتنا هو الآخر وصارت وحيدة في هذا العالم.

***

في الأيام الثلاثة التالية، سقطت أسوار ثلاثة بيوت أخرى. خلال تلك الأيام، التقينا مع السيد رشيد مرتين. في المرة الأولى، تسلمنا الرماح والملابس الثقيلة المصنوعة من جلود الحيوانات، والشفائف الزجاجية، والأوشحة الصوفية التي سنلثم بها وجوهنا في أثناء عبور الدوارة. كانت الثياب مناسبة لي تمامًا، خاصة أن صانعها كان السيد حبيب الذي اعتاد صنع ثياب أهل الواحة جميعهم، وكان يعرف مقاسات الجميع دون الحاجة إلى تدوينها في أي ورقة أو كتاب.

في المرة الأخرى التي التقينا فيها السيد رشيد، تسلمنا الدروع الخشبية وفؤوس التنقيب. كانت تلك الفؤوس ذات رأس صغيرٍ وأيدٍ قصيرة، وكان من السهل تعليقها في الحزام الذي يلتف حول خصرنا. في ذلك اليوم، رفعت درعي في إبهار عندما وجدته خفيفًا رغم قوته الظاهرة. كان ذلك الدرع كافيًا لتغطية رأسي ونصفي العلوي إن حملته بيدي واقفًا، وكافيًا لتغطية جسدي بأكمله إن نزلت على ركبتي وكورت جسدي.

كان قاسم في المرتين يختلف كثيرًا عن المرة الأولى التي اجتمعنا فيها في حظيرة القبور. كنا ندرك أن السبب في ذلك هو ما حدث مؤخرًا له ولأمه. ووعدناه بأن نفعل ما في وسعنا من أجل العودة بالحجر الكريم في أسرع وقت كما يريد.

في الليلة التي سبقت يوم الرحيل، أصابني أرق شديد. توسلت إلى عقلي بأن يكف عن التفكير كي أحظى بقسط نوم أخير ربما لا يتكرر إلا إن استطعنا الوصول إلى بيت الجد يعقوب في الواحة القديمة. لكن هيهات، لم أنم لحظة واحدة، فقط أغمضت جفوني لأريحها.

في الصباح، كان أبي قد غادر البيت مبكرًا قبل أن أخرج من غرفتي. تعجبت لأنني توقعت أن تكون الساعات التي تسبق الرحيل ساعات عائلية خالصة، لا وقت فيها لأي أشغال أخرى. لكنني فكرت في داخلي أنه

لم يستطع مواجهة فكرة دفعي إلى تلك المغامرة. بكت أمي كثيرًا وكذلك عبير. كانتا تعلمان أنهما لن تستطيعا البكاء في الخارج لحظة الرحيل، فأنهتا نصيبهما من الدموع داخل البيت دون خوف من إذابة الصمغ.

ثم اقترب الوقت من الظهيرة، فارتديت ثوبي الجلدي الجديد وعلقت بحزام خصري فأس التنقيب على الجهة اليمنى منه. ثم نزلت إلى غرفة الاتصال وأخرجت قنينة الدماء من فتحة جدارية كنت قد خبأتها بها، وبعد تأملها للحظات، علقتها في سلسلة حول رقبتي، متأكدًا من تثبيت إحدى حلقات السلسلة حول عنقها بإحكام، ثم أخفيت السلسلة أسفل ثيابي. بعدها عدت مجددًا إلى الأعلى حيث ثبتت أمي جفوني بالصمغ، وألبستني الشفيفة الجديدة، ولفت الوشاح الصوفي حول رقبتي، وقالت:

- حاجتكم من المعجون العشبي أرسلتها في وقت سابق إلى السيد رشيد.

هززتُ رأسي إيجابًا، وقبّلت رأسها، وقبّلت عبير، وقبّلت ريم. ثم قلت لهن:

- سنخترق الدوارة في الثالثة عصرًا تمامًا. أما الآن، فسيجتمع الفريق في حظيرة القبور.

قالت أمي:

- سنكون عند أطراف الواحة مع الحاضرين لتوديعكم قبل اجتياز الدوارة.

***

ذهبتُ إلى حظيرة القبور حاملًا الساعة الشمسية حيث كان الجميع في انتظاري. وحالما اقتربت منهم، ألقى قاسم نحوي حقيبة قماشية صغيرة، وقال:

- هذه مؤنك للأيام القادمة.

فتحتها لأتفقد محتوياتها، كانت تحتوي على معجون الأعشاب المرطب، والصمغ، وخبز، وفواكه مجففة، وبعض زجاجات الماء والحليب، وخنجرًا مغمدًا.

نظرت إلى قاسم، فقال باسمًا:

- إنه هدية مني، ربما تحتاجه هناك.

نظرتُ إلى ناجي ورزان، فوجدتُ كلًّا منهما قد علّق خنجرًا مشابهًا بحزام خصره، وحينها قالت رزان بابتسامة:

- إن قاسم كريم للغاية اليوم.

ابتسمتُ وعلّقت خنجري أنا الآخر على الجهة اليسرى من حزام خصري، ثم وضعتُ الساعة الشمسية داخل الحقيبة وحملتها على ظهري. بعدها ساد صمت طويل بيننا، وعندما بدأ السيد رشيد في إلقاء بعض الكلمات المحفزة، لم ينطق أحدنا بأي كلمة، ولا أعتقد أن أحدًا كان يركّز مع أي كلمة يقولها. وحين حان وقت الرحيل، توجهنا إلى الطرف الغربي للواحة، حيث احتشد أهل الواحة قرب مزارع النخيل لتوديعنا.

احتضن قاسم أمه، واحتضنت رزان أباها، بينما كان ناجي محاطًا بأبيه وأمه وإخوته. أما أنا، فبحثتُ بعيني بين الحشد عن أسرتي، لكنهم لم يكونوا هناك. وسط كل هذا الجمع، غابوا جميعًا عن وداعي.

(6)

تسلل شعور بالخواء إلى داخلي مع أولى الدقائق التي مرت دون أن يظهر أحد من أسرتي. لكن مع مرور الدقائق بدأ ذلك الخواء يتحول إلى قلق متصاعد، وبدأت الأفكار السوداء تقتحم عقلي بلا رحمة: هل حدث مكروه لهم؟ هل انهار سور بيتنا؟ هل هاجمهم أطفال البئر؟

ثم أمر السيد رشيد الأهالي بالابتعاد كي نستعد للمغادرة، فوقفت مترددًا، وقلبي يصرخ بالعودة، رغم معرفتي بأن المهمة لا تحتمل التأجيل. فجأة، شعرتُ بيد قاسم تربت على كتفي، وقال بصوت منخفض:

- يوسف، هل أنت بخير؟

لحقت به نظرات رزان وناجي، وكأنهم جميعًا لاحظوا اضطرابي. وعندما لم أجب، قالت رزان بهدوء، محاولةً التخفيف عني:

- هناك من لا يحبون لحظات الوداع، ويرون أنها تثقل الروح بحمل لا يُحتمل. ربما فضّلوا أن يبقوا في البيت كي لا تزيد مشاعرهم من صعوبة اللحظة عليك.

ثم أضافت وهي تبتسم بلطف:

- أحيانًا يكون الغياب وسيلة أخرى للتعبير عن الحب، حتى لو بدا عكس ذلك.

أومأتُ برأسي في صمت، لكن الحيرة لم تتركني. هل أواصل الطريق معهم، أم أعود إلى بيتي لأطمئن على أسرتي؟ وبينما كنت غارقًا في صراعي الداخلي، صاح ناجي وهو يشير بعيدًا نحو الطريق الممتد من منطقة البيوت إلى مزارع النخيل:

- أليست تلك عبير أختك؟

فنظرتُ بسرعة نحو الطريق، لأرى عبير تركض باتجاهنا بكل سرعتها. وحينها شعرتُ وكأنني أتنفس لأول مرة منذ دقائق طويلة.

توقفت عبير بين الحشود، تلهث وهي تلوّح لي بيدها. فرفعتُ يدي في فرحة لأرد التحية، ثم أشرتُ لها بقلق، متسائلًا عن أسرتنا، فأومأت برأسها مطمئنة، لكنني لم أقتنع. وكررتُ الإشارة، وسألتها إن كانت متأكدة. فوضعت يدها على قلبها وأكدت لي بإشارة حازمة أنهم بخير.

حينذاك، تنفستُ الصعداء، وابتسمتُ لها وهي تلوّح لي للمرة الأخيرة. بعد ذلك، التفتُّ إلى الفريق معلنًا جاهزيتي، لنبدأ التقدم نحو مزارع النخيل التي تمتد لأكثر من ميل.

***

قبل دخولنا بين أشجار النخيل، حددت أنا وناجي اتجاه الشمال تحسبًا لاختفاء الشمس عند وصولنا إلى حافة الدوارة. وبمساعدة الساعة الشمسية، أدركنا أن الساعة كانت الثانية تقريبًا. حينها قال قاسم لرزان:

- يمكنك أن تحسبي الوقت الآن باستخدام الساعة الرملية، لا داعي لاستخدام الساعة الشمسية مرة أخرى.

أجابت رزان:

- حسنًا.

وتأكدت من تجمع الرمال في غرفة واحدة من الساعة، ثم قلبتها رأسًا على عقب، وقالت:

- الآن يبدأ العد التنازلي للساعة.

واصلنا تقدمنا في صمت. كان أكثرنا ثقة هو قاسم الذي كان يمسك بقوسه في يده، بينما علّق رمحه ودرعه على ظهره. شعرتُ أنه قام بالصيد في تلك المنطقة من قبل، لكنني لم أسأله إن كان قد جاء إلى ذلك المكان مسبقًا أم لا. قال ناجي متأففًا:

- كان على الخيّاط أن يحكم أساور الأكمام والسراويل أفضل من ذلك.

ضحكت رزان وقالت مازحة:

- سنجربها مع الدوارة، وسندوّن كل ملاحظاتنا له للمرة القادمة.

***

في أثناء عبورنا الثلث الأخير من مزارع النخيل، تجمعت الغيوم الداكنة فوقنا، وبدأت الرياح تعصف بشدة، تحمل معها الرمال وتلقي بها في وجوهنا دون رحمة. استدرتُ لأنظر نحو الواحة نظرة أخيرة، فقالت رزان وهي تمسك الساعة الرملية التي تحركت كل رمالها إلى الغرفة السفلية:

- هيا بنا، لا داعي للنظر إلى الخلف الآن، لقد انحرفت الدوارة عن مسارها بالفعل. وصارت ملاصقة لمزارع النخيل.

كان قاسم أول من اقترب من حافة الدوارة، نظرتُ إلى وجهه، فرأيت فيه خليطًا من العزم والخوف الذي لم أعتده عليه، قبل أن يقول بصوت متوتر، وهو يلف الوشاح الصوفي على وجهه بإحكام:

- علينا التحرك إلى داخلها الآن.

لثمنا وجوهنا جميعًا بأوشحتنا الصوفية، ثم تقدمنا بخطوات حذرة نحو الدوامة الرملية، التي كانت تدور كأنها وحش جائع يلتهم كل ما يقترب منه. رفع قاسم درعه الخشبي أمام وجهه، واندفع نحو الأمام. تبعته رزان، وأنا خلفها، رافعين درعينا أمام وجهينا أيضًا، بينما كان ناجي يحاول الحفاظ على توازنه مع الرياح القوية.

بعد خطوات قليلة داخل الدوارة، شعرنا بضغط هائل يحيط بنا، وكأن الجدران الرملية تحاول سحقنا. كانت الرؤية معدومة تقريبًا، ولم أستطع رؤية شيء سوى الرمال التي تلتف حولنا من كل جانب. ورغم ارتدائي الشفيفة الزجاجية بإحكام، شعرتُ بأن الرمال تتسلل إلى عيني وتسبب ألمًا شديدًا.

صرخ قاسم بصوتٍ عالٍ:

- حافظوا على تماسككم. لا تدعوا الدوارة تفرقنا.

***

مع تقدمنا أكثر، صارت دوامات الدوارة أقوى منا بكثير. كانت حبات رمالها حادة كالإبر، تخترق جلودنا وتسبب لنا جروحًا رغم الثياب الجلدية والأوشحة الصوفية التي كنا نرتديها. حاولتُ بقدر المستطاع حماية وجهي، لكن الجروح كانت تتراكم على يديَّ وقدميَّ. أما الرمال التي دخلت إلى فمي وأنفي عبر الوشاح الصوفي فجعلت التنفس شبه مستحيل، لأشعر أنني أختنق ببطء، وكأن الدوامة تسلب مني كل نفس.

ثم بدأتُ أشعر بأن قدميَّ تُسحبان من تحت الرمال، كأن الأرض تبتلعني. فثبتُّ رمحي في الأرض، وحاولتُ التشبث بحجرٍ بارز، لكن الرياح كانت تطيح بي بلا رحمة، مصدرةً صوتًا يشبه زئير وحش غاضب، يطغى على صرخاتنا وأصواتنا.

استطعت بالكاد رؤية رزان وهي تتشبث بما بدا أنه شجرة صغيرة، محاولةً بصعوبة البقاء على قدميها، فيما كانت الرمال تلتف حول ساقيها، وتحاول سحبها للأسفل. لتصرخ بأعلى صوتها:

- لا أستطيع التحرك! النجدة!

اندفعتُ نحوها بكل ما أملك من قوة، وأمسكت بيدها وسحبتها نحوي، ثم ثبَّت كلانا رمحه في الأرض، ونزلنا على ركبنا، مغطييْن نفسيْنا بالدروع. لكن الرياح كانت تعصف بشكل لا يُصدق، ولم يكن لدي شك بأنها ستقتلعنا من مكاننا في أي لحظة.

صرخ قاسم إلينا وهو يحاول البقاء واقفًا:

- علينا أن نتحرك، لا يمكننا البقاء هنا.

نهضتُ وتقدمتُ نحو الأمام وخلفي رزان، محاولين البحث عن مخرج. لكن مع تقدمنا، ازدادت التحديات بشكل مرعب حيث صار الظلام كثيفًا لدرجة أننا لم نعد نرى أيدينا أمام وجوهنا. وصارت الرياح تحمل معها أصواتًا غريبة، كأنها همسات من العالم الآخر، وبدأت الدوامات تزداد عنفًا، وكأنها تعرف أننا نحاول اختراقها.

في لحظة مرعبة، انفصلتُ عن المجموعة بفعل الرياح. ووجدت نفسي وحدي في قلب الدوامة، محاطًا بالرمال التي كانت تلتف حولي كالأفعى. حينها، شعرتُ بالرعب يتسلل إلى قلبي، لكنني حاولت البقاء هادئًا. وبدأتُ أصرخ بأعلى صوتي:

- رزان! قاسم! ناجي! أين أنتم؟!

لكنني لم أتلقَ أي إجابة. فجأة، سقطتُ في حفرة عميقة. حاولتُ التشبث بأي شيء، لكن الرمال كانت تسحبني نحو الأسفل. تمكنتُ

في النهاية من الخروج بمساعدة رمحي ودرعي، لكنني شعرتُ أنني استُهلكت تمامًا.

بسبب الإجهاد الشديد ونقص الأكسجين، بدأت عضلاتي تزداد إرهاقًا وتصلبًا. وصرت أشعر بألم في كل جزء من جسدي، لكن لم يكن هناك خيار سوى الاستمرار. بعدها بدأت أعاني هلاوسَ سمعية وبصرية، فرأيتُ الرمال تتحرك بشكل يخلق أنماطًا وأشكالًا تشبه أطفالًا يتحركون من حولي، وسمعتُ أصواتهم تهمس باسمي، فزاد رعبي رعبًا.

مع التقدم أكثر، بدأت رائحة العفن تنبعث من الأرض بشدة، فصار التنفس أكثر صعوبة، وبدأت درجة الحرارة تنخفض بشكل ملحوظ، وشعرت بأن الرياح الباردة تخترق ملابسي وتجمِّد أطرافي. وفي لحظة من اليأس، شعرت بأنني أفقد السيطرة على جسدي كله، ولم أعد قادرًا على مقاومة الرياح التي أخذت تحملني وتحطمني على الصخور المحيطة. حينها بدأتُ أفقد الوعي، وسيطر عليَّ الشعور بأن حياتي تتلاشى شيئًا فشيئًا. لكن في تلك اللحظة، تذكرتُ كل من تتعلق آمالهم بنا؛ أسرتي، الطفل الصغير الذي فقد أمه وإخوته، أم قاسم، كل مَن سقطت وستسقط أسوار بيوتهم، فصرختُ في قوة محمسًا نفسي كي لا أستسلم. ونظرتُ حولي، فرأيتُ رفاقي من جديد. كان قاسم يحاول بشدة إنقاذ رزان من الرمال المتحركة، بينما كان ناجي يتشبث بفرع شجرة يابس، يحاول الوصول إلينا. فصرختُ إليهم:

- تحركوا، علينا أن نخرج من هنا.

كانت صرخاتي تضيع وسط زئير الرياح، لكني رأيت عزيمة جديدة في حركة رفاقي الذين اندفعوا معي نحو الاتجاه الذي كنا نعتقد أنه مخرج الدوارة. غير أن الرمال بدأت تتحرك تحتنا كأنها نهر من الطين، تسحبنا وتدفعنا في كل اتجاه. وفي لحظة معينة، بدأت الأرض

تهتز بشدة تحت أقدامنا، مما جعل التوازن مستحيلًا، وبدأت الصخور تتساقط من حولنا والرمال تتدفق علينا كأنها سيل جارف.

فجأة، شعرتُ بألم شديد في ساقي. نظرتُ إليها، فوجدتها عالقة بين صخرتين حادتين. حاولتُ سحبها، لكن الألم كان لا يُطاق. صرختُ إلى رفاقي، لكنني لم أكن أسمع سوى صدى صوتي يختفي في الرياح. فبدأت أشعر باليأس مرة أخرى، لكن فجأة رأيت ظلًا يتحرك نحوي. كان ناجي، فصرختُ إليه:

- ساعدني.

اندفع نحوي بكل ما أوتي من قوة، وأمسك بيدي ثم بدأ يسحبني وهو يثبت رمحه بيده الأخرى في الأرض. كنت أشعر بأن عظامي تتكسر تحت الضغط، لكن لم يكن هناك خيار آخر. بعد لحظات من الألم الشديد، استطعت تحرير ساقي، لكن كنت قد فقدت الكثير من الدماء. ثم حدث ما لم نتوقعه، إذ فوجئنا بمجموعة من الحيوانات البرية الصغيرة تهاجمنا على حين غرة. لم أستطع تحديد نوع تلك الحيوانات مع ضعف الرؤية، لكنها كانت عدوانية جدًا وهاجمتنا بشراسة. قتلتُ اثنين منها برمحي، وقتلتُ ثلاثة أخرى عن طريق خنجري، لكنني لم أنجُ من عضة قوية أصابت ذراعي اليسرى وبدأت تنزف هي الأخرى.

بعدها، سمعتُ صرخات رزان، فتحركتُ في اتجاه صوتها، كانت تقاوم بشدة حيوانًا كبيرًا يشبه ذئبًا ضخمًا يحاول افتراسها، طعنتُ بطنه بخنجري، لكنه واصل مهاجمته لرزان وكأن الطعنة لم تؤثر فيه. طعنتُه مرة أخرى، لكنها لم تجدِ نفعًا أيضًا، حتى فوجئنا بسهمٍ يخترق رأسه بين عينيه، فسقط صريعًا في الحال، بينما وقف قاسم ينظر نحونا ممسكًا بقوسه في ثبات، قبل أن يصرخ إلينا:

- هيا لنكمل التقدم.

أمسكتُ بيد رزان فنهضت وهي تعرج بشدة بعد إصابتها في ساقها خلال هجوم الحيوانات البرية. وواصلنا التقدم، حتى تعرضنا لهجوم من مجموعة من الحشرات الطائرة الصغيرة التي كانت مختبئة في الرمال. تسلل بعضها إلى داخل ثيابنا عبر أساور الأكمام غير المحكمة، وبدأت تلدغنا بلا رحمة، مسببةً ألمًا شديدًا وحكة لا تُحتمل. شعرتُ حينها أن رزان لم تعد قادرة على المضي قدمًا، وبعد خطوات قليلة سقطت من شدة الإعياء، فصرخت فيها:

- إننا أمل الواحة، نحن نستطيع العبور، لن نستسلم الآن.

فمسحت الرمال عن شفيفتها، ونهضت بإعياء شديد، وواصلت التقدم وأنا أمسك بيدها، لنعبر صخورًا عملاقة وجذوع أشجار قديمة بدأت تعترض طريقنا، وكان علينا أن نتسلقها أو نلتف حولها، مما أبطأ تقدمنا وزاد من إرهاقنا. رغم ذلك، لاحظنا أن قوة الدوامات بدأت تقل مع ظهور تلك الصخور والجذوع، مما زاد حماسنا لمواصلة التقدم. وبالفعل بدأت الرؤية تتحسن شيئًا فشيئًا، قبل أن تهب علينا زوابع رملية مفاجئة أجبرتنا على التوقف والتجمع معًا خلف دروعنا لحماية أنفسنا حتى تهدأ تلك الزوابع، وحينها قال قاسم:

- أعتقد أننا على وشك العبور.

كنت أتفق معه وأعتقد أن ناجي ورزان اتفقا معنا أيضًا، خاصةً أن الرمال تحت أقدامنا أصبحت ذات حرارة طبيعية. فجأةً، أشارت رزان بيدها بعيدًا في إعياء دون أن تنطق، التفتنا بأعيننا نحو الاتجاه الذي أشارت إليه، فرأينا ثغرةً بين دوامتين رمليتين ينبعث منها النور، فهمستُ إلى نفسي ذاهلًا:

- الجهة الأخرى من الدوارة.

في تلك اللحظة، بدأت الأرض تتزلزل تحت أقدامنا كأنها تحاول ابتلاعنا، فصرختُ في الباقين كي نركض نحو تلك الثغرة. أشارت لي رزان في استسلام بأنها لا تستطيع النهوض، وطالبتني بأن أنجو بنفسي. دون تردد، علقتُ درعي على ظهري، ثم حملتها على كتفي واندفعت بما تبقى لدي من قوة خلف قاسم وناجي، لنجتاز تلك الثغرة، ونلقي بأنفسنا خارج الدوارة.

***

عندما خرجنا من قلب الدوارة، كانت شمس الغروب متواريةً خلف الغيوم الداكنة الكثيفة. كنا مُنهكين، مجروحين، لكننا كنا أحياء. ابتعدنا عن الدوارة بمسافة كافية، ثم أزلنا عن وجوهنا الأوشحة الصوفية المشبعة بالرمال، وأخذنا نسعل جميعًا بقوة.

بعدما هدأ سعالي، بدأتُ أشعر بألمٍ في ذراعي نتيجة العضة التي تلقيتها من الحيوان الذي هاجمني، وكذلك في ساقيّ اللتين أُصيبتا في أكثر من موضع. لكنني تجاهلتُ تلك الآلام عندما رأيت الدماء تسيل بغزارة من ساق رزان عبر قطعٍ في بنطالها. فاقتربتُ منها وشققتُ بنطالها بخنجري عند موضع القطع، فكشف عن جرح كبير وعميق ينزف بشدة. فأسرع إلينا ناجي وبدأ يفحص الجرح، ثم قال وهو يفتح حقيبته:

- لقد أحضرتُ معي بعض اللوازم الطبية تحسبًا لمثل هذه الظروف، إن هذا الجرح يحتاج إلى تنظيف وتضميد.

ثم أخرج زجاجة ماء من الحقيبة، وبدأ يسكب منها فوق الجرح لتنظيفه، ثم أخرج قنينة تحتوي على معجون أعشاب مختلف عن الذي

أمدتنا به أمي، ووضع طبقة منه فوق الجرح، قبل أن يضمده بضمادة نظيفة.

بعدها، أخرجنا مرطب الأعين وغطينا به أعيننا، واستلقينا جميعًا على الرمال. وبعد زوال أثر المرطب نظرتُ إلى رفاقي، كانت الأعين مليئة بالتعب، لكن كان هناك أيضًا بريق من الأمل.

قال قاسم بصوت متعب:

- لقد فعلناها، نحن أحياء.

حينئذ، نظرتُ نحو ثغرة الدوارة التي أغلقتها الرمال من جديد، ثم نهضت واستدرت نحو الواحة القديمة التي لاحت في الأفق، ولم يكن يظهر من ملامحها البعيدة إلا الخراب والسواد، لأقول للباقين وأنا أنظر لها:

- كان ما حدث في الدوارة هو البداية فقط، يبدو أن التحديات الحقيقية ستبدأ الآن.

(7)

بعد نقاش طويل، قررنا أن نبيت في مكاننا ونتحرك إلى الواحة القديمة مع طلوع الفجر، خاصةً مع الإجهاد الشديد والآلام التي شعرنا بها جميعًا. ثم بدأ ناجي يضمِّد جروحي وجروح قاسم، قبل أن أقوم بتضميد جروحه بنفس الطريقة. بعدها، جمَّع قاسم بعض الأعشاب الجافة وأشعل نارًا صغيرة، جلسنا حولها نتناول قليلًا من الطعام.

في تلك الأثناء، لاحظت رزان شيئًا لم ننتبه له جميعًا، وقالت:

- إن هذا المكان لا تحيط به الدوارة من كل اتجاه مثل واحتنا. الدوارة هنا توجد في جهة واحدة فقط!

كانت محقة، إذ كان باستطاعتنا رؤية امتداد السماء في الاتجاهات الثلاثة الأخرى، وهو أمر كان مدهشًا جدًّا بالنسبة لنا. عندها قال قاسم، وهو يحدق إلى الأفق:

- هذا المكان مهجور منذ أكثر من ألف عام، ولا يحتاج إلى دوارة كي تسجن قاطنيه.

أومأ ناجي وهو يمضغ طعامه، ثم قال:

- نعم، لقد قتلت أرواح أطفال البئر بعد ثورتها كل سكان الواحة باستثناء نسل يعقوب الذين فروا إلى واحتنا الجديدة واستقروا هناك. ومنذ ذلك الحين، نشأت الدوارة لتحيط بهم.

فجأة، صرخت رزان، إذ تحرك بجوارها ثعبان لمع جلده مع انعكاس ضوء النار عليه، قبل أن يغير مساره ويفر مبتعدًا. فضحكتُ وقلت:

- يبدو أن هذا المكان لم يُهجر تمامًا.

بعد ذلك، قسمنا الوقت بيننا عن طريق الساعة الرملية، كي يستلقي ثلاثة منا للراحة بينما يبقى الرابع مستيقظًا لمدة ساعتين بجوار الباقين، ليجدد صمغهم ويضع طبقة من المرطب العشبي على أعينهم بين الحين والآخر، ويحرسهم من الثعابين أو أي زواحف أو حيوانات أخرى قد تهاجمهم.

كان دوري هو الأول في نوبة الحراسة. جلستُ بجوارهم حيث استلقوا جميعًا، وسرعان ما أدركتُ أنهم ناموا رغم جفونهم المثبتة، إذ تعالت أنفاسهم. حتى إن قاسم أطلق شخيره بعد دقائق قليلة. لم أجرِّب النوم من قبل بجفون مفتوحة مثبَّتة، لكن مع الوضع الجديد يبدو أن هذا الأمر سيكون مألوفًا. المهم أن يقوم الحارس بتجديد الصمغ والمرطب للباقين بشكل منتظم.

بعدئذٍ، تحسستُ قنينة الدماء التي كانت بحوزتي، وبدأتُ أفكر فيما سأفعله بشأنها. هل أخبرهم أمرَها أم أنتظر؟ فإخباري لهم أمرَها قد يحمسهم للعثور على بيت الجد يعقوب أولًا، مما يسمح لنا بفترات من الراحة وسط الواحة في حال العثور عليه. لكنهم في الآن نفسه، قد يتهمونني بإخفاء بعض الأسرار عنهم، وقد يخلق ذلك نوعًا من الشقاق الذي لا حاجة لنا به الآن. كذلك فكرتُ في احتمال أن يكون ناجي على علم بقدرة هذه الدماء على فتح النافذة التي تحدث عنها أبي. ووقتها لا أعلم ما قد يفعله إن استطعنا العثور على حجر زمير ووجدنا أنفسنا غير قادرين على عبور الدوارة مرة أخرى.

فقررتُ تأجيل إخباري لهم أمرَها، وجلستُ أنظر إلى السماء وإلى الظلال البعيدة للواحة، حتى مرت الساعة الأولى؛ ومن بعدها الساعة الثانية، فأيقظتُ ناجي كي يبدأ نوبة حراسته، ثم جددتُ صمغي وصمغ رزّان وقاسم، ووضعت طبقةً من المرطب على أعينهما وعينيَّ، قبل أن أستلقي على بعد خطوات منهما، ولم أنهض إلا مع طلوع النهار.

***

كانت الغيوم تغطي السماء عندما بدأنا التحرك نحو الواحة القديمة. وكما توقعت، كانت الأراضي القاحلة شاسعة للغاية في وجهتنا الجديدة، إذ قطعنا ما يقرب من ثلاثة أميال حتى بدأت ملامح غابة متحجرة تظهر بوضوح أمام أعيننا. فجأة، توقف قاسم عن التقدم، وأخرج قوسه بحذر، ثم أشار لنا بيده كي نتوقف عن الحركة. فعلنا ما أراد، فتحرك على أطراف قدميه وهو يخرج سهمًا من جعبة سهامه المعلقة على ظهره، قبل أن يشد قوسه به، ويطلقه نحو اتجاه محدد على يميننا. وسرعان ما سمعنا صرخة مكتومة لحيوانٍ صغير، اكتشفنا بعد لحظات أنه أرنب بري استطاع قاسم رؤيته بينما كنا نركز أبصارنا نحو الغابة التي لاحت في الأفق. بعدها علّق قاسم الأرنب في حزام خصره، وأكمل الطريق معنا وكأن شيئًا لم يحدث.

عندما دخلنا إلى الغابة المتحجرة، كانت الأشجار طويلة ذات جذوع سميكة سوداء وفروع متشابكة بلا أوراق، وأرضها جافة مستوية كأنها معبّدة. ذكرتنا بعض الشيء بمزارع النخيل في واحتنا، لكن مساحة تلك الغابة كانت شاسعة للغاية ولا حياة فيها. ومع تغلغلنا أكثر في أعماقها، شعرتُ وكأننا في متاهة، وإن لم نتحرك معًا، سنفقد بعضنا بعضًا لا محالة.

جفل جسدي عندما صرخ ناجي فجأة مازحًا، ودوّى صدى صوته في المكان. قبل أن يصيبنا الارتباك عندما تسبب ذلك الصراخ في تحليقٍ مفاجئ لسرب من الغربان كان ساكنًا عند قمة تلك الأشجارِ دون أن نراه. ثم قالت رزان وهي تتفحص بعض الأشجار:

- ليست هذه الأشجار من النوع المألوف في واحتنا، لم أرَ مثلها من قبل.

كانت رزان أكثرنا معرفة بشأن الأشجار خاصةً مع اهتمام أبيها بتعليمها طريقة استخراج الصمغ من أشجار السنط الموجودة في شمال واحتنا، لذلك وافقناها فيما قالته، قبل أن تخرج خنجرها وتتابع وهي تزيل بصعوبة لحاء إحدى الأشجار، وتتحسس بيدها طبقة متفحمة ظهرت أسفل اللحاء الذي أزالته:

- وكأن هذه الأشجار ماتت مع أهل الواحة القديمة قبل ألف عام.

فقال ناجي وهو ينظر إلى أرجاء الغابة:

- أخشى ألا نعثر على أي قطعة من أحجار زمير في الواحة نفسها. فنضطر إلى البحث عنها في كل شبر هنا.

فقلت وأنا أضرب الأرض بقدمي:

- إن أرض هذه الغابة تحجرت كالأشجار على مدار القرون الماضية. لا أعتقد أننا سنجد شيئًا على سطحها، ولن نستطيع حفر كل هذه الأرض. فلنأمل فقط ألا تكون بقية الواحة هكذا.

واصلنا تقدمنا بعد ذلك لمدة ساعتين تقريبًا، قاطعين تلك الغابة حتى بدأت المسافات بين الأشجار تتسع تدريجيًا، وارتفاعها ينخفض شيئًا فشيئًا، فأدركنا أننا على وشك الخروج. حينذاك، جلسنا لدقائق جددنا فيها صمغ جفوننا ووضعنا طبقةً من المرطب على أعيننا، قبل

أن ننهض بعد زوال أثر المرطب لنواصل طريقنا. لكننا لم نكد نعبر آخر شجرة في الغابة حتى تسمرنا في أماكننا ونحن ننظر أمامنا في صدمة كانت الأكبر في حياتنا.

***

تساءل ناجي منهولًا:

- هل نحن في حلم ما؟!

كنا لا نزال واقفين في أماكننا في حيرة وقلق؛ ننظر نحو البلدة الكبيرة التي ظهرت في الأفق أمامنا، بمبانيها الحديثة وشوارعها الواسعة الممتدة بين الأشجار الخضراء. قالت رزان:

- هل أخطأنا الوجهة في أثناء عبورنا الدوارة؟!

لم يكن لدى أي منا رد. بعدها، تقدمنا نحو البلدة التي بدأ سكانها يظهرون تباعًا، لينظروا إلينا بدهشة كبيرة. قال قاسم:

- قد تكون كل هذه هلاوس من فعل أطفال البئر، وهؤلاء البشر ليسوا إلا أشباحًا سينقضون علينا في أي لحظة.

وأمسك بقوسه مستعدًا لأي هجوم مفاجئ؛ لكنني همست له بأن يعيد قوسه إلى ظهره، خاصةً مع ظهور بعض الأطفال الذين وقفوا على جانب الطريق وأشاروا إلينا بفضول بريء. قالت رزان وهي تنظر إلى المحيطين بنا:

- إن جفونهم محررة خارج البيوت ولا يرتدون أي شفائف على أعينهم.

بعدها قال ناجي في قلق شديد وهو يتلفت في كل اتجاه:

- لا توجد أسوار حول البيوت أو سور كبير يحيط بالمنطقة كلها، ولا توجد ظلال على الأرض بالقرب من الواقفين. أعتقد أن قاسم محق في كونهم أشباحًا يتربصون بنا. علينا أن نعود إلى الدوارة.

قلت:

- ليس قبل أن نعثر على قطعة من حجر زمير.

فقال في توتر وهو ينظر نحو رجل مسن يقترب منا:

- فلنأخذ حذرنا، هناك شبح يقترب منا.

فوضع كلٌّ منا يده على خنجره، لكن الرجل واصل تقدمه نحونا، حتى توقف أمامنا وسألنا مدهوشًا:

- هل أنتم جزء من الفرقة المسرحية التي فُقدت في العاصفة الرملية؟

لم أفهم ما يقصده، وكان تركيزي كله مع جفونه التي ترمش بين الحين والآخر دون وجود جني حارس بجواره. تابع الرجل:

- للأسف، لقد أُلغي العرض بسبب اشتداد العاصفة هذا العام.

كانت رزان تنطق، لكنني بادرتُ قائلًا:

- نعم، لقد ضعنا وسط العاصفة، ونريد البقاء حتى تهدأ.

قال الرجل باسمًا:

- على الرحب والسعة. يمكنكم البقاء في نُزل البلدة حتى الغد. لقد أعلنت الأرصاد أن العاصفة ستزول مع مساء اليوم. ستقودكم سارة ابنتي إلى النُّزل.

ثم نادى فتاة قريبة في السن منا، كانت تقف بين المتفرجين على جانب الطريق، ترتدي سترة بلا أكمام وسروالًا قصيرًا بالكاد يتجاوز

الركبة، وينضح وجهها بحيوية واضحة مع شعرها الأسود القصير وذلك الطلاء الوردي الذي تضعه على شفتيها. وقال لها:

- هؤلاء من الفرقة المسرحية التي أُلغي عرضها بالأمس. فلتصحبيهم إلى نُزل البلدة، هناك غرف محجوزة لهم بالفعل.

أومأت موافقة وتحركت أمامنا، فتبعناها والقلق والحيرة لا يزالان على وجوهنا. فجأة، التفتت إلينا ضاحكة وقالت:

- لماذا ترتدون تلك النظارات الكبيرة على وجوهكم؟! لقد ابتعدت العاصفة عن البلدة بالفعل.

لم نفهم ما تقصده بالنظارات، وعندما شعرت بذلك، أشارت مدهوشةً إلى شفيفة ناجي، وقالت:

- هذه!

قال ناجي:

- أها، لقد أصاب الرمد أعيننا مع رمال العاصفة، ولا نستطيع إزالتها الآن.

هزت رأسها متفهمة، وقالت وهي تنظر إلى أعيننا أسفل الشفائف:

- نعم، يبدو أن هناك خطبًا ما أصاب جفونكم، وكأنها تصلبت. لكن لا تقلقوا، فبلدتنا محظوظة بوجود الطبيب سلطان فيها، وهو ماهر جدًا في أمراض العيون. قد تذهبون إليه غدًا عندما يعود لفتح عيادته.

وأردفت عندما توقفت رزان وأمسكت بساقها المضمدة في تألم شديد:

- ويمكنه أيضًا أن يعالج جروحكم.

***

مع تقدمنا بين شوارع البلدة، كان كثيرٌ من الناس يظهرون على جانب الطريق، ينظفون الغبار عن النوافذ الزجاجية لبيوتهم ذات الألوان الزاهية، وعندما كان يستغرب بعضهم هيئتنا، كانت سارة تصيح لهم بأننا الفرقة المسرحية التي أتت من العاصمة، فيعودون إلى أعمالهم. فجأة، سأل قاسم الفتاة:

- هل تعرفين شيئًا عن أحجار زُمير؟

تعجبت سارة من سؤاله، وتساءلت:

- أي أحجار تلك؟

أجابها:

- أحجار كريمة فيروزية اللون، الحجر الواحد في حجم حبة تمر.

هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- لا، لم أسمع عنها من قبل.

حينذاك، افترق الطريق أمامنا إلى طريقين بينهما ساحة صغيرة معبدة الأرض، وُضع في منتصفها تمثال كبير لرجل لا يرتدي ثيابًا غريبة مثل ثياب أهل البلدة الذين رأيناهم، بل كان ثوبه المنحوت عبارة عن عباءة طويلة فوق جلباب فضفاض. قالت سارة عندما وجدتنا نحدق إلى التمثال:

- إنه تمثال مؤسس البلدة.

سألتُها في الحال:

- السيد يعقوب؟!

استغربت من الاسم، ثم قالت:

- لا، إنه السيد رفيق الصادي.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا في صمت، ثم واصلنا طريقنا خلفها، حتى توقفت بنا أمام بناء كبير يتكون من طابقين، يحيط به سور ذو قوائم حديدية. وقالت قبل أن نعبر بوابته المفتوحة على مصراعيها:

- ستمكثون في هذا النُّزل. للأسف، الكهرباء منقطعة منذ يومين يسبب العاصفة، لكن هناك أنباء بأنها ستعود في صباح الغد.

لم نفهم ما تعنيه ولم نعلّق بشيء. وواصلنا تقدمنا إلى الداخل معها، حيث استقبلنا شاب أراد أن يجردنا من رماحنا وخناجرنا، فرفضنا بشدة. عندئذ، تحدثت إليه سارة على انفراد لبضع لحظات. بعدها، عاد ليقودني أنا وقاسم وناجي بأسلحتنا إلى غرفةٍ في الطابق العلوي، بينما أمر فتاة أخرى بأن تقود رزان إلى غرفة مجاورة.

***

كانت الغرفة مُضاءة بضوء النهار النافذ عبر نافذتها الزجاجية الكبرى. ومثل كل شيء غريب في تلك البلدة، كان الأثاث غريبًا عما اعتدنا عليه في واحتنا؛ الأسرَّة، خزائن الثياب، الفوانيس المعلقة بالسقف، المراحيض، كل شيء. رأيتُ سارة عبر النافذة وهي تغادر بوابة النُّزل، قبل أن يُطرق باب غرفتنا وتنضم إلينا رزان، لتقول:

- إن الأشباح المتمثلة في صورة بشر في كل مكان.

قلت في غير اقتناع:

- ولماذا صبروا علينا حتى جئنا إلى هنا؟

قالت:

- ربما ينتظرون حتى حلول الليل ليعودوا إلى هيئتهم الأصلية.

قلت:

- لو أن هناك أشباحًا، فسيكونون غير مرئيين مثل أطفال البئر. أشعر أننا أخطأنا الوجهة في أثناء عبور الدوارة مثلما افترضتِ في البداية.

وأردفتُ وأنا أنظر إلى مباني البلدة عبر النافذة:

- نعم، لا نعرف شيئًا عن ملامح الواحة القديمة، لكن بكل تأكيد لن تكون هذا المكان.

***

مكثنا في الغرفة معنا رزان حتى حلول المساء، ووقتها أحضر لنا أحد العاملين بالنُّزل أربع شموع كبرى معتذرًا بأن الكهرباء لن تعود إلا في الصباح. أخذنا منه الشموع بعدما أشعل فتائلها، دون أن نرد بأي شيء أو نستفسر منه عن معنى الكهرباء التي سمعناها أكثر من مرة منذ جئنا إلى ذلك المكان. ثم اتفقنا على ألا يغفو أحدنا في تلك الليلة تحسبًا لأي هجومٍ مفاجئ من تلك الأشباح، لكن شيئًا لم يحدث، بل عمَّ الهدوءُ كافة الأرجاء في الخارج مع تقدم ساعات الليل.

بعدئذٍ، حملتُ شمعتي وأخبرتُ رفاقي بأنني سأتجول في الجوار وسأعود سريعًا. أراد قاسم المجيء معي، لكن مع رغبة رزان وناجي في البقاء بالنُّزل لاقتناعهما التام بكون أولئك البشر أشباحًا. طلبتُ منه أن يبقى معهما، ثم غادرتُ الغرفة ونزلتُ إلى الطابق السفلي، فوجدتُ رجلين من عمال النُّزل نائمين على الأرض، مغمضي الأعين، عبرتُ بجوارهما دون أن يشعرا بمروري، وواصلت تقدمي نحو الخارج، لأخرج من بوابة النُّزل وأجد الشوارع خالية، إلا من بعض الكلاب التي أطلقت نباحها عندما مررتُ بشمعتي بالقرب منها.

***

واصلتُ تقدمي بين الشوارع حتى وصلت إلى تمثال السيد رفيق ووقفت أمامه. فكرتُ حينها في أن أخرج قنينة الدماء وأضع قطرة منها على قدم ذلك التمثال، لعل شيئًا يحدث. لكن بعدما أخرجتها أعدتها إلى أسفل ثيابي مرة أخرى. فجأة، ضرب عيني ضوءٌ شديد صدر من شيء تحرك نحوي بسرعة رهيبة، وهو يصدر ضوضاء صاخبة وسط هدوء الشارع. بحركة لا إرادية، قفزت إلى جانب الطريق، فتوقف أمامي ذلك الشيء الصاخب، وإذا برجل يظهر بداخله ويقول لي متهكمًا:

- ابتعد يا فتى عن وسط الطريق، كادت السيارة تدهسك.

ثم تحرك مبتعدًا. واصلتُ تجوالي بين الشوارع المظلمة، مستغربًا من ذلك الشيء الذي ينقل الرجل بسرعة فائقة. وإن اتخذتُ حذري بالسير على جانب الطريق.

عند أحد البيوت، سمعتُ صوت رضيع يبكي بحرقة. وضعتُ شمعتي بهدوء عند عتبة باب بيت مجاور، وتقدمتُ خلسةً نحو النافذة الزجاجية التي يأتي منها الصوت. لأرى عبرها امرأةً تبدو عليها الحيرة، تضع قماشة مبللة بالماء على جبهة رضيعها الذي لا يكف عن البكاء. أدركتُ أن الطفل مريض بالحمى، فقد كانت أمي تفعل معنا الشيء ذاته عند ارتفاع حرارة أجسادنا. كانت الشمعة في تلك الغرفة على وشك الانتهاء، وأخذ ضوؤها يخفت ويرتعش، مما زاد من توتر الأم التي بدت أنها بمفردها مع طفلها. بعدها تحركت بطفلها نحو النافذة، فتواريتُ جانبًا بسرعة، قبل أن تفتح النافذة، وتحدث نفسها بصوت مسموع دون أن تراني:

- بئسًا لتلك العاصفة، لقد شلّت الحياة في البلدة. ليس هناك طبيب متاح الآن، فلتصبر يا صغيري حتى طلوع النهار.

قلت في نفسي:

- ليسوا أشباحًا.

فجأة، انطفأت شمعة الغرفة، فازداد بكاء الطفل بعد أن صار الظلام حالكًا في الداخل. حاولت الأم إسكاته، وهي تردد في يأس:

- لقد نفدت الشموع جميعها.

فكرتُ في عجز تلك الأم وسط الظلام إذا أصاب ابنها مكروه بسبب مرضه. ودون تردد، تحركتُ نحو الشمعة التي تركتها بعيدًا، وعدت بها إليها، ثم طرقتُ برفق على نافذتها. فاقتربت مني، فقدمتُ لها الشمعة. نظرت إلى وجهي مستغربة، فقلت:

- كنت أمر في الجوار، وسمعتك تتحدثين عن نفاد شموعك. قد تكفيكِ هذه الشمعة حتى طلوع النهار.

فابتسمت بامتنان، وقالت:

- شكرًا لك، لا تعلم كم أنا في حاجة إليها.

أعطيتها الشمعة، وواصلت تقدمي وسط الظلام. فقط كانت هناك بعض الأماكن التي تظهر بها إضاءة خافتة تنعكس من فوانيس منزلية أقوى إضاءةً من الشموع. ثم توقفتُ في مكاني بعدما أدركت أنني خرجت من النُّزل دون حقيبة ظهري التي تحتوي على صمغي ومرطب عينيَّ. ولوهلة، شعرتُ أن صمغ جفوني بدأ يتفكك بالفعل. استدرت لأعود سريعًا إلى النُّزل، فوجدت الطريق من خلفي قد صار حالك الظلام.

***

هرولتُ عبر الظلام، لا أعرف إلى أين أتجه بعدما ضللت الطريق الذي جئت منه. وفي تخبط كبير وتعثر بين الحين والآخر، اجتزت الشوارع تائهًا وقلبي يدق رعبًا. فجأة، سمعتُ نباح الكلاب من جديد، فتوجهت

نحو الاتجاه الذي أتى منه النباح. لكن عندما اقتربت من الكلاب، توقفتُ في مكاني حائرًا، لا أعرف إلى أي اتجاه أتحرك بعد ذلك.

في تلك اللحظة، تيقنت أن جزءًا من صمغ جفني الأيمن قد تفكك، وصار جفني على وشك التحرر. ركضتُ نحو بيت قريب وطرقت بابه بقوة في نعرٍ شديد، لم يجبني أحد. ركضتُ إلى البيت المجاور وطرقتُ بابه أيضًا، لم يجبني أحد. تفكك جزء من صمغ جفني الأيسر أيضًا، ومعه شعرتُ بأن أطفال البئر يحومون حولي في انتظار اللحظة الحاسمة للانقضاض عليّ. ركضتُ نحو بيت جديد وطرقت بابه متوسلًا، أريد أن يدلني أي فرد على اتجاه النُّزل، كان الجميع لا يجيبون. لا أعلم إن كانوا نيامًا أم أشباحًا كما اعتقد باقي رفاقي.

وقفتُ في مكاني مذعورًا، لا أعرف ماذا أفعل، ثم اخترتُ أحد الاتجاهات وركضت فيه. لكن بعد مسافة طويلة من الركض، لاحظتُ أنني لم أصادف تمثال مؤسس البلدة. فأدركتُ أنني اخترت الطريق الخاطئ، وعدت لأركض في الاتجاه المعاكس، وسقطتُ مرة أخرى، ونهضتُ لأواصل الركض، لكنني لم أصادف التمثال أيضًا. فتوقفتُ مكاني يائسًا لا أعرف إلى أي اتجاه أتحرك. فجأة، سمعت أحدًا ينادي باسمي. في البداية ظننت أنها تهيؤات نتيجة اضطرابي الشديد، لكنني سمعتُ النداء يتكرر مجددًا. وأدركتُ أنه صوت رزان وناجي وقاسم. لصحت في الظلام:

- إنني هنا!

نادوا عليّ من جديد، فاتجهتُ نحو مصدر الصوت، منعطفًا إلى شارع كان يقع على يميني. وواصلت الركض فيه حتى ظهرت ضياء شموعهم بعيدًا. صرخت إليهم، فتحركوا نحوي ببطء خوفًا من انطفاء شموعهم. ركضتُ نحوهم بأقصى سرعتي بعدما تحرر أغلب صمغ جفوني، متمنيًا

لن يكونوا قد أحضروا الصمغ معهم. نادوا عليَّ من جديد، فأجبتُ نداءهم لاهثًا وأنا أركض:

- إنني هنا!

ثم التوى كاحلي الأيمن، فسقطت مرة أخرى، لكني نهضتُ على الفور وأنا أصرخ إليهم:

- جهزوا الصمغ!

بعد لحظات، وصلتُ إليهم مقطوع الأنفاس. كان ناجي وقاسم يمسكان بالشموع، بينما أمسكت رزان بزجاجة الصمغ في استعداد. جثوتُ على ركبتي أمامها، فمدت إصبعها في الزجاجة في الحال كي تخرج طبقةً منها تثبت بها جفوني، لكنها ما إن أزالت شفيفة عيني وكادت تضع الصمغ على جفوني، حتى توقفت في صدمة كبرى، وقالت وهي تنظر إليَّ:

- لقد تحررت جفونك بالفعل، إنك ترمش بلا قيود.

(8)

في البداية، لم أصدِّق رزان. لكن عندما ظهرت علامات الدهشة والحيرة على وجهيْ قاسم وناجي، تحسستُ جفوني بيدي، لأدرك أن الصمغ قد تفكك بالفعل، وأن جفوني صارت مُحررة دون أن يمسَّني أذى، رغم عدم وجود جني الحارس بجواري. فهمستُ إلى رزان مصدومًا:

- أخبريني أنني لست عالقًا في حلم ما.

هزت رأسها نافية، بينما كانت تعبيرات وجهها تعكس مزيجًا من الدهشة والذهول. قال ناجي باندفاع:

- أغلق جفونك بالكامل.

فرفضت خشية أن يكون ما جئت أمرًا مؤقتًا، ففاجأني بتقريب شمعته من وجهي، فرمشت جفوني لا إراديًّا. فصرخ في حماس:

- إنك محصن بالفعل!

سألني قاسم بريبة:

- هل أصابك شيء ما في أثناء تجوالك أو فعلت أي شيء أكسبك هذا الحصن؟

أجبت:

- لا.

نظروا إلى بعضهم بعضًا وكأنهم يتساءلون عما إذا كانوا محصنين مثلي أم أنني أتميز عنهم بشيء. وحينها، جال في ذهني أن تكون قنينة الدماء هي ما حصنتني ضد أطفال البئر، وقررتُ أن أخبرهم عنها قبل أن يقوموا بأي فعل قد يعرضهم للخطر، ومددتُ يدي إلى عنقي لأخرج السلسلة المعلقة بها القنينة، لكنني فوجئت بأنها لم تعد معلقة هناك. فنهضتُ من جلستي على ركبتي، وبدأت أفتش في ثيابي عن السلسلة بتوتر شديد، مما أثار استغرابهم وجعلهم يبتعدون عني قليلًا. لكني لم أنشغل باستغرابهم وخلعت سترتي الجلدية وفتشت فيها من جديد، ثم بحثت أسفل ثيابي الداخلية، إلا أنني لم أعثر على شيء. فاختطفتُ الشمعة من يد ناجي وقربتها من الأرض بجواري وتحركت لعدة أمتار في الاتجاه الذي جئت منه، لكني لم أجدها. فصرختُ إلى نفسي:

- لقد فقدتها.

سألني البقية في دهشة عما أبحث. فأجبت كاذبًا:

- كان هناك خاتمٌ معلقٌ في خيطٍ حول رقبتي، ولا أدري أين سقط.

قالت رزان:

- حسنًا، لنبحث عنه.

فقال ناجي معترضًا:

- وقتها سنفقد الطريق إلى النزل جميعًا، ولا ندري ماذا سيحدث حينها. ليس لهذا الخاتم قيمة هنا. سنعود إلى النزل.

فقلت لهم:

- لم أعد في حاجة إلى الصمغ الآن. فلتعودوا أنتم إلى النُزل ومعكم شمعة، وسآخذ الأخرى للبحث عن الخاتم، وسأعود إليكم بعد قليل. شكرًا لكم على قدومكم لإنقاذ حياتي.

قالت رزان بابتسامة:

- إننا فريق واحد أيها القائد.

***

عادوا إلى النزل بعدما دلّوني على الشارع المؤدي إليه، أما أنا، فعدت إلى الشوارع التي تذكرت أنني ركضت فيها، ومعي الشمعة، وأخذت أبحث عن السلسلة المعلّقة بها قنينة الدماء. لكن ما إن أنهيت شارعين حتى دوّى صوت الرعد في السماء؛ ولم تمضِ دقائق حتى هطل المطر وانطفأت الشمعة. فأدركتُ استحالة العثور على القنينة مرة أخرى، وقررت يائسًا العودة إلى النزل، دون أن أتوقف عن لوم نفسي أو يتوقف عقلي عن التفكير فيما قد ينتج عن ضياع تلك الدماء.

عندما عدت، كان ناجي ورزان وقاسم في انتظاري. سألتني رزان أن أغمض عيني أمامهم مرة أخرى، ففعلتُ ذلك. فجعلتني أقسم أمامهم إنني لم أفعل شيئًا أو أجرِ طقسًا ما جعلني محصنًا. فأقسمتُ بكل أريحية وأنا أفكر في أن القنينة حتى لو كانت السبب، فلم تعد في حوزتي. فقالت لهما رزان:

- حسنًا، ربما نكون محصنين مثله.

قال ناجي بحزم:

- لن أحرر جفوني.

وهز قاسم رأسه رافضًا هو الآخر. حينذاك، شعرتُ أن رزان ستحرر جفونها، لكنها أطلقت تنهيدة، وقالت:

- إذا ظل يوسف على قيد الحياة ليوم كامل بجفون محررة، سأحرر جفوني بعدها.

أومانا برؤوسنا موافقين. ثم طلبتُ منهم أن يستلقوا، وأخبرتهم أنني سأبقى بجوارهم حتى الصباح لأجدد صمغهم ومرطب أعينهم، فاستلقوا على الأسِرَّة بعد أن اتفقنا على التجوال في المدينة عند حلول الصباح.

***

مع شروق الشمس، عدت إلى الخارج بمفردي بعدما جددتُ صمغ البقية ومرطب أعينهم، وأخذت أبحث من جديد عن السلسلة المعلقة بها قنينة الدماء، لكن لم أعثر على أي أثر لها. ثم عدت إلى النُّزل فوجدتهم قد نهضوا، فخرجنا معًا إلى شوارع البلدة مرة أخرى. في ذلك الوقت، لم يكن هناك كثير من السكان في الخارج. ومع تركنا دروعنا ورماحنا في النزل، واستغنائنا عن الزي الجلدي الثقيل واكتفائنا بالثياب الخفيفة التي كنا نلبسها تحته، وعدم ارتدائي شفيفتي، لم نثر انتباه المارة كما حدث في اليوم السابق.

لم نكن نعرف من أين نبدأ، فقررنا التجوال عشوائيًا لعلنا نصادف شيئًا نبدأ عنده. تعجب الرفاق وأنا معهم عندما رأينا تلك الآلات الصاخبة التي تنقل السكان بسرعة. واقترح ناجي ضاحكًا بأن نحصل على واحدة نعبر بها الدوارة، لكن قاسم أجابه بأنها من صنع الأشباح وقد يكون انتقالنا بها فخًا مميتًا. فقلت له مصرًا:

- ليسوا أشباحًا. كانت هناك امرأة بالأمس ترعى رضيعها المريض في عجز وقلة حيلة مع انتشار الظلام. ولولا أن أعطيتها شمعتي، لقضت ليلة من أسوأ لياليها. انظر إليهم، لا أحد منهم يعبأ بوجودنا أصلًا.

فجأة، سمعنا صوتًا ينادينا. استدرنا فوجدناها سارة التي ذهبت بنا إلى النُّزل بالأمس، ترتدي فستانًا ذا ألوان زاهية متداخلة. قالت حين اقتربت منا:

- هل ستغادرون اليوم؟

قلت:

- ربما نمكث بضعة أيام أخرى في البلدة.

قالت:

- على الرحب والسعة. يتبقى لكم أربعة أيام محجوزة بالفعل في النُّزل.

قلت باسمًا:

- رائع، إنه كرم مبالغ فيه.

فقالت:

- أشعر بتحسن كبير في عينيك على عكس رفاقك.

ثم أضافت:

- على أي حال، لقد عادت الكهرباء إلى البلدة وستعود الحياة إلى طبيعتها ابتداءً من اليوم بعدما أعلن التلفاز أن العاصفة قد زالت.

لم أفهم ما تعنيه بالتلفاز حينها، لكنني توقفت عند قولها إن العاصفة قد زالت. وسألتها:

- هل تقصدين الدوارة؟!

ضحكت وقالت وهي تدير سبابتها اليمنى بحركة تشبه الدوامة:

- أووو، نعم، زالت الدوامات وصارت المنطقة بعد الغابة الجافة آمنة تمامًا، وستعود الطرق هناك للعمل من جديد بحلول الغد.

قال قاسم محتدًا:

- لا يمكن للدوارة أن تزول.

فقالت له ضاحكة:

- إنها تزول عادة يا صديقي. لا يمكن لها أن تبقى على الدوام.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا ودون أن نقول شيئًا، تركناها وركضنا في اتجاه الغابة المتحجرة. لنعبرها بأقصى سرعة لنا دون توقف حتى خرجنا من جهتها الأخرى، وحينها توقفنا في أماكننا مذهولين بعدما لم نجد الدوارة أو أي أثر للدوامات الرملية في نطاق أبصارنا.

***

كانت الأرض مستوية على امتداد أبصارنا عندما تقدمنا لمسافة تقارب ثلاثة أميال بعد الغابة المتحجرة، وتوقفنا وحالة الذهول لا تزال تعصف بنا بعدما أيقنًا أن الدوارة لم تعد موجودة بالفعل. تساءل قاسم مصدومًا:

- كيف سنعود إلى الواحة؟!

كنا ننظر إلى الأفق في صمت مطبق، عاجزين عن إيجاد أي إجابة لسؤاله. حتى صرخ ناجي بحالة الصدمة نفسها:

- قال السيد رشيد إن انحراف الدوارة سيستمر ثمانية أيام!

ثم التقط حجرًا صغيرًا من الأرض وألقاه بعيدًا بغضب. فقالت رزان، والعرق يتصبب منها أكثر من البقية:

- لا بد أن الدوارة ستعود من جديد.

فصرخ قاسم فيها:

- لقد حُبسنا في المكان الخاطئ! لا دوارة، ولا أحجار زُمير، ولا أحد يشبهنا!

قلت هادئًا:

- علينا أن نعود إلى البلدة. مثلما جئنا من الواحة إليها، لا بد وأن هناك طريقة أخرى نعود بها إلى الواحة.

فصرخ فيَّ منفعلًا:

- لا تتحدث كأنك قائدنا فعلًا. إنك لا تصلح لأي شيء، ومنذ هذه اللحظة سأبحث عن أحجار زمير أو سبيل العودة بمفردي. لن أتبعك أيها الضعيف الفاشل. إن لدي أمًّا على وشك الموت.

وقال ناجي:

- وأنا أيضًا لن أتبعك يا يوسف، سأذهب مع قاسم.

ثم نظرا إلى رزان، فصمتت قليلًا ثم قالت:

- سأبقى مع يوسف.

فغادرا وهما يصبّان لعناتهما علينا، بينما واصلتُ أنا ورزان تقدمنا عبر الأرض المستوية، علّنا نجد أي علامة ترشدنا إلى طريق الواحة، لكننا لم نعثر على أي شيء. فقررنا العودة إلى البلدة من جديد، وحين وصلناها بعد الظهيرة، وجدنا هناك حركة غير طبيعية في الشوارع، وكأن شيئًا ما يحدث. قلت لرزان التي شعرت بالقلق:

- ربما تكون هذه حياتهم الطبيعية بعد زوال العاصفة.

قالت وهي تنظر إلى المارة:

- لا أظن ذلك، إن وجوه هؤلاء البشر قلقة بشأن ما.

فاستوقفتُ شابًا كان يمر على مقربة منا وسألته عما يحدث، فقال:

- لقد أعلن قائد السجن المركزي أن هناك أربعة سجناء فُقدوا في العاصفة. تعطلت بهم سيارة الشرطة وسط دوامات الرمال قبل يومين، واضطر الشرطي إلى إخراجهم منها، ومن بعدها لا أثر لهم.

شكرته، وأكملنا الطريق إلى النُّزل حيث كان بعض الناس يعلقون ملصقات على الحوائط للمفقودين الأربعة، ورغم أننا كنا نسير على مهل، كان العرق لا يزال يتصبب من رزان بصورة واضحة. فسألتها:

- هل أنتِ بخير؟!

قالت:

- نعم، فقط جرح ساقي يؤلمني بعض الشيء.

***

عندما وصلنا إلى النزل، لم يكن قاسم أو ناجي هناك. ثم لاحظتُ أن صمغي، ومرطب عينيَّ، ورمحي، ودرعي قد اختفوا. فقالت رزان، بعدما اكتشفت أن رمحها ودرعها مفقودان أيضًا:

- لقد تركا لي صمغي وقليلًا من مرطب العيون، عليَّ أن أشكرهما على كرمهما حين نلتقي من جديد.

ثم جلست وتحسست ساقها المصابة وتأوهت متألمة. فقلت وأنا أنظر إلى الضمادة التي تغير لونها إلى الأصفر:

- أعتقد أن جرحك في حاجة إلى ضمادة جديدة.

قالت بوهن واضح:

- إنني بخير.

لكنها لم تكد تكمل الجملة حتى سقطت على الأرض فاقدة للوعي. وحين حاولت إفاقتها، أدركت أن حرارة جسدها مرتفعة للغاية. فركضتُ إلى الطابق السفلي وصرختُ إلى العامل هناك:

- إن صديقتي مريضة للغاية وفقدت وعيها.

ارتبك لحظيًا، ثم رافقني إلى الطابق العلوي، وحين وجدها مستلقية على الأرض مفتوحة العينين مُثبتة الجفون، قال:

- لا بد أن ننقلها إلى عيادة الطبيب سلطان. سأحضر سيارة في الحال.

ثم تركني وغاب لدقائق قبل أن أسمع صوت بوقٍ يدوِّي في الخارج. وعندما لم أتحرك من موضعي بجوارها، صعد لي من جديد وصرخ:

- لقد أطلقتُ بوق السيارة أكثر من مرة! هيا، احملها إلى الأسفل!

حملتها على الفور وهبطت السلالم خلفه. كانت آلة النقل الصاخبة التي أحضرها ذات صندوق خلفي كبير. أشار لي بأن أصعد برزان إلى ذلك الصندوق، ثم اختفى داخل ما عرفتُ لاحقًا أنه مقصورة القيادة، وانطلق بنا عبر شوارع المدينة بينما يهتز جسدي أنا ورزان التي استعادت وعيها بعض الشيء مع تلك الاهتزازات المتواصلة. حتى توقف بنا أمام بناء من طابق واحد، ونزل من مقصورة القيادة وقال لي:

- احملها إلى الداخل.

حملتها ونزلت بها، ودخلنا إلى داخل البناء، حيث قادتنا فتاةٌ إلى غرفة كان يجلس فيها رجل ستيني نحيف ذو شعر رمادي يرتدي معطفًا أبيض. نهض نحونا سريعًا ما إن دخلنا إليه وأشار لي بأن أضع رزان على سرير صغير في جانب الغرفة. ثم سألني:

- ماذا حل بها؟

أخبرته عن الجرح الكبير الذي أصاب ساقها وضمده صديقنا قبل يومين. أزال الضمادة المتسخة عن جرحها، فإذا بسيلان كبير من القيح الأصفر يسيل عبر الجرح ومعه فاحت رائحة نتنة في الغرفة. فنادى على مساعدته، فأحضرت له بعض الأدوات الطبية والزجاجات والأواني، وأخذ يغسل الجرح من القيح بينما تصرخ رزان من شدة الألم.

لم أستطع تحمل رؤية الجرح، فجلستُ جانبًا بعدما أصابني بعض الدوار، حتى انتهى الطبيب وقال وهو يخلع قفازه:

- كان الجرح ملوثًا بالكامل. لقد نظفتُه، لكنه سيحتاج إلى تنظيف مستمر وأدوية مكثفة.

نظرتُ إلى رزان ثم قلت له:

- لا نمتلك مقابلًا، سيدي.

صمت لبعض الوقت، فقلت وأنا أخرج خنجري:

- هل نستطيع مقايضة هذا مقابل تنظيف الجرح والأدوية التي نحتاجها؟

مد يده وأمسك بالخنجر وأخذ يتفحصه بعدما أخرجه من غمده، ثم قال:

- ماذا أفعل بهذا؟!

حينذاك نهضت رزان من على السرير وتحركت لتجلس على المقعد المقابل لي، ثم أخرجت سلسلة ذهبية كانت معلقة برقبتها، وقالت وهي تعطيها للطبيب سلطان:

- إنها ذهب خالص، هل يكفي ثمنها؟

أمسكها في يده وقال منبهرًا:

- ويزيد أيضًا. سأحتفظ بها وسأضمد لكِ الجرح كل يومين، وأعطيك الأدوية اللازمة. وعند اكتمال شفاء جرحك، سأعطيك باقي قيمتها نقدًا.

لكن رزان لم تجبه، إذ ثبتت نظرها فجأة على شيء خلفي كان يقبع على الطاولة التي تفصل بيننا وبين الطبيب. وقالت لي:

- انظر خلفك.

استدرت لأرى ما كانت تنظر إليه، فتسارعت دقات قلبي واندفعت الدماء إلى عروقي غير مصدقٍ لما أراه. كانت هناك صورة لفتاة في العشرين من عمرها، تشبه أمي إلى حدٍ مذهل. لا، لم يكن الأمر مجرد تشابه، بل كانت هي أمي نفسها، في سن العشرين تقريبًا.

(9)

عبير

مع مغادرة أخي يوسف ورفاقه المنقبين عبر الدوارة، شعرت كأن سحابة سوداء قد ألقت بظلالها على الواحة. ورغم الأمل الذي كنا نتعلق به تجاه نجاحهم في تلك المهمة، كنا نعلم في أعماق قلوبنا أن الفريق محفوف بالمخاطر، وأن عودتهم ليست مضمونة.

لم يغفر أبي وأمي لنفسيهما غيابهما عن اللحظات الأخيرة مع يوسف قبل رحيله، خاصةً أبي، الذي لم يودعه في صباح ذلك اليوم أيضًا. لكنهما لم يمتلكا خيارًا آخر؛ فقد باغتتنا ريم يومها بخروجها من البيت دون أن نشعر. وأمضينا النهار كله نبحث عنها في كل مكان، حتى وجدناها نائمةً بجوار صخرة في الجهة الشرقية من الواحة..

يومها طلب مني أبي وأمي أن أتركهما يواصلان البحث، وأسرع لإخبار يوسف أننا بخير كي لا يقلق، على أمل أن يلحقا بي إن عثرا على ريم. لكنني وصلتُ متأخرة، ولم أتمكن من الحديث معه، فاكتفيت بالإشارة إليه مطمئنةً له أننا بخير.

في الأيام التالية لم نفوِّت يومًا، أنا وأمي وريم، دون أن نذهب إلى الجهة الغربية من الواحة بالقرب من مزارع النخيل ونجلس هناك لأطول فترة ممكنة، لعلنا نبصر يوسف عائدًا إلينا عبر تلك المزارع، مثلما كان

أهالي رزان وناجي وقاسم يفعلون. لكن مع مرور تلك الأيام واحدًا تلو الآخر دون عودتهم، بدأت قلوبنا تدق خوفًا مما تحدثنا به عقولنا بأنهم قد فُقدوا في الدوارة مثلهم مثل المئات الذين فُقدوا فيها قبل سنوات طويلة. حتى مرّت الأيام الثمانية لانحراف الدوارة، وعادت إلى مسارها الطبيعي، فتحطمت آمالنا كلها سواء في عودة أحبابنا الذين رحلوا، أو في قدوم ضيف جديد إلى الواحة.

أتذكر أننا لم نتوقف عن البكاء في اليوم الذي عادت فيه الدوارة إلى مسارها. أبي هو الآخر بكى كثيرًا، لكن ذلك لم يشفع له عند أمي التي حملته مسؤولية فقدان ابنها باقتراحه ذلك الاقتراح في اجتماع الحصن السداسي. لم يقل شيئًا يومها، فقط نزل إلى غرفة الاتصال التي كان يوسف يجلس فيها كثيرًا، وانزوى هناك، بينما انزوت أمي في غرفتها. حينها، أدركتُ أن انهيار سور بيتنا لم يعد سوى مسألة وقت، وفي الحقيقة لم أشغل بالي بذلك الأمر فقد انهار البيت بالفعل مع ذلك الشقاق الذي حدث في أسرتنا بعد فقدان يوسف. لتمر أيامنا كأننا موتى أحياء، نقضي ساعاتها دون أي أمل أو رغبة في الحياة، وأعتقد أن ذلك الشعور قد تسرب لأهل الواحة جميعهم.

حتى جاء ذلك اليوم بعد أسبوعين تقريبًا من انتظام مسار الدوارة، إذ كنت في الحظيرة أطعم الأغنام، وقبل أن أغادر وأغلق الباب الخشبي للحظيرة، فاجأتني إحدى النعاج وركضت هاربة عبره. لم تكن جفوني مثبتة كي ألحق بها في الخارج، فأسرعتُ إلى داخل البيت وثبتُ جفوني بالصمغ على نحو سريع، ثم ركضتُ للخارج باحثة عنها. دلني بعض المارة على الاتجاه الذي سلكته، فركضت فيه، حتى لمحتها تدخل إلى حظيرة القبور، فأسرعت نحوها.

كانت حظيرة القبور خالية في ذلك التوقيت. تقدمتُ وأنا أطلق صفيري للنعجة كي تهدأ، بينما كانت تركض عشوائيًا بين القبور في خوف. حاولتُ الإمساك بها لكن ساقي انزلقت في أحد القبور، وكاد جسدي يسقط بالكامل فيه لولا أن تماسكتُ في اللحظة الأخيرة. ثم نهضت وركضت نحوها قافزة فوق القبور المتجاورة كي أحكم حصارها في إحدى زوايا الحظيرة. لكنني توقفت غير مصدقة حين قفزت فوق قبري ولمحت أرضية قبر يوسف المحفور بجواره، لأهمس إلى نفسي في ذهول وأنا أعاود النظر إلى أرضيته التي صارت وحلًا:

- لقد نشع الماء في قبر يوسف!

***

عدت إلى أبي ركضًا، تاركة النعجة في الحظيرة، وأخبرته ما رأيت. ركض معي نحو حظيرة القبور، وهناك وقف محدقًا في صمت نحو قبر يوسف، قبل أن ينحني ويمد يده ويمسك حفنة من الوحل بينما تتساقط دموعه على خديه. ثم نهض محاولًا التماسك، وتحرك إلى قبور عائلات باقي المنقبين وتفحص أرضياتها بعناية، فوجد جميعها جافة، لا وحل فيها. ثم عاد إلى قبر يوسف مرة أخرى، ووقف أمامه شاردًا، قبل أن يقول:

- لقد كُتبت له النجاة بمفرده.

نظرت إليه بترقب، وسألته:

- هل هذا يعني أنه سيعود إلينا؟

هز رأسه نافيًا، وقال:

- من ينجو بهذه الطريقة لا يعود أبدًا، سيأتي إلى الواحة ضيفٌ جديد ليحل مكانه.

بعد ذلك، طلب مني أن أعود إلى البيت لأخبر أمي ما رأيناه، بينما توجه هو للقاء السيد رشيد وبعض سادة الواحة لإخبارهم الأمر. لم تصدق أمي كلامي حتى أقسمتُ لها بصدق كل كلمة تحدثتُ بها، فأخذت تبكي. فقلت لها وأنا أحتضنها:

- إنه حي يا أمي.

هزت رأسها دامعة دون أن تنطق بكلمة.

***

عاد أبي من الخارج مع غروب الشمس، فخرجت إليه أمي على الفور. قبّلها وقال:

- إنه في مكان أفضل على كل حال.

هزت رأسها إيجابًا. فأردف:

- اعتاد الناجون قديمًا أن يقيموا احتفالًا كبيرًا بنجاتهم قُبيل عبورهم الدوارة، يقوم أهاليهم خلاله بتغطية أجسادهم بالوحل.

صمتت أمي لبعض الوقت، ثم قالت:

- لطالما تمنيت أن ينجو أولادي من الواحة، لكن بعدما نجا يوسف، أدركت أن الفراق، حتى وإن كان من أجل النجاة، يظل فراقًا مؤلمًا.

قال أبي باسمًا:

- لعلنا ننجو نحن أيضًا ذات يوم، ونلحق به.

أومأت برأسها في صمت، فتابع:

- يتوقع السادة أن يأتي ضيفٌ إلى الواحة في الأيام المقبلة.

واصلت أمي صمتها، فقلتُ لأبي:

- لعل الضيف الجديد يعوِّض الواحة عن الأربعة الذين غادروا، ويساعدنا في تدعيم الأسوار.

فقال وهو ينظر إلى أمي:

- أتمنى ذلك.

***

في الأيام التالية، كانت الأحاديث كلها في الواحة عن نجاة يوسف واحتمال قدوم ضيفٍ دون الحاجة إلى حجر زمير. لا أحد يعرف كيف حدث ذلك، لكن واحتنا مليئة بالأسرار، وحظيرة القبور لا تكذب، وما دام جادت بوحلها فالضيف قادم لا محالة. حتى إننا بدأنا نذهب من جديد إلى الجهة الغربية من الواحة، لنشهد ظهور ذلك الضيف.

لكن الأيام مرت تباعًا دون جديد، وبدأت الأحاديث اليائسة تنتشر بين الأهالي بأن الوحل الذي ظهر في أرضية القبر كان من صنيعة بعض الأشخاص، من بينهم أبي، كي يعطوا أملًا زائفًا لأهل الواحة. حتى فوجئنا في اليوم السابع عشر من اكتشافنا لوحل القبر، بأحد المزارعين يركض في الواحة مناديًا بأن الضيف الجديد قد ظهر عند الدوارة.

خرجنا جميعًا راكضين نحو الجهة الغربية للواحة من أجل رؤية ذلك الضيف. وما إن أبصرناه يخرج من مزارع النخيل، حتى علت الهتافات فرحًا. ثم فجأة، وبينما كنا نحتفل، صاحت امرأة وهي تشير نحو مكانٍ بعيد بمزارع النخيل بأن هناك رجلًا آخر قادمًا، فزادت الصيحات التي سرعان ما تحولت إلى همسات مدهوشة عندما ظهر رجل جديد ثالث يجتاز المزارع إلى الواحة. وقبل أن نستوعب ما يحدث، ظهر الضيف الرابع قادمًا هو الآخر.

تساءل أبي الذي كنت أقف بجواره في دهشة كبيرة:

- ماذا يحدث؟! هل استبدلت حظيرة القبور يوسف بأربعة ضيوف؟! أم أن المنقبين الأربعة نجوا جميعًا، ولم ينشع الماء إلا في قبر يوسف؟

فقلت:

- أيًا كان ما حدث يا أبي، فهناك أربعة ضيوف قد أتوا ليساعدوا الواحة.

بعدها، ركض الناس من حولنا نحو الأربعة الذين كانوا يتقدمون بذهول كبير في اتجاهنا. فتركتُ أبي وركضت معهم.

***

كان الوحل يغطي أجساد الضيوف العارية بالكامل عدا وجوههم التي بدت عليها الدهشة والحيرة وهم يرون ذلك الاستقبال الغريب منا. كنت أعرف أن الضيوف لا يتذكرون شيئًا عن ماضيهم. فأمي كانت آخر الضيوف قبل أولئك الأربعة، ولم تتذكر قط في أي بلد وُلدت أو عاشت قبل مجيئها إلى هنا، أو حتى اسمها القديم. فقط ما تذكرته صدفةً هو مهارتها في خلط الأعشاب.

قال رجل من الواحة للبقية عندما اقتربوا بشدة من الضيوف:

- لا تخيفوهم، إنهم في عالم جديد بالنسبة لهم الآن.

تحركتُ حينها ووقفتُ على صخرة عالية مسطحة كي أتمكن من رؤيتهم جيدًا. وهناك لاحظت أن معصم كل واحد منهم مُحاط بغلٍ حديدي لا يقيد حركته. كان الأول منهم في الثلاثينات من عمره، ذا بشرة داكنة وعينين حادتين، أطلقنا عليه فيما بعد اسم عمران. الثاني كان في نفس العمر تقريبًا، غير أن ملامحه كانت أكثر هدوءًا ووسامة، أسميناه فيما بعد سيف. الثالث كان شخصًا أربعينيًا يبدو عليه الشقاء والتعب،

أطلقنا عليه حاتم: الرابع كان شابًا عشرينيًا وبدا عليه أنه أكثرهم قلقًا وتوترًا، أسميناه هاشم فيما بعد.

وقفوا أمام الأهالي مترددين ومرتبكين، وكل واحد منهم ينظر إلى الآخر بحثًا عن إجابات. فسألهم السيد بشير الذي تقدم الحشد:

- من أنتم؟ ومن أين أتيتم؟!

سكتوا جميعًا حتى قال حاتم:

- لا أعرف من أين أتيت ولا أتذكر اسمي. كل ما أتذكره أنني كنت أصارع الموت في تلك العاصفة الرملية.

وقال الثلاثة الباقون الأمر نفسه، ثم سكتوا في حيرة من أمرهم. لا أعلم لماذا أصابني القلق من عمران، ولوهلة شعرت بشرٌ كبير ينبعث من عينيه الحادتين. بعدها تساءل هاشم في خوف شديد وكأنه أدرك أخيرًا أننا جميعًا مثبتو الجفون:

- من أنتم؟ وما هذا المكان؟ ولماذا تلصقون جفونكم؟

فقال السيد رشيد الذي كان قد أتى بمساعدة مساعده وتقدم الحشد:

- عليكم أن ترتاحوا من رحلتكم المرهقة الآن، وسنحكي لكم كل شيء عن مكانكم الجديد، فقط لا تحاولوا إزالة الوحل عن أجسادكم.

***

بالطبع، لم يستمعوا إلى حديث السيد رشيد، وبدأوا يتجولون في الواحة دون راحة. لم أكن أعرف إن كانوا يعرفون بعضهم بعضًا أم لا، لكنهم تجولوا معًا وكأنهم أدركوا أنهم في نفس الجانب من المعاناة. قال لنا أبي إنهم بعدما جابوا الواحة ذهابًا وإيابًا، سكنوا إلى الحصن السداسي. وهناك التقى بهم هو والسادة مرة أخرى، وأخبروهم حقيقة الأمر في هدوء كي يتقبلوا واقعهم الجديد بأنهم ضيوف لن يستطيعوا

المغادرة. وطلبوا منهم أن يحفروا قبورًا لأنفسهم في حظيرة القبور، ويقطِّروا من دمائهم في أرضياتها، ثم يمروا على بيوت الواحة ليصبغوا بدمائهم أضلع النجمات المنقوشة على أسوارها، حتى يظهر الجني الحارس الخاص بكل منهم، قبل أن يزول الوحل عن أجسادهم.

كنا نعلم أنهم لن يصدقوا الأمر بسهولة، لذلك كان لا بد من حدث قوي يثبت لهم صحة ما أخبرهم إياه السادة. وهذا ما حدث بالفعل، إذ بدأ الوحل يزول عن أجسادهم بسرعة مع ذهابهم اليومي إلى الدوارة بحثًا عن مخرج، وعودتهم خائبي الأمل في كل مرة مع إدراكهم استحالة الأمر. ثم أتت اللحظة الحاسمة عندما زال الوحل بالكامل عن جسد حاتم، أكبرهم سنًا، وكان وقتها برفقتهم في شارع قريب من بيتنا. فجأة، توقف مكانه بلا حراك، قبل أن يطلق صراخه متألمًا عندما بدأ الدم يتدفق من جروح عميقة أخذت تظهر تباعًا في جسده، ثم بدأت أطرافه تتآكل مع هجوم أشباح أطفال البئر عليه دون رحمة.

كان الثلاثة الباقون يقفون متجمدين، ينظرون إليه برعب شديد، وجسده الشاحب يتقلص من الأطراف بسرعة رهيبة قبل أن يتمزق جذعه إلى أشلاء تناثرت على الأرض وبدأت تتآكل هي ورأسه. كنت حينها أقف بجوار أمي، أشاهد ما يحدث، فأمسكتُ بيدها وأبعدتُ نظري، وقلبي يدق رعبًا رغم أنني رأيت ذلك المشهد أكثر من مرة من قبل. حتى التُهِم جسده بالكامل، وبدأت الدماء التي تناثرت على الأرض تتلاشى بعدما لم يتوانَ أطفال البئر عن شربها. حينها، نظر الضيوف الثلاثة إلى أجسادهم التي لم يعد يغطيها إلا القليل من الوحل، وبأقصى سرعة لهم، ركضوا نحو حظيرة القبور بعدما أدركوا صدق رواية سادة الواحة.

قال أبي الذي حضر معهم في حظيرة القبور:

- حفر كل واحد منهم قبره بسرعة غير مسبوقة، إذ كانوا يصارعون الوقت قبل زوال الوحل عن أجسادهم. وفي تلك الأثناء، جهَّز السيد رشيد لكل واحد منهم قربة صغيرة تحتوي على سائل يمنع تجلط الدماء. وبعدما انتهوا من حفر القبور، جرح كل واحد منهم رسغه بخنجرٍ وملأ قربته بدمائه، ثم قطَّر منها في قبره. بعدها نظروا إلى السيد رشيد وسألوه:

- هل نحن محصنون الآن؟

فأجابهم:

- لا، انتهى الجزء الأول فقط من الطقوس. عليكم أن تمروا الآن على بيوت الواحة ومعكم قرب دمائكم، واصبغوا ضلع إحدى النجمات على أسوارها. سيجد كل واحد منكم في النهاية بيتًا يُسمح له بالبقاء فيه بعدما يظهر جنيه الحارس داخله.

وأضاف محذرًا:

- قبل زوال وحلكم، وإلا سيحدث لكم ما حدث لرابعكم.

***

كنا في بيتنا عندما أخبرنا أبي ما حدث في حظيرة القبور، ولم يكن أي من الضيوف قد قدم لصبغ نجمات سورنا بعد. فتمنيت في داخلي، إن كان قدرنا أن نستضيف أحدهم، أن يكون سيف، الشاب الثلاثيني الوسيم ذو الملامح الهادئة. بعدها انتظرت أمام عتبة بابنا الداخلي مع أمي وريم، بينما خرج أبي ليتابع الأحداث.

بعد قليل، أتى إلى بيتنا هاشم، الضيف العشريني، وصبغ ضلع إحدى النجمات على سورنا، وانتظر، لكن جنِّيه الحارس لم يظهر. فتحرك سريعًا إلى بيت آخر، حيث كان وحله على وشك الزوال. ثم أتى سيف،

نظر إليّ باسمًا، فابتسمت له، لوضع بعض الدماء على سبابته وصبغ ضلعًا آخر من نفس النجمة التي اختارها هاشم. ترقبتُ الأرض بجواره، لكن لم يظهر جنّيه الحارس هو الآخر، وتحرك باحثًا عن بيت آخر.

قبل غروب الشمس، أتى إلى بيتنا الشاب الثلاثيني الآخر، عمران الذي لم أرتح له قط منذ رأيته للمرة الأولى. في غير اكتراث، صبغ الضلع الثالث من النجمة ذاتها، ثم تحرك ليغادر البيت غير مهتم بالبحث عن ظهور الجني بجواره. فتنفست الصعداء بعدما لم يظهر جنّيه الحارس، لكنه ما إن أوشك على مغادرة بوابة سورنا حتى صاحت ريم فجأة:

- هناك ظل ظهر على الأرض!

توقف حينها متهولًا، وكذلك ظهرت الدهشة على وجه أمي وأبي الذي كان قد عاد إلى البيت وقتها، وأنا معهم. فظهور جنّيه الحارس في بيتنا كان يعني أن بيتنا صار مأوى لذلك الرجل حتى وقت رحيله عن الواحة.

نظرتُ مرعوبة في عينيه، وحدق هو الآخر إلى عيني دون أن يقول شيئًا، ثم نظرتُ إلى الوشم المرسوم على الجانب الأيسر من صدره، والذي لم يكن واضحًا بسبب تغطية معظمه بالوحل. وجال في ذهني وقتها أنه إن كانت هناك كوابيس حقيقية في حياتي، فسيكون أولها أن يعيش معنا في البيت رجلٌ لا تقول ملامحه سوى أنه أكثر الناس شرًا في هذا العالم.

(10)

يوسف

تساءل الطبيب سلطان حينما لاحظ علامات الذهول على وجهي ووجه رزان:

- هل هناك خطب ما بالصورة؟

قلت وأنا أنهض من مقعدي، محدقًا إلى صورة أمي:

- إنها صورة أمي!

احمرَّ وجه الرجل في الحال، وحدَّق إلى ملامحي كأنه يتحقق من وجود أي شبهٍ بيني وبينها. فتابعتُ مرتبكًا:

- لا يوجد شبه كبير بيننا، لكنني لن أخطئ في التعرف على أمي أبدًا.

فقال الرجل، وقد ظهرت رعشة خفيفة في يده:

- إنها ابنتي الوحيدة، اختفت قبل عشرين عامًا. وبحثتُ عنها في كل مكان حتى سلَّمتُ بأنها ماتت.

قالت رزان عندما جعلتني الصدمة أتوقف عن الكلام:

- إنها أم يوسف، سيدي. آخر الضيوف الذين أتوا إلى واحتنا، وكما قلت، قبل عشرين عامًا بالتمام والكمال.

فسألها الرجل على الفور مدهوشًا مما قالته:

- أي واحة؟!

قالت:

- واحة اليعقوب.

تعرق الرجل بوضوح وهو يسأل رزان عن مكان الواحة. فأخبرته بأننا لم نعد نعرف طريقها بعد، ثم أخذت تحكي له في إيجاز عن واحتنا وما يحدث فيها وعن الضيوف. بدت عليه الحيرة وعدم التصديق، وقال لرزان:

- لكن جفونكم ترمش بصورة عادية.

هنالك انتبهتُ إلى أن جفون رزان قد تحررت بالفعل دون أن ننتبه لذلك مع انشغالنا بتلوث جرح ساقها. نظرت لي رزان غير مصدقة وهي تتحسس جفونها، قبل أن تؤجل الحديث عن ذلك الأمر وتبدأ في إخبار الطبيب سلطان عن مهارة أمي في خلط الأعشاب وكيف ساعدت أهل الواحة في الحفاظ على ترطيب عيونهم. فنطق متوترًا وعيناه تلمعان بالدموع:

- كانت لينا ماهرةً فعلًا في صناعة الخلطات العشبية الطبية.

تسارعت دقات قلبي وأنا أسمع اسم أمي الذي وُلدت به للمرة الأولى. وبينما كانت رزان تكمل قصة مجيئنا إلى هذه البلدة، كنت أحدق إلى الرجل بتوترٍ شديد، ولا يدور في رأسي إلا شيء واحد؛ أن هذه البلدة التي أتينا إليها ولا نعرف عنها شيئًا ليست إلا معقل ضيوف الواحة.

***

بعد لحظات من الصمت المطبق بيننا، نهض الطبيب سلطان فجأة وقال:

- تعاليا معي.

ثم خرجنا وركبنا معه سيارته، وبارتباكٍ واضح قادنا إلى مكان مزدحم، كُتب على لافتةٍ مُعلقة على جانب الشارع المؤدي إليه «السوق القديمة»، حيث ترجلنا وتقدمنا خلفه إلى زقاقٍ تفرع من الشارع الرئيسي، ثم توقف عند حانوت ذي واجهة زجاجية، تُعرض خلفها أشياء كثيرة لم نميز منها إلا بعض الأسلحة مثل الرماح والسيوف. ودخل إليه وأخرج سلسلة رزان الذهبية، وسأل البائع هناك:

- أخبرني يا حليم، في أي بلد تُصنع مثل هذه القلائد؟

أخذ الرجل السلسلة وتفحصها بيده متعجبًا، ثم أمسك بعدسة مكبرة وبدأ يفحصها بتمعن بينما ننظر أنا ورزان إلى تعابير وجهه المدهوشة بوضوح. حتى انتهى فقال:

- لم أرَ شبيهًا للنقوش الموجودة على هذه القلادة من قبل، وكأنها قطعة أثرية.

احمرّ وجه الطبيب مجددًا ونظر إليّ قائلًا:

- أعطني الخنجر الذي في حوزتك.

أعطيته إياه في صمت، فقال للرجل وهو يناوله الخنجر:

- افحص هذا أيضًا.

فقلّب الرجل الخنجر في يده بالدهشة نفسها التي أبداها مع قلادة رزان، ثم فحصه بعدسة أكبر حجمًا وقال:

- تحفة نادرة، قطعة أثرية مائة في المائة، ليست من صنع هذا العصر.

ثم نظر إلينا وتابع:

- أستطيع أن أوفر لكم المقابل الذي ترونه مناسبًا إن كنتم ترغبون في بيعهما.

فقال الطبيب:

- شكرًا لك، سنعود إليك مرة أخرى.

ثم خرج بنا وكأنه بدأ يصدق أننا نخبره الحقيقةَ. وبعدما ركبنا السيارة مرة أخرى قال بأنفاسٍ عالية:

- حاول الكثير من النصابين استغلال فقداني لابنتي لربح الأموال مني طوال السنوات الماضية، لكنهم لم يمتلكوا قصة مكتملة مثل التي أخبرتماني بها. رغم أنني متيقن من عدم وجود عاصفة وقت اختفاء لينا.

وتابع بعدما صمت للحظة:

- ومع ذلك لا يتقبل عقلي أنكما اختلقتما ذلك اللقاء بي كي يكون مدخلكما إليَّ لتحدثاني عن الصورة. فجرح الفتاة كان ملوثًا بالفعل، ولو انتظرت دون علاج لفسدت ساقها وبُترت. لن يضحي أحد بساقه من أجل حفنة من المال.

انزعجت رزان من ذكره أمر بتر الساق، وقبل أن تنطق بشيء، قلت:

- لم نختلق شيئًا سيدي، لقد أخبرناك الحقيقةَ فحسب ولا نريد منك شيئًا. نحن فقط نبحث عن طريق نعود به إلى واحتنا بعدما اختفت الدوارة دون سبب نعرفه. انسَ أمر أمي، فهي لن تعود إلى هنا ما دامت لم تخترها حظيرة القبور.

سكت لبعض الوقت وكأنه يفكر في أمر ما، ثم قال وهو يشغِّل السيارة:

- هناك شيء أريدكما أن ترياه.

وقادنا إلى بيتٍ يقع على بعد بضعة شوارع، ودلف بنا إلى داخله. ففوجئت بصور أمي موجودة في كل مكان فيه تقريبًا؛ على الجدران، على الطاولات، على الأكواب. بعضها في سن الشباب، وبعضها في سن النشء، وبعضها في طفولتها. ثم طلب منا أن ننتظر ودخل إلى إحدى الغرف. فوقفت رزان أمام صورةٍ لأمي في سن الخامسة تقريبًا، وقالت:

- كأنها أختك ريم، ولكن بجفون مكتملة.

هززتُ رأسي موافقًا، ثم تفحصتُ جدران البيت بعيني، وتساءلتُ حائرًا:

- إن لم تكن هناك دوارة في هذا المكان وقت اختفاء أمي، فكيف وصلت إلى دوارة الواحة؟!

رفعت رزان كتفيها بالحيرة نفسها، وقالت وهي تنظر إلى صورة تجمع الطبيب سلطان في شبابه بأمي في طفولتها:

- لا أعتقد أن جدك لديه الإجابة أيضًا.

كان وقع الكلمة غريبًا عليّ بعدما عشت حياتي كلها دون أن أرى أي جد أو جدة لي. حتى بعدما خرج الطبيب ونادانا كي ندخل إلى الغرفة، حاولتُ أن أنطقها، لكني لم أستطع.

***

دخلتُ الغرفة أنا ورزان فوجدناها مرتبة نظيفة تفوح منها رائحة عطرة، وكأن ساكنها يحرص على ترتيبها يوميًا. ثم أشار الطبيب سلطان إلى السرير المرتب، والطاولة والمقعد الموضوعين بعناية في إحدى الزوايا، وأوعية البذور المرصوصة بدقة على الرفوف الجدارية، وقال:

- هذه هي غرفة لينا، لم يتغير بها شيء منذ رحلت. اعتادت زوجتي على تنظيفها وترتيبها بصورة يومية، وبعد وفاة زوجتي لم أفوّت يومًا دون أن ألتزم بتلك العادة.

تقدمتُ نحو الطاولة التي كانت عليها بعض الكتب ذات الورق الأصفر، ونظرتُ إلى السيد سلطان مستأذنًا كي أتصفحها، فأومأ برأسه موافقًا. وجدتُ أن الكتب الثلاثة الأولى تتحدث عن الأعشاب الطبية، بينما كان الكتابان الآخران مختلفين ويمتلئان بصور نساء تختلف هيئاتهن، أخبرنا السيد سلطان حينها أنهما مجلتان للأزياء كانت أمي تحب أحيانًا تصفحهما. أعدتهما مكانهما بحرص، ثم سألته مجددًا عما إذا كان يعرف شيئًا عن أحجار زمير أو الواحة القديمة. فأكد لنا أنه لم يسمع بتلك الأحجار أو الواحة من قبل، سواء في بلدته أو في البلدات الأخرى التي يذهب إليها عادةً لمداواة بعض مرضاه الذين لا يستطيعون القدوم إلى هذه البلدة. صمتنا في حيرة حتى نطق مجددًا:

- إن كانت لينا هي آخر ضيوف واحتكم، فذلك يعني أن هناك ضيوفًا قدموا إليها قبلها، أليس كذلك؟

قلت:

- بلى، لكنهم قدموا وغادروا قبل أن نُولد ولا نعرف عنهم شيئًا.

فقال:

- لكن المخفر لا بد أن لديه سجلًا بمن فُقدوا وعادوا خلال المدة التي سبقت اختفاء لينا.

لم نفهم ما يقصده بالمخفر، فقال:

- ستفهمان ما أقصده بعد قليل، هيا بنا.

وخرج بنا من جديد ليقود بنا سيارته هذه المرة إلى بناء كبير يقع على بعد شارعين من بيته. كانت أزياء الرجال الواقفين للحراسة أمامه موحدة، ويضعون قبعات متشابهة على رؤوسهم، مما جعلهم مختلفين في هيئتهم عن باقي رجال البلدة. ثم قال وهو يغادر السيارة:

- إنهم رجال الشرطة المسئولون عن حفظ الأمن في البلدة. انتظراني هنا ولا تتحدثا إلى أحد.

فانتظرنا حتى عاد إلينا بعد مرور ثلاث ساعات على الأقل، وفي يده حقيبة شفافة تحتوي على الكثير من الأوراق. ثم قادنا مرة أخرى إلى بيته، حيث جلسنا حول طاولة في وسط الردهة، وقال وهو يفتح الحقيبة:

- أعطاني أحد أصدقائي القدامى في المخفر هذه الأوراق عن الذين فُقدوا في البلدة خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة. أما من فُقدوا قبل ذلك، فلم نعثر على أي بيانات تخصهم بسبب قصور نظام تخزين السجلات في ذلك الوقت.

ثم أخرج الأوراق وقال وهو يرينا صورة لشاب:

- سهيل طارق، تغيب فجأة قبل ثلاثة وعشرين عامًا، وبعدما فقد أهله الأمل في عودته، عُثر عليه بعد عامين ميتًا أسفل أحد الجسور القريبة من البلدة. سجلت التحقيقات أن وفاته كانت حديثة قبل العثور عليه بساعات، ورجحت أن يكون سببها سكتة قلبية مفاجئة. لذا لم يعرف أحد أين اختفى خلال تلك المدة.

وبدأ يقرأ السطور المكتوبة أسفل صورته بشفاهٍ متحركة دونَ أن نسمعه، حتى توقف فجأة ونظر إلى عيني رزان. فسألته في ترقب:

- ما الأمر؟

قال:

- كُتب في تقرير الطب الشرعي هنا أن هناك آثار مادة صمغية كانت موجودة على جفنيه، لكنها غير سامة.

فقالت رزان:

- هنا يثبت أنه كان أحد ضيوف الواحة الذين نجوا وغادروها.

عاد الطبيب سلطان بعينيه مرة أخرى إلى الأوراق، وواصل القراءة دون أن يقول شيئًا، فسألتُه:

- هل هناك أي شيء عن حياته قبل اختفائه؟

قال:

- جميعها معلومات تقليدية لا تفيد بشيء.

ثم نحى الورقة جانبًا لتظهر صورة شخص آخر اختفى قبل خمسة عشر عامًا. فقلت:

- لا، لم يذهب هذا الشخص إلى الواحة. لم يأتِ إلينا ضيوف بعد أمي.

فنحى ورقته في الحال، فظهرتْ صورة أمي. اضطرب وجه الطبيب سلطان ونحى أوراقها جانبًا برفق، لتظهر صورة رجل آخر، قال الطبيب وهو يتفحص السطور المكتوبة أسفلها:

- السيد مؤيد الخطيب، اختفى قبل ثلاثين عامًا، ثم عاد إلى البلدة ناسيًا كل شيء يتعلق بتلك المدة.

سألته رزان على الفور:

- هل مات أيضًا؟

قال:

- لا، لم يُذكر هنا العثور عليه ميتًا، لكنه إن كان على قيد الحياة فسيكون قد تجاوز السبعين من عمره.

ثم أمسك بالقلم وأحاط سطرين من السطور المكتوبة في الورقة بدائرة، ثم طوى تلك الورقة ووضعها جانبًا. ثم ظهرت أمامنا ورقة فيها صور السجناء الأربعة الذين عُلقت صورهم بالشوارع في ذلك الصباح، فقال:

- وهؤلاء أحدث مَن فُقدوا، اختفوا من سيارة الشرطة في عاصفة الأيام الماضية، ولم يُعثر على أي أثرٍ لهم حتى الآن.

حينذاك انتبهتُ أنا ورزان أن عددهم أربعة مثل عددنا كمنقبين، ودون أن تنطق، نظرت إليّ رزان كأنها تسألني: هل يعقل؟!

فنظرت لها حائرًا. فسألنا الطبيب:

- ما الأمر؟

فقلت:

- إن كان هؤلاء الأربعة قد ذهبوا إلى الواحة، فقد يعني ذلك أننا لن نستطيع العودة إلى هناك، وهذا قد يفسر عدم قدرتنا على العثور على الدوارة.

تساءلت رزان في تشكك:

- هل هذا يعني أننا نجونا؟!

أجبت:

- لا أعرف. لكن ما الذي قد يقدمه أربعة من السجناء للواحة؟

لاذت بصمتها، حتى قال السيد سلطان:

- أخبرتموني أن كل ضيف يذهب إلى واحتكم يتم اختياره بعناية من قبل حظيرة القبور، أليس كذلك؟

قلت:

- بلى.

فقال وهو ينظر إلى الصور المبعثرة على الطاولة أمامنا:

- هذا يعني أنه قد يكون هناك شيء مشترك بينهم، وقد يكون ذا صلة بتلك الحظيرة.

هززتُ رأسي شاردًا متفقًا معه وأنا أمعن النظر في الصور، فتنهد وقال:

- حسنًا، لدينا خيطٌ واحد الآن، أتمنى أن يقودنا إلى خيوط أخرى تفهمنا ما يحدث.

وفرد الورقة التي طواها، ثم وضع إصبعه على الدائرة التي رسمها حول السطرين:

- هذا هو عنوان السيد مؤيد الخطيب الذي عاد إلى البلدة فاقدًا ذاكرته، سيكون طرف الخيط الذي نبدأ من عنده.

وأردف بعدما نظر إلى رزان التي بدأ ألم ساقها يداهمها من جديد:

- لنرتاح الآن وغدًا نذهب إلى ذلك العنوان.

ثم تابع باسمًا:

- يمكنكما البقاء في هذا المنزل، هناك ثلاث غرف خالية يمكن لكل واحد منكما اختيار الغرفة التي يريدها، لكن لا تقربا غرفة لينا في غيابي.

***

بعدما دخل الطبيب سلطان إلى غرفته، ودخلت رزان إلى غرفة اختارتها، بقيتُ في الردهة بمفردي، واضعًا رأسي بين كفي مستندًا إلى

الطاولة، ومحدقًا إلى الصور المبعثرة عليها. ثم جال في ذهني ما حدث في الواحة القديمة، عندما أمر الساحر شيخون بإلقاء الأربعين طفلًا أمام أعين الجد يعقوب المُثبت على حافة البئر، إذ لم يتحمل يعقوب رؤية ما يحدث وأغلق عينيه، فأمر شيخون تابعيه بقطع جفونه كي يرى المشهد رغمًا عنه، فتساقطت دماؤه إلى البئر. ولسبب غير معروف، أدى امتزاج تلك الدماء بماء البئر إلى ثورة جميع أرواح الأطفال الذين قُدموا كقرابين إلى نبتة البئر منذ أعلن شيخون عن منامه. لتصعد تلك الأرواح من أعماق البئر وتهاجم بشراسة كل من ترمش جفونه. غير أنها سرعان ما انقسمت إلى فريقين؛ فريق كبير أراد الانتقام من جميع البشر بلا هوادة، وفريق آخر صغير رأى أن هناك من يستحق الحياة، مثل الجد يعقوب وكل من يحمل دمه، ودافع عنهم بكل قوة.

في خضم هذا الانقسام، استطاع الجد يعقوب ونسله الفرار بما يستطيعون حمله من مؤن وحيوانات وطيور، إلى أرضٍ مجاورة يسكنها الجن. وهناك، أقاموا طقوسًا في حظيرة القبور مستخدمين دم يعقوب، فقبلت الأرض حمايتهم، ونشأت الدوارة لتمنع عنهم أطفال البئر.

بعد ذلك، شيَّد يعقوب وأبناؤه بيوتًا كثيرة، وزيَّنوا أسوارها برموز حماية تستمد قوتها من تعاويذ نُقشت بدماء يعقوب على جدران حظيرة القبور. هذه التعاويذ جعلت جن هذه الأرض يحرسون سكان تلك البيوت طالما حفروا قبورهم في الحظيرة، وقطَّروا فيها من دمائهم، وصبغوا أضلاع النجوم المنقوشة بين رموز الحماية.

كان هذا الإجراء تحسبًا لاختراق أطفال البئر للدوارة. وبالفعل، لم تمضِ فترة طويلة حتى تحقق هذا الخوف، إذ تمكنت أشباح أطفال البئر، الراغبة في الانتقام من كل البشر، من اجتياز الدوارة وهاجمت كل

أعواد الأعشاب الجافة لتثبيت جفونهم في أثناء وجودهم خارج البيوت، رغم الألم الشديد الذي كانت تسببه تلك الأعواد، باستثناء الجد يعقوب الذي كان يتحرك في أي مكان بجفونه المقطوعة.

الغريب في الأمر أنه بعد عقود، صار الأطفال يُولدون بلا جفون. ظن الناس في البداية أنها لعنة حلت بالنساء، لكن مع الوقت أدركوا أنها نعمة حمت أطفال الواحة من أطفال البئر خلال السنوات العشر الأولى من حياتهم.

ثم فكرت فيما حدثني به أبي قديمًا وكيف أن الجد يعقوب أدرك أهمية دمائه لنسله، لذا عندما داهمه المرض ورأى أنه على بعد خطوات من الموت، علّق بعنقه قربة كبيرة بها سائل يمنع تجلط الدماء، ثم شق عنقه بخنجرٍ، لينهض أولاده ويجدونه قد فارق الحياة وقد جُمعت دماؤه في تلك القربة، فقسموها فيما بينهم إلى قنانٍ صغيرة توارثها سكان الواحة جيلًا بعد جيل مثلما توارثوا الأساطير التي تحكي عما قد تفعله تلك الدماء. نفدت تلك القناني جميعها قبل سنوات طويلة باستثناء تلك القنينة التي أعطاها لي أبي وفقدتها في البلدة.

بعدئذٍ بدأ النعاس يداهمني، فوضعتُ رأسي على الطاولة وأغمضت جفوني، ولم أستيقظ إلا مع حلول الصباح عندما أيقظني الطبيب سلطان. ثم سألتني رزان التي استغربت من بقائي في الردهة:

- هل وصلت إلى شيء؟

أومأت برأسي نافيًا وأنا أتثاءب. فقال السيد سلطان الذي بدا عليه النشاط:

- سنذهب الآن إلى عنوان السيد مؤيد الخطيب، لعلنا نجده على قيد الحياة.

وتابع وهو ينظر إلى رزان:

- ابقِ أنتِ هنا، فجرحك يحتاج إلى راحة.

بعد لحظات من التفكير، وافقت رزان. بعدها خرجتُ مع السيد سلطان متجهين إلى ذلك العنوان. وعندما وصلنا إلى البيت المقصود وطرقنا بابه، فتحت لنا امرأة عجوز كانت تعرف الطبيب سلطان، لذا تعجبت من وجوده أمامها في ذلك الوقت المبكر، لكنها سرعان ما رحبت به ترحيبًا كبيرًا. شعرتُ أنه لا يعرفها ولكنه هز رأسه مجاملًا لها، وقال:

- أريد أن أقابل السيد مؤيد.

زاد تعجب المرأة وقالت:

- لقد مات منذ ست سنوات!

فاعتذر لها محرجًا، ثم سألها أن يستفسر منها عن بعض الأمور التي تخص زوجها الراحل. فرحبت بنا وأدخلتنا إلى ردهة البيت، فسألها مباشرة:

- هل حدثك زوجك عن المدة التي تغيَّب فيها؟

هزت رأسها نافية، وقالت وهي تتذكر:

- عثرنا عليه في مستشفى، وكان هناك الكثير من الجروح في جسده. أخبرنا الأطباء وقتها أنهم لا يعرفون ماذا حدث له، لذلك رجحوا أنه تعرض لحادث كبير تسبب في تلك الجروح وجعله لا يتذكر ذلك الجزء من حياته.

ثم نظرت إلى صورة مُعلقة لزوجها على الحائط، وأردفت:

- ظل ناسيًا كل شيء يتعلق بتلك المدة التي غابها حتى وفاته، لكنني لم أهتم لأنه كان يتذكر كل شيء عن حياته قبل وبعد تلك المدة.

سألتها:

- هل شعرتِ قبل اختفائه بأي تغيرات في حياته؟

قالت:

- لا أتذكر، لقد مر وقت طويل على تلك الحادثة.

توقعت أن السيد سلطان سيجعلنا نغادر بعدما لم نحصل على معلومة مفيدة، لكنه قال لها:

- هل تَحتفظين بمتعلقاته حتى الآن؟

ابتسمت وقالت بعينين تلمعان بالدموع:

- بالطبع.

فسألها:

- هل يمكننا رؤيتها؟

تعجبت المرأة، فتابع السيد سلطان:

- لقد اختفت ابنتي هي الأخرى منذ سنوات طويلة في ظروف غامضة، مثل زوجك، وما زلت متمسكًا بالأمل في عودتها.

بدا على وجهها الأسف، ثم أومأت برأسها موافقة. وقادتنا إلى غرفة بالطابق العلوي في المنزل، حيث وجدنا مكتبة كبيرة تحتوي على الكثير من الكتب. وعلى الجدران عُلقت صور كثيرة للرجل في مختلف مراحل حياته، يغطي الغبار أغلبها. حاولتُ التركيز في تفاصيل كل صورة، لكنني، احترامًا للمرأة، لم أقترب من الصور. وبعدما ألقينا نظرة سريعة على عناوين الكتب المرصوصة على رفوف المكتبة، ولم نجد شيئًا غير مألوف، خرجنا عائدين إلى بيت الطبيب سلطان خائبي الأمل، لنخبر رزان بأن الخيط الوحيد الذي كنا نأمل في التعلق به قد انقطع. ثم جلس الطبيب سلطان أمام ما عرفنا حينها أنه التلفاز، وأخذ يشاهد امرأة تسرد أخبار البلدة، ومنها خبر استمرار هروب السجناء الأربعة

بينما تُعرض صور مختلفة لهم. وقتها سيطرت عليّ أنا ورزان حالة من الذهول والدهشة من ذلك الشيء العجيب الذي يعرض صورًا ثابتة ومتحركة للأشخاص، حتى صاحت رزان فجأة عندما عُرضت صورة أحد السجناء:

- هذا الوشم على صدره!

نظرنا إليها مستفهمين، فقالت بعد أن اختفت الصورة من الشاشة وظهرت المذيعة مجددًا، مشيرةً إلى صورة أحد السجناء الأربعة على الطاولة:

- هذا السجين ظهر عاري الصدر في إحدى الصور على التلفاز، وهناك وشم على صدره يشبه نقشًا مرسومًا باليد في مجلة في غرفة أمك.

ثم أضافت وهي تنظر إلى الطبيب سلطان:

- أعتذر عن اقتحام غرفة ابنتك في غيابك، لكن الفضول دفعني إلى تصفح مجلتي الأزياء النسائية هناك.

وتابعت وهي تنظر من جديد نحو صورة السجين:

-. في إحدى المجلتين، توجد نجمة ثمانية الرؤوس جميع أضلاعها مرسومة باللون الأسود، باستثناء ضلعين طويلين باللون الأحمر، يتجاوز طولهما خمسة أضعاف بقية الأضلاع. تلك النجمة تشبه الوشم الذي رأيته على صدر ذلك السجين.

دخلنا على الفور إلى غرفة أمي، حيث أرَتْنا رزان النجمة التي تقصدها. ارتبك الطبيب سلطان وكأنه يرى تلك النقشة للمرة الأولى. ثم جلسنا أمام التلفاز في انتظار إعادة سرد الأخبار، بعدما أخبرنا أنها تُعاد كل ساعتين. وحالما عُرضت الصورة التي يظهر فيها السجين

عاري الصدر، أوقف السيد سلطان الصورة عن طريق جهاز التحكم عن بعد، لنتأكد فعلًا أن الوشم المرسوم على صدره هو نفسه النجمة الثمانية المنقوشة في مجلة أمي، بضلعيها الأحمرين الأطول من بقية الأضلاع. حينها ساد الصمت بيننا، حتى نطق السيد سلطان:

- ربما تكون صدفةً لا أكثر؟

لم ينطق أي منا حتى تحدث من جديد:

- لنعد إلى بيت السيد مؤيد الآن.

عدنا إلى أرملة الرجل مرة أخرى ومعنا رزان في تلك المرة. وقبل أي دهشةٍ من السيدة، أخرج الطبيب سلطان النقشة المرسومة في مجلة الأزياء، وسألها:

- هل لاحظتِ وجود هذه النجمة في أي شيء يخص زوجك؟

دققت النظر فيها ثم هزت رأسها نافية. فسألها إن كان يمكننا العودة إلى غرفته مرة أخرى، فوافقت على مضض هذه المرة. ثم بدأنا، أنا ورزان نبحث في الغرفة عن أي نقشة تشبه تلك النجمة، وأخذنا نتصفح الكتب سريعًا بأعيننا، علّنا نعثر في أي صفحة منها على دليلٍ يؤكد ارتباط هذه النجمة بالضيوف. ظهرت علامات الضيق على وجه المرأة من الفوضى التي أحدثناها، لكن الطبيب سلطان وعدها بأننا سنعيد كل شيء مرتبًا كما كان. لنواصل البحث بين الكتب، حتى انتهينا منها جميعًا بعد خمس ساعات تقريبًا، دون أن نعثر على شيء، فبدأنا في إعادتها إلى رفوف المكتبة، وتأكيدًا منا على حسن نيتنا، أمسكت رزان بقطعة قماش وأخذت تنظف الغبار المغطي للصور المعلقة على الحائط، بينما أرتب الجزء الأخير من الكتب. فيما جلس الطبيب سلطان على مقعد جانبي في انتظار انتهائنا، وبجواره أرملة السيد مؤيد.

كان الحبل الرفيع الذي يعلق إطار الصورة الأخيرة على الحائط مهترئًا، وحالما أمسكت به رزان، انقطع في يدها وسقطت الصورة على الأرض، ليتهشم الزجاج الذي يغلفها ويتناثر في كل مكان على أرضية الغرفة. اعتذرت رزان في ارتباك وهي تحاول التقاط قطع الزجاج المتناثرة. وظهر الخجل واضحًا على وجه الطبيب سلطان وحاول تقديم اعتذاره هو الآخر، لكن السيدة لم تشغل بالها باعتذارهما، بل نهضت من مقعدها مستغربة ومتفاجئة من ظهور باب خزانة صغيرة في الحائط خلف إطار الصورة التي سقطت، وكأنها تراه للمرة الأولى. وتحركت نحو الحائط تتحسس ذلك الباب بيدها. حينها شعرتُ في داخلي أن هناك سرًّا داخل تلك الخزانة يتعلق بما نبحث عنه. وبعدما لم تنجح السيدة في فتح ذلك الباب المغلق، أخرجتُ خنجري وغرزتُ سنه في الفراغ الصغير أسفله وفتحته.

مدت السيدة يدها داخل الخزانة الصغيرة، وأخرجت في استغرابٍ شديد ورقة قديمة مطوية، عندما فتحتها أمامنا، وجدنا مرسومًا فيها نجمة ثمانية الرؤوس، بها ضلعان طويلان مصبوغان بدماء جافة، بينما رُسمت الأضلاع القصيرة الأخرى بلون أسود رفيع. وأسفلها كُتب بخطٍ باهت أوشك على الاختفاء:

- نجمة شيخون!

(11)

عبير

منذ أن اختار سور بيتنا عمران، ولم يعد شيء كما كان. فليس هناك
أسوأ من أن تكون حرًا في بيتك، تتحرك كما تشاء وتلبس كما تشاء، ثم
تجد نفسك فجأة مجبرًا على الاحتشام في كل لحظة خارج غرفتك، حتى
لو كان الأمر مجرد ذهاب إلى الردهة أو المرحاض. قلتُ لأبي بضيقٍ بعد
مرور أسبوع واحد فقط من قدوم عمران إلى بيتنا واتخاذه غرفة يوسف
سكنًا له:

- لم أعد أطيق وجود هذا الضيف في بيتنا.

قال:

- لقد اختاره حراس البيت وعلينا أن نلتزمَ القواعدَ. إن رفضنا بقاءه
في البيتِ قد يتخلى عنا حراسنا. سيظل في بيتنا إلى أن يغادر أو
يسقط سورنا.

ثم أضاف وهو ينظر إلى أمي:

- سنوفر له الطعام والشراب والصمغ ومرطب العيون لشهرين
كاملين ككرم للضيافة، بعدها عليه أن يوفر مخزونه من مقومات
المعيشة بنفسه.

أومأت أمي برأسها إيجابًا في شرود، ودون أن تتكلم، بدت وكأنها تشاركني الشعور نفسه تجاه ذلك الغريب وحياتنا الجديدة بعد قدومه إلينا.

في تلك الأيام، اعتاد أبي أن يجلس مع عمران كثيرًا، كي يحكي له قصصًا عن تاريخ الواحة وما حدث مؤخرًا من سقوط أسوار البيوت. ولأن عمران لم يكن يتذكر شيئًا عن حياته السابقة، أعلن لأبي صراحةً أنه لا يعرف شيئًا عن طرق البناء أو تقوية الجدران. كما أنه لا يصدق أنه أتى إلى هذا المكان الغريب من أجل شيء كهذا. ثم بدأ يتململ من البقاء في البيت، فصار يخرج لفترات طويلة في الصباح ويعود في أوقات متأخرة من الليل. الأمر الذي وضعنا في ضائقة بعض الشيء مع استهلاكه كميات كبيرة جدًّا من الصمغ ومرطب الأعشاب، خاصةً مع أخذه كميات احتياطية تبقيه آمنًا في أثناء وجوده خارج البيت طوال هذه المدة.

التقيت بسيف، الضيف الثاني، ذات مرة صدفة في السوق. ابتسم لي وكأنه تذكر التقاء أعيننا عندما كان يحاول صبغ نجمة بيتنا. ودون مقدمات، اقترب مني وقال:

- اختارني بيت السيد عقيل، الرجل الذي غادرت ابنته للتنقيب.

فقلت بابتسامة:

- إنهم أسرة طيبة، هنيئًا لك بضيافتهم.

ثم غادرتُ، وأنا أحسد في داخلي أسرة السيد عقيل على اختيار بيتهم لذلك الضيف.

في مساء ذلك اليوم، انهار سور البيت الذي سكنه الضيف الثالث، هاشم، وقد كان في داخله غير مثبت الجفون، فانقض عليه أطفال البئر بلا رحمة، ليخرج مترنحًا من البيت وهو يصرخ، بينما تتفجر الدماء من

جروح جسده العميقة، وواصل التقدم بضع خطوات قبل أن يسقط أمام البيت، حيث استمر أطفال البئر في نهش جسده.

الغريب في الأمر أن أحد الأهالي الذين شاهدوا ذلك الضيف وهو يُنهش، عثر على لفافة ورقية بحجم جزرة صغيرة، مُغلفة بغطاء من مادة شفافة لا نعرفها، داخل جزء من أمعاء الرجل، بعدما ترك أطفال البئر ذلك الجزء الصغير من الأمعاء دون أن يلتهموه مثل باقي أجزاء الجسم. عرفتُ من أبي أن سيف وعمران اتفقا على أن هذا الغطاء الذي أحاط اللفافة يُسمى كيسًا بلاستيكيًا. والمثير أن تلك اللفافة كانت عبارة عن ورقة منقوش عليها نجمة ثمانية الرؤوس.

فكرنا في أن تكون تلك النقشة تعويذة ما، اعتقد الرجل أنها قد تحميه من أي شر، فابتلعها وأبقاها في أمعائه لذلك الغرض. لكن ما حدث أن عمران أخبر الحكماء أن لديه نفس الرسمة كوشمٍ على الجانب الأيسر من صدره، دون أن يعرف أي دلالة لها أو يتذكر متى وكيف نُقشت عليه.

تذكرتُ حينها وشم صدر عمران الذي كان يغطيه الوحل عندما أتي إلى بيتنا، وسألت أبي:

- هل تشبه تلك النجمة أي رمز في الواحة؟

قال:

- لا، لم نرَ مثلها من قبل. كما أن سيف لا يمتلك شيئًا به ذلك النقش ولا يعتقد أنه قام بنفس ما فعله هاشم.

ثم أردف:

- وأمك أيضًا جاءت إلى الواحة دون أي وشم أو أوراق تحتوي على ذلك النقش.

ثم صمت للحظات وتابع:

- ربما يكون شيئًا ذا أهمية في العالم الذي جاؤوا منه. على أي حال، لقد احتفظنا بالورقة التي تحتوي على تلك النجمة لعلها تفيدنا مستقبلًا.

***

بعد ذلك اليوم، مرت الأيام دون أن يقدم الضيفان أي إضافة تُذكر للواحة. بل على العكس، زاد معدل انهيار أسوار البيوت. وفي غضون أسبوع واحد فقط، فقدنا أربع عشرة أسرة بعد أن سقطت أسوار بيوتهم ليلًا في أثناء نومهم. توقعتُ أن يثير ذلك شيئًا في نفس عمران، لكنه بدا وكأنه لا يكترث بالأمر، بل وقلَّل من خروجه من البيت، مما زاد من وجوده بيننا حتى وإن كان أبي في الخارج.

الأمر الذي بدأ يقلقني بشكل متزايد هو نظراته المريبة لي وأحيانًا لأمي، نظرات طغت عليها شهوة الرجال. لم أعرف ما إذا كانت أمي أو أبي قد لاحظا ذلك، لكنني كنت أرى بوضوح تلك النظرات مع مراقبتي الدائمة لعينيه الحادتين. أعرف كثيرًا عن عالم الحيوان وأدرك أن وجود ذكرين في المكان نفسه سينتهي في نهاية الأمر برغبة أحدهما في الاستيلاء على المملكة بأكملها لنفسه. ومع شعوري بعدم وجود رغبة حقيقية لدى عمران في العودة إلى عالمه السابق، تزايد إحساسي بأن الصراع بينه وبين أبي على تملك زمام الأمور في بيتنا قادم لا محالة.

فكرت في إخبار أمي أو أبي ما يثير قلقي، لكنني تراجعت خوفًا من ألا يصدقاني أو يتهماني بالتآمر عليه، خاصةً أنني أعربت لهما أكثر من مرة عن ضيقي الشديد من وجوده في بيتنا. وقررت مواصلة مراقبته في صمت في انتظار حصولي على دليل قاطع يدينه.

ذات مرة، التقت أعيننا بعدما ألقى نظرة شهوانية على أمي في أثناء مرورها في الردهة. توقعتُ أن يشعر بالخجل من فعلته القذرة، لكنه أطلق ضحكة سمجة وغادر إلى الخارج. وعندما عاد، كرر الأمر معي بلا اكتراث. في تلك الليلة، ذهبتُ إلى غرفة الاتصال في قبو بيتنا وأخذتُ أبوح لإحدى الفتحات، وأنا أبكي، بما أحمله في صدري تجاه تلك الرجل. كنت أعلم أن كلماتي تضيع في الهواء مثلما اعتاد يوسف أن يفعل. غير أنني بعد انتهائي من مسح دموعي، سمعتُ صوت خطوات خارج الغرفة. دق قلبي خوفًا، وأنا أعلم أن أبي وأمي نائمان في ذلك التوقيت. ونهضت من جلستي واستدرت محدقة إلى الباب بأنفاس متسارعة. فجأة، فُتح الباب مطلقًا صريره العالي، ووجدت عمران أمامي.

سألته على الفور في فزع شديد وأنا أحدق إلى عينيه اللتين تلمعان شرًا:

- ماذا تفعل هنا؟

قال ببرود وكأنه لم يتفاجأ من وجودي في الغرفة:

- أصابني الأرق، فآثرت أن أتفقد زوايا بيتي الجديد. وسمعت همساتك هنا، ففكرت أن تكوني في حاجة إلى رفقة.

ثم نظر بدهشة كبيرة نحو فتحات الجدار، وسألني:

- ما هذه الغرفة؟!

وقفتُ في مواجهته رغم رعبي الداخلي الشديد منه وقلت:

- لا شأن لك بها، إنها تخص أسرتنا.

أزاحني بذراعه جانبًا، وتقدم نحو الفتحات ووقف أمامها متأملًا. ثم أخذ يزيل أغطيتها الفخارية وحالة الدهشة الشديدة لا تزال مسيطرة عليه. أما أنا، فتراجعت لأقف على بعد خطوات منه، وعيناي تتفحصان

أرضية الغرفة بحثًا عن أي شيء أدافع به عن نفسي إن فكر في إيذائي.
ثم تعجبت من دهشته المبالغ فيها ووقوفه متجمدًا أمام الفتحات، فقلت:

- إنها إحدى غرف الاتصال الموجودة في الواحة، لكنها لا تعمل منذ زمن بعيد.

فعاد ليقتلع الأغطية الفخارية دون أن يقول شيئًا، حتى توقف من جديد وهمس إلى نفسه مذهولًا بصوت مسموع:

- إنني أتذكر هذا المكان، لقد رأيته من قبل.

***

بعدما كنت أفكر في الهروب وإغلاق الباب من الخارج لأحتجز عمران داخل الغرفة، تقدمت ببطء نحوه وأنا أراقب تعابير وجهه بحذر. كانت عيناه تتسعان بشكل غير طبيعي وهو يواصل نظراته إلى الفتحات الجدارية. ثم مد يده داخل إحداها وأغمض عينيه كأنه يستعيد ذكريات قديمة. فسألته محاولةً كبح ارتجاف صوتي:

- هل تتذكر شيئًا؟

لم يجبني، وإنما أخرج يده من الفتحة وعيناه مغمضتان، ثم تحسس الفتحات المجاورة لها من جديد قبل أن يفتح عينيه وينظر إليّ في حيرة، ويقول:

- هذا المكان كان له دور في حياتي السابقة، لا أعرف ما هو، لكنني أرى صورًا مشوشة في ذهني لا أستطيع استجماع تفاصيلها.

فقلت بعدما شعرت بشيء من الصدق في نبرة صوته:

- يجب أن تخبر أبي ما تتذكره، قد يكون لهذا المكان أهمية أكبر مما نعتقد.

هز رأسه إيجابًا في شرود وكأنه لا يزال في حالة استغراقه الذهني ثم شعرتُ أنه يود مغادرة الغرفة، فأفسحت له الطريق. لكنه ما إن اقترب من الباب حتى توقف فجأة والتفت نحو إحدى الفتحات في منتصف الجدار. ثم عاد إليها وفتح غطاءها الفخاري بعناية، فوثب قلبي داخل صدري عندما سمعت صوت همسات خافتة تخرج من تلك الفتحة، وكأن هناك من يتحدث في الجانب الآخر.

نظرت إليه مرتعبة، وأنا أتحقق بعيني من أنه ليس مصدر تلك الهمسات وأنه لا يحاول إخافتي. ثم تأكدت من أن الهمسات تنبعث فعلًا من داخل الفتحة، فسألته بصوت مرتعش:

- ما هذا الصوت ومن أين يأتي؟

نظر إليّ بعينين تلمعان بالقلق وقال:

- لا أعرف، لكن مشهدًا مفاجئًا ومض في رأسي، كنت فيه أفتح هذه الفتحة.

انحنيت قليلًا وألقيت نظرة متفحصة داخل الفتحة، لكنني لم أتمكن من رؤية شيء سوى الظلام. غير أن الهمسات استمرت في ترددها بوضوح. فجأة، انقطعت الأصوات وعاد الصمت ليخيم على المكان. فقلت والرعب يجتاح كل أجزاء جسدي:

- سأذهب لإخبار أبي الأمرَ.

ثم تركته واندفعت إلى الخارج، وصعدت السلالم ركضًا نحو غرفة أبي وأمي.

***

في دهشة كبرى، فتح أبي باب غرفته بعدما واصلت طرقاتي في ارتباك شديد، وسألني في قلق بالغ:

- ما الأمر؟!

كانت أمي تنظر نحوي برعب، تتحسس جفونها وكأنها ظنت أن سور بيتنا قد سقط. فقلت لهما وأنا ألهث:

- هناك شيء غريب يحدث في غرفة الاتصال.

نظرا نحوي مستغربين ومستفهمين، فأردفتُ وأنا أحاول التقاط أنفاسي:

- عمران هناك في الأسفل، وهناك همسات تأتي عبر إحدى الفتحات الجدارية.

اندفع أبي خلفي نحو القبو دون أن ينطق بكلمة، بينما نهضت أمي لترتدي ثيابًا محتشمة وتلحق بنا. فوجدنا عمران لا يزال واقفًا أمام الفتحة، مستغرقًا في التفكير، وقد خلع سترته العلوية وصار عاري الصدر. سأله أبي بنبرة تجمع بين الاستفسار والقلق:

- ماذا يحدث هنا؟

أجاب عمران دون أن يلتفت إليه:

- هذا المكان يريد أن يخبرني شيئًا ما.

عندما التفت نحونا مع وصول أمي إلى الغرفة، لاحظتُ أن صدره مجروح وينزف من الضلعين الطويلين في النجمة الثمانية الموشومة عليه. وكانت هناك آثار دماء على أحد أغطية الفتحات، فأدركت أنه جرح نفسه عمدًا باستخدام ذلك الغطاء. ثم بدأ يصبغ إصبعه بدمائه ويضع تلك الدماء بعناية على حواف بعض الفتحات الجدارية، وكأنه يتبع نمطًا محددًا. وعندما نفدت الدماء، عاد ليغمس إصبعه في الجرح على صدره ويواصل صبغ الفتحات. تدريجيًا، اتضح لي أنه يصبغ الفتحات بنمط

يشبه النجمة المرسومة على صدره، وفي مركز النجمة كانت الفتحة التي صدرت منها الهمسات.

ثم انتهى من صبغ حواف الفتحات، فوقف ساكنًا وهو يحدق إليها. فجأة، انبعث ضوء فيروزي من داخل الفتحات المصبوغة، كأنه ضوء حجر زمير الذي لطالما سمعنا عنه. ووسط ذهولنا، تسللت خيوط الضوء الفيروزي عبر الفتحات مثل شرايين تنبض بالحياة، لتتجمع في وسط الجدار وتبرز شكل النجمة. فخفق قلبي بعنف من الرعب، وأمسكتُ بيد أمي التي كانت ترتجف بدورها.

في تلك اللحظة، اهتزت الأرض تحت أقدامنا ببطء، وبدأت الفتحات التي شكلت النجمة الثمانية تتزحزح إلى الخلف بسلاسة، لتفتح بابًا بنفس الشكل في وسط الجدار. من هذا الباب، انحدر نفق ضيق، يمتد إلى أعماق الأرض، وينبعث منه هواء بارد، كأنه أنفاس قديمة لكائن غامض يستيقظ من سباته الطويل، وقبل أن نلتقط أنفاسنا من الدهشة والرعب أو نفهم ما يحدث، سمعنا صوت حطام قوي يأتي من الخارج، اختفت معه ظلالنا الحارسة. حينذاك، نظرنا إلى بعضنا بعضًا في صدمة وفزع شديدين بعدما أدركنا أن الصوت الذي سمعناه كان صوت انهيار سور بيتنا.

(12)

بعدما أدركنا أن سور بيتنا قد انهار، لم يكن هناك وقت لنستغرقه في الدهشة أو الصدمة. صرخ أبي في الحال:

- ثبتوا جفونكم!

ثبتنا جفوننا بأيدينا، ومعنا عمران الذي شحب وجهه من الخوف مع اختفاء ظله الحارس. كان لدى أبي القدرة على أن يثبت جفونه للحظات دون استخدام يديه، وفي تلك اللحظات أخرج من أسفل حزام بنطاله كيسًا قماشيًا صغيرًا يحتوي على أعواد تثبيت الجفون الطارئة. كانت هذه الأعواد عشبية رفيعة للغاية ذات طرفين مدببين، وطولها يقترب من عقلة الإصبع. لم تكن تفارق أبي منذ بدء سقوط الأسوار، ولطالما نصحني أنا وأمي ويوسف -قبل رحيله- بألا تفارق ثيابنا داخل البيت أو خارجه. فتح الكيس في الحال وأخرج عودين ثبت بهما جفون عينيه، ثم أخرج عودين آخرين وثبت جفون أمي، ثم فعل الأمر نفسه معي. صرخت من الألم الذي سببته تلك الأعواد وهي توخز جفوني بحدة، لكني رغم شدة ذلك الألم والنزيف الذي نتج عن الجرح الذي أحدثته تلك الأعواد، كنت أدرك أنها الحل الوحيد للنجاة في تلك الحالة الطارئة. أطلق عمران صرخة عالية من الألم أيضًا حين قام أبي بتثبيت جفونه بالأعواد، فقال له أبي بثبات:

- الألم الذي تسببه هذه الأعواد هو ما يمنع حركة الجفون، فقط اهدأ وتذكر أن أطفال البئر يحومون حولنا الآن.

فصمت وتجمد في موضعه حتى انتهى أبي من تثبيت جفونه.

في تلك الأثناء، أسرعت أمي إلى الأعلى وعادت إلينا بأربع زجاجات من الصمغ، ومثلها من مرطب العيون، وكيسين من أعواد الطوارئ لي ولعمران. كما أحضرت على كتفها ريم التي كانت لا تزال نائمة. ثبتنا جفوننا بالصمغ وتأكدنا من صلابته، ثم أزلنا أعواد الطوارئ في ألم لا يقل عن المرة التي ثُبتت فيها. بعدها وضعتُ كيس أعوادي في جيب فستاني، وعقلي يفكر في أنني سأستخدمها كثيرًا في الأيام القادمة رغم ما تسببه من ألم شديد، هذا إن كنت سأمتلك أيامًا أصلًا، فالمصير صار معروفًا للأسف مع اختفاء حراسنا.

بعد ذلك، نظر أبي إلى عمران وقال:

- لقد أحضرتك حظيرة القبور إلينا كي تجد لنا حلًا نستطيع به تقوية الجدران. أما الآن، وبعد سقوط سور هذا البيت، فقد صار مصيرنا واحدًا، فإما أن نجد حلًا نعيد به بناء هذا السور، فننجو جميعًا، وإما نموت جميعًا وربما تكون أنت أولنا.

قال عمران وهو يشعر بحجم المصيبة التي أصابتنا:

- علينا أن نهبط إلى النفق لنرى ما يوجد فيه.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا. فإذا كان سطح الأرض الذي نعرفه يحتوي على أطفال البئر، فماذا عن باطنها؟ ثم ساد الصمت للحظاتٍ ظننتُ فيها أن أمي سترفض الأمر وتقرر بقائي أنا وريم معها في الأعلى ونزول عمران بمفرده، أو ربما تقترح أن يجازف أبي من أجلنا بنزوله مع عمران. لكنها فاجأتني وقالت وهي تنظر إلى باب النفق:

- لم يعد هنالك سوى هذا الطريق، لعل عمران يتذكر شيئًا هناك، ولعلي أتذكر شيئًا أنا الأخرى. لقد اختارني القدر لأمكث في هذا البيت سنوات طويلة، ربما أرادني أن أكتشف هذا الباب ذات يوم، لكنني لم أنجح في ذلك.

نطقتُ في دهشة وأنا أخشى مما تفكر في الإقدام عليه:

- أمي!

قالت:

- لا نستطيع أن نتركك هنا يا عبير، لم يعد البيت آمنًا. سنخوض الطريق معًا إلى باطن الأرض لعلنا نجد النجاة هناك.

نظرتُ إلى أبي مذهولة، لعله يرفض ما تنوي أمي فعله، فوجدته يهز رأسه إيجابًا متفقًا معها.

***

في غضون دقائق، أحضر أبي ثلاثة مصابيح زيتية من الأعلى، ثم أعطى أحدها لعمران. ففوجئنا به يدحرج مصباحه في النفق، ثم وقف منصتًا كما لو كان ينتظر صوت ارتطامه بالقاع. أضاء المصباح النفق للحظات قبل أن يعود الضوء الفيروزي الخافت مجددًا، بينما استمر صوت تدحرجه يتناهى إلى مسامعنا حتى تلاشى تمامًا دون أن نسمع صوت ارتطامه. فقال عمران:

- إنه أعمق مما تخيلت.

ثم مد يده وأخذ مصباحًا آخر من أبي وقال وهو ينظر إليّ:

- لا أؤيد فكرة اصطحاب الفتيات معنا.

فقال أبي:

- نحن عائلة واحدة، سنمضي معًا.

هز عمران رأسه في صمت مستسلمًا، ثم تقدم بالمصباح نحو مدخل الجدار، وعبره محنيًا ظهره، تبعه أبي دون مصباح، ثم تبعته أمي وهي تحمل ريم، وتبعتهم أنا في المؤخرة حاملة مصباحًا آخر.

بعد مرورنا من مدخل الجدار، كانت الجدران الصخرية للنفق تضيق وتتسع بشكل غير منتظم، بينما كان ارتفاعها ملائمًا لأكثرنا طولًا، عمران، فلم نضطر إلى الانحناء في أثناء السير. ومع هبوطنا أكثر، أصبحت أصوات خطواتنا تتردد بوضوح داخل النفق، وازداد الهواء المحيط بنا برودة ورطوبة. قربتُ المصباح من جدران النفق لعلي أرى أي دلالات قد تكون ذات مغزى، لكنها كانت مجرد جدران صخرية خشنة، خالية من أي رموز أو نقوش.

بعدما قطعنا مسافة طويلة، صاح عمران بأن نحذر لرؤوسنا بسبب انخفاض مفاجئ في ارتفاع النفق، ثم جثا على يديه وركبتيه وتقدم زاحفًا، تبعه أبي، الذي انتظر حتى ناولته أمي ريم النائمة، ثم تحرك بها متقدمًا. بعد ذلك، عبرت أمي خلفه على يديها وركبتيها، وفعلتُ الشيء نفسه، حيث زحفتُ لمسافة تقارب العشرين قدمًا قبل أن يعود ارتفاع النفق إلى ما يناسب أطوالنا مرة أخرى، فواصلنا السير على أقدامنا من جديد، حتى وجدنا أنفسنا أمام ثلاثة ممرات تفرع إليها النفق.

***

تعجبنا جميعًا من وجود تلك التشعبات أسفل الواحة دون أن ندري عنها شيئًا. وتساءلتُ في داخلي عن قوة أحجار زمير التي جعلت هذه الأنفاق مُضاءة بذلك الضوء الفيروزي المريح للعين. ثم بدت الحيرة واضحة على وجهيْ أبي وعمران عندما وقفنا أمام الثلاثة ممرات لاختيار أي طريق نختار. بعدها قال عمران وهو يحاول اختصار محنه:

- لا أتذكر شيئًا عن تلك الممرات.

نظر أبي إلى أمي وكأنه يسألها إن كان أي شيء قد تبادر إلى ذهنها، فهزت رأسها نافية. فتحرك أبي أمام الممرات الثلاثة وكأنه يتفحصها، ثم عاد وقال:

- لا أشعر بوجود فرق ظاهري بينها.

ثم أردف:

- لنجتاز الممر الأوسط.

أومأنا برؤوسنا موافقين، أنا وأمي، بينما قال عمران:

- يمكنك المضي قدمًا في الممر الأوسط أنت وزوجتك، بينما أتحرك أنا إلى الممر الأيمن وتتحرك عبير إلى الممر الأيسر. ومن يعثر على شيء ذي قيمة يعود ليخبر الباقين.

نطقتُ على الفور وقلبي يدق خوفًا:

- لا، لن أفترق عن أبي وأمي.

فقال أبي وهو ينظر إليه متشككًا من نواياه:

- هل تخفي شيئًا عنا؟

رد عمران متعجبًا من شكوك أبي:

- لا، لكني أريد استغلال كل دقيقة. ومن يدري؟ ربما تؤدي هذه الممرات في النهاية إلى مكان واحد.

فقال أبي مصممًا:

- سنعبر الممر الأوسط معًا وأنت معنا.

تبرم عمران من قرار أبي، لكنه وافق في النهاية، وتقدم بنا إلى الممر الأوسط، لنواصل هبوطنا إلى أعماق الأرض.

بعد دقائق من تقدمنا في ذلك الممر، بدأت أصوات الهمسات تتنامى إلى مسامعنا من جديد، نفس الهمسات التي سمعتها سابقًا تصدر من الفتحة الجدارية في غرفة الاتصال. همستُ لأمي مرعوبة بأن نتوقف ونعود أدراجنا، لكنها أشارت لي بأن أواصل التقدم دون أن تنطق. فواصلت هبوطي خلفهم وأنا أتلفت إلى الخلف بين الحين والآخر مع الرعب الشديد الذي أصاب قلبي. ثم بدأت الجدران الصخرية من حولنا تتسع تدريجيًا، وبدأت خشونتها تقل شيئًا فشيئًا حتى صار ملمسها ناعمًا كجدران البيوت. فجأةً، توقف أبي عن التقدم وقال:

- هناك نقوش على الجدران.

قرّب عمران مصباحه من النقوش بعدما لم يكن الضوء الفيروزي كافيًا لإظهارها بصورة واضحة، ثم أخذ يتحسسها بيده ونحن نراقبه في صمت، حتى التفت إلينا وهز رأسه آسفًا، وقال:

- لا أعرف هذه اللغة.

فقال أبي الذي كان يتفحص النقوش بعينه خلال فحص عمران لها:

- إنها لا تشبه الرموز الموجودة على جدران حظيرة القبور أو الحصن السداسي أو أسوار البيوت.

قالت أمي وهي تقرب عينيها من الجدار:

- لكن هذه النقوش ليست غريبة عليّ. أشعر أنني رأيت مثلها من قبل، لكنني لا أستطيع تفسير أي رمز منها.

فقال عمران:

- حسنًا، لنكمل طريقنا، ربما نكتشف مزيدًا من الأشياء لاحقًا.

***

أكملنا سيرنا لدقائق، فبدأت رائحة خانقة تعبق فجأة في النفق، مما جعل ريم النائمة تسعل بقوة. فكرت في أننا قد نكون اقتربنا من باطن الأرض أسفل حظيرة القبور التي تمتلك رائحة شبيهة، لكن سرعان ما تذكرت مدى بُعد حظيرة القبور عن بيتنا وأننا لم نقطع كل تلك المسافة.

تدريجيًا، بدأ انحدار النفق يقل، حتى صار أفقيًا تمامًا، ثم انحرف بنا نحو اليمين. حينذاك إختفت الهمسات المريبة، وصارت إضاءة الضوء الفيروزي كافية لتكشف النقوش والجدران المحيطة بنا بوضوح دون الحاجة إلى مصابيحنا. ومع ذلك، شعرت بالخوف يتسلل إلى قلبي من جديد، خاصةً مع ظهور نهاية النفق في الأفق أمامنا. لكن ذلك الخوف سرعان ما تحول إلى دهشة وذهول عندما وصلنا إلى نهاية النفق ووجدنا أنفسنا ندخل قاعة دائرية كبرى تتجاوز مساحتها ساحة الحصن السداسي، يضيء الضوء الفيروزي تفاصيلها بوضوح، خاصةً جدرانها الصخرية التي تمتد إلى الأعلى لتلتقي في سقف مقعر، تتدلى منه على مسافات متساوية غصون شجرية رفيعة وطويلة ومتصلبة كأنها تحجرت عبر الزمن.

قطع أبي حالة الذهول التي أصابتني عندما صاح محذرًا:

- هناك قنوات مائية أرضية، احذروا كي لا تنزلق أقدامكم فيها.

كانت تلك القنوات ضيقة، لا يتجاوز عرضها خطوة واحدة، ومتشعبة في الأرضية الصخرية للقاعة، كشرايين تجري فيها مياه ذات رائحة نفاذة. أدركتُ حينها أن هذه المياه هي مصدر الرائحة التي تملأ المكان. عبرتُ بحذر القناة الأقرب إليّ، بينما كانت عيناي تتجهان نحو تماثيل حجرية كثيرة تظهر في الأفق أمامنا.

***

تقدمنا بقلوب مضطربة، عابرين القنوات واحدة تلو الأخرى، حتى اقتربنا من أول التماثيل لنكتشف أنه صغير الحجم، مطموس الملامح، وليس مُثبتًا على الأرض كما كنا نظن، بل كان مُعلقًا بأحد الغصون المتحجرة الطويلة المتدلية من السقف، ويتموضع بدقة فوق إحدى القنوات المائية، حتى يكاد يلامس مياهها الجارية. وكانت باقي التماثيل مثله.

قالت أمي وهي تتأمل التماثيل القريبة منها:

- وكأنها ثمار ناضجة تستعد للانفصال عن غصونها لتسقط في هذه القنوات.

حينذاك، تقدم عمران إلى أقرب التماثيل إليه، وتحسسه بحذر، ثم قال في استغراب شديد والتمثال يتأرجح ببطء:

- كنت أعتقد أنها تماثيل صخرية غير مكتملة النحت لبشرٍ صغار الحجم، لكنها منحوتة من الوحل، الوحل نفسه الذي كان يغطي جسدي عندما جئت إلى الواحة عبر الدوارة. لن أخطئه أبدًا.

لكن أحدنا لم يجبه بشيء، إذ رفعنا رؤوسنا جميعًا في وقت واحد نحو نقطة تلاقي الجدران في مركز السقف، حتى هو ترك ما كان يفعله ورفع رأسه مثلنا، حيث كانت هناك عين كبيرة منحوتة، بؤبؤها حجر جميل للغاية ذو لون فيروزي يأسر الأبصار. كانت العين تنظر نحونا بنظرة عميقة وساحرة، وكأنها تراقب ما نفعله.

قال أبي في ذهول وهو يحدق نحو بؤبؤ العين الفيروزي:

- إنه قطعة من حجر زمير.

وقفنا جميعًا في حالة من الهيام، وكأننا أُسرنا بجمال تلك البؤبؤ

جدران القاعة والممرات التي عبرناها تستمد إضاءتها السحرية من هذا البؤبؤ الفريد.

***

تقدمنا بعد ذلك هائمين بين التماثيل المُعلقة، لنصل إلى منتصف القاعة حيث وجدنا منصة صخرية ترتفع عن الأرض قليلًا. عندما صعدنا إليها فوجئنا بوجود مجسم كبير للواحة في وسطها، بتفاصيل متناهية الدقة. وعندما التففنا حول المجسم، أدركنا أنه مصنوع من الوحل باستثناء الحصن السداسي الذي بدا صخريًا، ثم لاحظنا أن البيوت التي سقطت أسوارها في الواحة كانت ممثلة في المجسم بأسوارها المتساقطة، بما في ذلك بيتنا. لتعتري حالة الدهشة والذهول وجوهنا ونحن نقف أمام هذا المجسم.

قالت أمي وهي تنظر إلى عين السقف التي كانت تتموضع فوق المجسم مباشرة:

- كأن تلك العين تراقب كل شيء في الواحة، حتى سقوط الأسوار.

في تلك اللحظة، نهضت ريم من نومها وبدأت تبكي خوفًا. فسارعت أمي لتهدئتها. سألت ريم عن بندو وهي تتلفت حولها باحثة عن ظله على الأرض. فكذبت أمي عليها بلطف قائلة:

- لقد ذهب بندو لإحضار شيء ما لكِ، وسيعود قريبًا.

هدأت ريم قليلًا، ونزلت من على كتف أمي. وبينما كنا منشغلين بالمجسم والقنوات المائية التي لاحظنا أنها تمتد من داخل القاعة إلى خارجها عبر فتحات أرضية صغيرة أسفل الجدران، تحركت ريم نحو أحد التماثيل، وبدأت في إزالة وحله بيدها كأنها تظن أنه دمية، قبل أن تصرخ فجأة في رعب.

ركضنا نحوها جميعًا بسرعة، لنكتشف أن وحل التمثال كان مجرد طبقة خارجية، وتحته ظهر ما يشبه جلد الإنسان. نظرنا إلى بعضنا بعضًا في خوف وحيرة، ثم قام عمران بإزالة المزيد من الوحل لنكتشف أن هناك جسم إنسان بالفعل تحت الوحل. بعدما غمر عمران يده بالمياه التي توجد أسفل التمثال، وبدأ يمسح آثار الوحل كليًا عن الجسد.

كانت المفاجأة كبيرة عندما اتضح أن الجسم كان لطفل في السابعة من عمره تقريبًا، ساكن بلا حياة، لكنه يبدو طبيعيًا تمامًا. كان الغصن الجاف يلتف بإحكام حول نصفه العلوي في عدة لفات ليتصل في النهاية بسرته. وعندما مسح عمران الوحل عن جزء من هذا الغصن، اكتشفنا بصدمة أنه ليس غصنًا شجريًا كما ظننا، بل حبل سري حقيقي يمتدُّ من السقف وكأنه يتغذى من أعماق الأرض. في تلك اللحظة انتبهتُ إلى أن جفون الطفل مكتملة، فهمستُ للباقين:

- إنه لا يشبه أطفال واحتنا.

فقال أبي في ذهول وهو يحدق نحو التماثيل الأخرى المُعلقة:

- إنها ليست تماثيل لأطفالٍ في الواحة، بل تبدو وكأنها الأجسام الحقيقية لأطفال البئر.

(13)

عندما أخبرنا أبي أن التماثيل التي رأيناها تبدو وكأنها الأجسام الحقيقية لأطفال البئر، شعرتُ وكأن العالم ينهار من حولي، وأن الخوف يتسلل إلى أعماقي كخنجر بارد يقطع كل شعور بالأمان. وحين نظرتُ إلى وجوه مَن حولي، رأيت نفس الفزع يرتسم عليها، فقلت لأبي بصوت مختنق:

- يجب أن نعود إلى الأعلى، لا نعرف ما قد يحدث بعد قليل.

ونظرتُ إلى أمي، فوجدتُ أن تعابير وجهها تتفق معي. فقال أبي عندما شعر باتفاقنا:

- لقد سقط سور بيتنا، وأنتما تعرفان ما ينتظرنا خلال الساعات التالية. إنها مجرد أجساد ساكنة، لا خوف منها. الخوف كل الخوف من أرواحها الغاشمة في الأعلى، التي تنتظر رمشة جفنٍ منا. لقد كنا نجهل وجود هذه القاعة أسفل بيتنا قبل هذه الساعات، وربما أرسلنا القدر هنا كي نعثر على شيء يجدد حمايتنا، فننجو من المصيبة التي حلّت بنا.

نظرتُ إليه غير مصدقة ما يقوله، ووددتُ لو اعترضت بصوت عالٍ وأعلنت صعودي إلى الأعلى بمفردي. ثم التفتُّ إلى عمران، آملةً أن يقنع أبي بالعودة، لكنه كان غارقًا في عالم آخر، يتحرك ببطء بين التماثيل ويتأملها في صمتٍ غريب، وكأن شيئًا ما يجذبه نحوها. فجأة، توقف

أمام أحد التماثيل، ومد يده وأمسك حبله السري المتدلي من السقف، ثم نطق بصوتٍ خافت مليء بالدهشة:

- إنه ينبض، كأن فيه حياة.

ولم يكد يُكمل كلماته حتى تساقط الوحل الذي كان يغطي ذلك التمثال دفعة واحدة، ليكشف عن جسد طفل آخر ساكن مغمض العينين. وفي لحظة صادمة، فتح الطفل عينيه فجأة، ونظر مباشرة إلى عمران. فتراجع عمران إلى الخلف بسرعة، متعثرًا، وأسقط مصباحه على الأرض، فتحطم وتناثرت شظاياه في كل مكان.

بينما كان عمران يحاول الوقوف مجددًا محاولًا تمالك أعصابه اصطدم بتمثال آخر. فسقط الوحل عن ذلك التمثال أيضًا. وفتح الطفل الساكن أسفله عينيه بنفس الطريقة المرعبة. فتراجعتُ خطوتين إلى الوراء وأنا أمسك بيد ريم التي كانت ترتعد من الخوف وهي تنظر نحو الطفلين.

بعدئذٍ، بدأ الظلام يزحف تدريجيًا نحونا، إذ بدأ الضوء المنبعث من عين السقف الكبيرة في الخفوت حتى صار بالكاد يضيء مجسم الواحة الواقع أسفل منها. ومع انحسار الضوء عن باقي القاعة، بدأت التماثيل الأخرى في فقدان وحلها واحدًا تلو الآخر، ليكشف كل تمثال عن طفل مُعلق بحبل سري، حالما يتخلص من وحله، يهبط إلى الأرض واقفًا بينما تنفك لفات الحبل السري عنه، ثم يفتح عينيه ببطء، كأن الحياة تعود إليه بعد سبات طويل.

فجأة، بدأت أعين الأطفال تلمع بلون فيروزي مخيف، وكأن ضوء عين السقف الذي خفت قد انتقل إليها، فهرعنا نحو وسط القاعة بجوار مجسم الواحة، وهناك صاح عمران بأن أطفئ مصباحي، الذي صار الوحيد المتبقي بحوزتنا بعد تهشم مصباحه. فسادت الظلمة حولنا، ولم

نعد نرى سوى الأعين المتوهجة ومجسم الواحة الذي لاحظنا أنه كلما سقط وحل طفل، سقطت معه جدران بعض البيوت فيه، حتى تداعت أسوار نصف بيوت الواحة تقريبًا، وبدا أن النصف الآخر في طريقه إلى السقوط، بينما بقي الحصن السداسي دون تأثر. فنطق أبي منهولًا:

- لقد هلكت الواحة. علينا أن نفعل شيئًا. علينا أن نعود إلى الأعلى، لقد كنتما على حق.

كانت كلماته كأنها فتحت بابًا لم يكن يجب أن يُفتح، إذ نزع أحد التماثيل في الجهة القريبة من باب القاعة الحبل السري من سرته، وتحرك متيبسًا نحو باب القاعة ووقف في منتصفه مواجهًا لنا، كأنه يعلن لنا أن المرور عبر ذلك الباب ممنوع منذ تلك اللحظة.

بعدها، وجدنا تمثالًا آخر ينزع حبله السري أيضًا ويتحرك نحونا. صرخت أمي مرتعبة، ومع صراخها بدأت التماثيل الأخرى تنزع حبالها السرية وتتحرك نحونا بنفس الطريقة، وكأنها تستجيب لنداء خفي يجعلها تتحرك في انسجام مرعب نحو وسط القاعة حيث وقفنا متجمدين في أماكننا. فصاح عمران:

- يجب أن نخرج من هنا الآن!

لكن طريق الباب كان مستحيلًا، إذ كان مغلقًا بتلك التماثيل الحية. فجأة أشارت أمي نحو الجزء السفلي من الجدار البعيد للقاعة، حيث بدت هناك فتحة صغيرة بالكاد مرئية في ظل الضوء الفيروزي الخافت، وقالت بصوت حازم وهي تحاول كتم خوفها:

- إلى هناك، لا يوجد طريق آخر.

فالتفتت أعين الأطفال نحو تلك الفتحة البعيدة، وبدأت أجسادهم تتحرك بخطوات متيبسة ثقيلة لتغلق علينا ذلك الطريق. فقال عمران:

- سأحاول تشتيتهم إلى أن تتمكنوا من الوصول إلى تلك الفتحة، وسألحق بكم بعدها.

وقفنا للحظة نفكر فيما قاله، كان ذلك يعني موتًا مؤكدًا له إذا تأخر وأغلقت الأطفال كل منافذ الخروج من القاعة. لكنه صرخ فينا مصرًا:

- هيا، اركضوا!

ثم ركض بعيدًا عنا في الاتجاه المعاكس لتلك الفتحة، وخلع سترته العلوية وأخذ يلوح بها. ثم فوجئنا بوشم صدره يضيء باللون الفيروزي. ومع خفوت الضوء وانتشار الظلام بعيدًا عن مجسم الواحة، بدت تلك النجمة الموشومة على صدره وكأنها نجمة مضيئة تتحرك في الهواء، يصاحبها صوت صياح عمران، وبالفعل، التفتت إليها أعين الأطفال المتوهجة وتوقفت عن التقدم تجاه الفتحة. حينذاك، حمل أبي ريم وصرخ فينا:

- هيا!

فركضنا نحو الفتحة بأقصى سرعة دون أن نلتفت خلفنا حتى وصلنا إليها. كانت بالكاد تتسع لمرورنا، زحفنا داخلها واحدًا تلو الآخر حتى وصلنا إلى ممر ضيق مظلم لم يكن مضاءً بأي ضوء فيروزي. فقط الظلام الحالك كان في استقبالنا. أضأتُ مصباحي الزيتي من جديد، لنكمل ركضنا عبر ذلك الممر الذي قادنا إلى ممرات أخرى مظلمة، كنا نتعثر في صخورها وجدرانها المتعرجة بينما تختلط أصوات أنفاسنا المتسارعة بصوت خطوات كانت تلاحقنا. فجأة، تعثرت أمي وأطلقت صرخة قصيرة، فتوقفنا وهرعنا نحوها لنجدها قد سقطت على ركبتيها بجوار جدار صخري. قلت لها وأنا أمسك بذراعها:

- هيا يا أمي، إن الأطفال يلاحقوننا!

لكن نظرها تعلق بشيء محفور على الجدار، وقالت بصوت يملؤه الخوف والدهشة:

- لقد رأيت هذه الرموز من قبل.

حدقتُ أنا وأبي نحو النقوش القديمة المحفورة بعناية على الجدار. لم تكن تشبه الرموز الموجودة في حظيرة القبور أو الحصن السداسي أو حتى التي رأيناها على جدران الأنفاق التي أوصلتنا إلى قاعة الأطفال المُعلقين. وقبل أن أسألها عما إذا كانت تستطيع تفسيرها، قالت في استغراب:

- أشعر وكأن ومضات من ذاكرتي القديمة تومض في عقلي، لكنها مشوشة للغاية ولا أستطيع استحضارها بوضوح. ومنها هذه النقوش التي يحدثني عقلي بأنني رأيتها من قبل.

في تلك اللحظة، أخذ أبي مني المصباح وقربه إلى الجدار. ثم تحرك خطوات وهو يواصل ملامسته للنقوش حتى توقف وقال مذهولًا:

- توجد رسمة كبيرة تظهر مجموعة من الأشخاص يقفون على حافة ما يبدو أنه بئر عميقة.

اقتربنا من الرسمة التي اكتشفها أبي. كانت البئر مرسومةً عميقةً جدًا، وفي قاعها رُسمت أجساد متراكمة، تتشعب من بينها غصون نبتة كبيرة تمتد إلى وسط البئر، لتحجب الرؤية عمن يقفون على حافة البئر بالأعلى. فأردف أبي:

- إنها قصة الواحة القديمة.

همست أمي وهي تلمس الرسمة بإصبعها:

- وجود هذه النقوش ليست صدفة. لقد نُقشت هنا وكأن من نقشها يريد أن يخبرنا شيئًا ما.

بدت قلة الحيلة على وجه أبي وهو يهز رأسه بأنه لا يستطيع الوصول إلى أي إجابة أو دلالة لهذه النقوش. وبدا على أمي أنها لا تتذكر لي تفسير للنقوش الغامضة المرافقة للرسمة. ثم تجمدت الدماء في عروقنا حين سمعنا صوت خطوات قادمة من أمامنا في الممر الضيق. كانت الخطوات ثقيلة ومستمرة، وكأن شيئًا ضخمًا يتقدم نحونا ببطء ولكن بثبات. حتى ريم صرخت خائفة وتشبثت برجل أمي، فوضعت أمي يدها على فمها كي تصمت بينما تدق قلوبنا بعنف وتتسارع أنفاسنا مع شعورنا بقدوم أطفال القاعة من خلفنا واقتراب ذلك الشيء الغامض من الأمام.

نظرت حولي بسرعة بحثًا عن أي شيء يمكنني استخدامه كوسيلة دفاع، لكن الممر كان فارغًا من أي شيء سوانا. كنا محاصرين.

فجأة، ساد الصمت ولم يعد هناك أي ضجيج أو صوت خطوات. فتقدمنا بحذر إلى الأمام، حتى صرخت أمي حين ظهرت أمامنا ظلال تتراقص على الجدران. لكنها لم تكن تتمايل بشكل عشوائي. حرك أبي المصباح في اتجاهات مختلفة وكأنه يتأكد أن تلك الظلال ليست انعكاسًا لأجسادنا مع ضوئه، قبل أن يجفل ويتراجع للخلف مسرعًا منضمًا إلينا بعدما بدأت تلك الظلال تتحرك ببطء من الجدران إلى أرضية الممر أمامنا، لتتشكل تدريجيًا على هيئة أشخاص ذوي وجوه غير واضحة وأجساد مشوهة بدأت تزحف نحونا ببطء، فسألها أبي بوجه هربت منه الدماء:

- من أنتم؟ ماذا تريدون منا؟

لم يكن هناك رد. فقط استمرت الظلال في الزحف على أرضية الممر نحونا بينما كنا نتراجع بظهورنا إلى الخلف. ثم توقفت عن التقدم ليبدأ أحدها في التحول من مجرد ظل على الأرض إلى كائن مادي، ينبعث

من الأرض نفسها. وأخذ مظهره يزداد وضوحًا مع استمرار انبعاثه من الأرض، حتى أصبح واضحًا تمامًا مع ضوء المصباح الخافت: طفلٌ برأس ضخم غير متناسق، تظهر أجزاء من جمجمته تحت جلده المتقطع. كان جسده مشوهًا، بضلوعٍ ظاهرة، وذراعين نحيفتين غير متساويتين في الطول، وقدمين ملتويتين بأصابع ناقصة. فجأة، لمعت عيناه بضوء فيروزي مخيف، يشبه ذلك الذي رأيناه في قاعة الأطفال المعلقين. فصرخت أمي:

- إنه واحد من أطفال البئر! ويبدو أنه أكثر شرًا.

حينذاك، تحولت الظلال الأخرى إلى ثلاثة كائنات مادية تشبه ذلك الطفل المشوه، وتقدمت هي الأخرى نحونا ببطء.

في تلك اللحظة، تزايد صوت الخطوات القادمة من خلفنا وكأن أطفال القاعة صاروا على وشك اللحاق بنا. فصرخ فينا أبي بأن نركض بكل قوة إلى الأمام لنجتاز الأطفال الأربعة المشوهين. ورفع المصباح عاليًا واندفع نحو الطفل الأقرب إلينا، محاولًا إبعاده عن طريقنا. لكن الطفل لم يتراجع، بل ازدادت عيناه بريقًا مع اقتراب الضوء منه. وبسرعة خاطفة، أمسك بالمصباح من يد أبي وألقاه بقوة على الأرضية الصخرية، فانطفأ نوره، وغرق الممر في الظلام، باستثناء أعينهم المتوهجة. عندئذٍ، أدركت أننا هلكنا، خاصةً مع وصول أطفال القاعة من خلفنا، ومحاصرتنا بوهج الأعين من كل جانب.

فجأة، انبعث في الممر ضوء فيروزي سطع بقوة شديدة أعمت أبصارنا للحظات. وعندما هدأت حدته واستطعنا الرؤية من جديد، وجدنا أن تلك الكائنات قد اختفت من حولنا. وفوجئنا بوجود سيف، ضيف الواحة الثاني، أمامنا. فصرختُ إليه في سعادة كبرى:

- سيف! ماذا تفعل هنا؟

بينما نزل أبي على ركبتيه مذهولًا ليحدق إلى حجر صغير في حجم حبة التمر كان يقبع على الأرض ويلمع بالضوء الفيروزي. وهمس إلى نفسه مبهورًا وهو يقرب إصبعه منه دون أن يلمسه، وكأنه يخاف من فعل ذلك:

- قطعة من حجر زمير؟!

أدركت في الحال أن تلك القطعة هي ما سببت الضوء الشديد الذي أنقذنا من أطفال البئر قبل أن يهدأ نورها. قال سيف:

- حمدًا لله أنني وصلت في الوقت المناسب. كنت أمر بالقرب من بيتكم عندما سقط سوره، وحين دخلت إليه كي أتفقد حالتكم وكلي يقين بأنكم قد هلكتم، وجدتُ غرفكم خالية. وعندما واصلت بحثي عنكم في البيت، وصلت إلى غرفة القبو، حيث وجدت تلك الفتحة التي تشبه النجمة الثمانية في جدارها، ورأيت آثار دماء على الأرض، فقررتُ أن أكمل الطريق إلى داخل تلك الفتحة.

ثم سكت للحظة قبل أن يكمل:

- عندما انقسم النفق إلى ثلاثة فروع، اتخذتُ الفرع الأيمن، وهناك عثرتُ على هذا الحجر الصغير الذي جذبني بسحرٍ غريب، شعرتُ معه وكأنني انتقلت إلى عالم آخر، قبل أن أستعيد عقلي، وأضعه في جيب سترتي، وأكمل البحث عنكم، حتى سمعتُ صرخة أحدكم فركضتُ بأقصى سرعة عبر الممرات المظلمة، حتى وصلت إلى هنا. وعندما رأيت تلك الأعين تحاصركم من كل جانب مع اشتداد الظلام، لم يأتِ في بالي سوى أن أخرج هذا الحجر وألقيه إلى الأرض نحوكم لعل نوره اللامع يهديكم إلى طريق تهربون عبره وسط الظلام. ففوجئت مثلكم بما فعله هذا الحجر.

سأله أبي:

- ألم تقابل أيًّا من تلك الكائنات في الممر الأيمن الذي جئت منه؟

هز سيف رأسه نافيًا وقال:

- لا، رأيتهم هنا فقط عندما سمعت صرخة أحدكم.

وأخرج قطعة زجاج حادة تشبه نصل سكين صغير، وأكمل ضاحكًا:

- عثرت على هذه القطعة من أحد المصابيح التي تهشمت منكم في النفق. كنت أنوي استخدامها دفاعًا عن نفسي ضد أي معتدٍ، لكني لم أتخيل أنني سأقابل كائنات مثل هذه.

تذكرت المصباح الذي ألقاه عمران قبل عبورنا فتحة جدار غرفة الاتصال كي يعرف عمق النفق، ووددت لو اقتربت من سيف واحتضنته، مثلما وددت لو لم يعاند أبي عمران وافترقنا عند الأنفاق الثلاثة، أو على الأقل أحسنا الاختيار واخترنا طريقًا آخر غير الممر الأوسط.

احتضن أبي سيف وشكره على إنقاذنا، وشكرته أمي. أما أنا، فهززتُ رأسي له شاكرةً في امتنان كبير، فابتسم لي ابتسامة رائعة كعادته. ثم انحنى أبي وتجرأ هذه المرة والتقط الحجر، وقال بنبرة يغلب عليها الأسف:

- لو كنا نعرف أن هذه القطعة موجودة في أعماق واحتنا، لما أرسلنا أربعة من أبنائنا إلى الواحة القديمة.

ثم أردف بابتسامةٍ خفيفة وهو يعطيه لسيف:

- يمكن لهذا الحجر أن يحضر إلى الواحة ضيفًا جديدًا. إنك أحق بأن تضعه في قبرك بحظيرة القبور. وحينها سيمتلئ بالوحل، لتغادر عائدًا إلى بلدك الأصلي.

أخذ سيف الحجر مبتسمًا وقال:

- سأفكر في هذا الأمر لاحقًا.

سألته أمي:

- هل تعرف طريقًا للعودة إلى الأعلى؟

بدت عليه الحيرة وهو ينظر إلى الجهة التي أتى منها وقال:

- حين سمعت الصرخات، جئت راكضًا عابرًا كثيرًا من الممرات المتشعبة. لا أتذكرها جيدًا، ولكن يمكننا أن نواصل السير حتى نصل إلى ممر أتذكره، فنعود من خلاله إلى الأعلى.

اتفقنا معه في ذلك، ثم تقدمنا خلفه نحو الأمام بعدما أخفى قطعة الزجاج الحادة أسفل خصر سرواله. وقطعنا الممرات واحدًا تلو الآخر، وكلّما توقفنا عند مفترق، حاول سيف تذكر ما إذا كان قد مرَّ منه من قبل، لكنه كان يهز رأسه في كل مرة مؤكدًا أنه لا يتذكر. حتى أبصرنا ضوءًا ضعيفًا في نهاية ممرٍ كنا نتقدم فيه، وعندما اقتربنا منه، وجدنا أنه يقود إلى قاعة أخرى تشبه كهفًا في باطن الجبل، جدرانها حجرية ناعمة، وارتفاعها ليس عالٍ جدًّا مثل قاعة الأطفال المعلقين بالأحبال السرية. وفي وسطها، كانت هناك بركة ماء ينبعث منها الضوء الفيروزي ليضيء تلك القاعة، وكأن في أعماقها توجد قطعة من أحجار زمير.

سرنا في تلك القاعة بحذر خلف أبي، ثم فوجئت بسيف يمسك بيدي، فأصابتني قشعريرة خجل، وإن شعرت بسعادة بالغة في داخلي. أنزلت أمي ريم على الأرض كي تمنح ذراعها قسطًا من الراحة، بينما توقف أبي عند النقوش المحفورة على الجدران. كانت معظم النقوش تشبه رموز الحماية الموجودة على أسوار البيوت؛ نجوم خماسية، وأعين مغلقة وأخرى مفتوحة، وأشكال هندسية من مثلثات ودوائر متداخلة. وإلى جانبها، ظهرت نقوش قليلة تشبه تلك التي رأيناها في الممر عندما هاجمنا أطفال البئر.

سأل أبي سيف وهو يشير نحو النقوش التي لا نعرفها:

- هل نستطيع قراءتها؟

اقترب سيف من الجدار وحدّق إلى النقوش للحظات، ثم هز رأسه نافيًا وسأل أبي:

- هل استطاع عمران أن يفسر بعضها؟

قال أبي:

- لا.

فقال سيف في حزن:

- ربما كان من المفترض أن يستطيع أحد الضيفين اللذين قدما معنا إلى الواحة، وماتا، تفسيرها. لكني لا أتذكر شيئًا من حياتي السابقة يساعدني على تفسير هذه النقوش.

تحركت أمي نحو الجدار ولامست النقوش بإصبعها وقالت في شرود:

- ليست غريبة عليَّ أيضًا، لكنني ما زلت لا أستطيع تفسيرها.

في تلك اللحظة، انتبهنا إلى أن ريم قد تحركت في صمت نحو البركة، وكأن قوة خفية تجذبها. صاحت أمي إليها بأن تتوقف وتعود إلينا بعدما وصلت إلى حافة البركة، لكنها واصلت تقدمها إلى داخل البركة وهي تقول بسعادة:

- بندو، انتظرا

فركضتُ نحوها بسرعة لأوقفها، لكن ما إن دخلت إلى الماء، حتى ظهرت أمامي على سطحه صورة امرأة في نفس عمري تقريبًا، وجهها دائري ناصع البياض، وشعرها طويل يتطاير برفق، كأن الرياح تداعبه، وعيناها تلمعان بضوء فيروزي هادئ، لم يكن مخيفًا مثل وهج أعين أطفال البئر الذين هاجمونا. فجأة، نطقت تلك الصورة بصوت هادئ وعميق:

- وُلدت معكِ، ألا تعرفينني؟

شعرتُ بالرعب يتسرب إلى أعماق روحي، وتجمدتُ مكاني وأنا أنظر إلى ريم التي كانت تواصل تقدمها في الماء. بينما تقدم الباقون إلى البركة أيضًا، لكن جميعهم تجمدوا في أماكنهم وهم ينظرون إلى سطح البركة باستثناء سيف، الذي واصل التقدم نحو ريم. ثم فوجئتُ بصورة المرأة تمد يدها إليّ عبر الماء. فبدأ الماء يتحرك معها قبل أن يتشكل ليأخذ هيئة مجسمة لتلك اليد. وسرعان ما لامست يدي، فصرختُ مرتعبة. فقالت المرأة بصوتها الهادئ المليء بالثقة:

- لا تخافي يا عبير، أنا ظلك الحارس الذي لطالما رافقك داخل بيتك.

نظرتُ حولي لأرى إن كان الآخرون يرون ما أراه. فوجدتُ أبي وأمي لا يزالان واقفين داخل البركة، يحدقان إلى الماء بذهول. وبدا أن كل واحد منهما كان يتفاعل مع ظله الخاص. لم أتمكن من رؤية ظلالهما، لكنني رأيت الماء يتشكل أمامهما في صورة أيدٍ مثلما حدث معي، فأدركت أنهما يران نفس ما أراه. نظرتُ مجددًا إلى المرأة الظل أمامي، فقالت:

- أنتِ في أمان هنا، يمكنك تحرير جفونك.

ثم رشت الماء على وجهي، فتحررت جفوني في الحال وأغمضت رغمًا عني، كأنها كانت تنتظر تلك الراحة بفارغ الصبر. وعندما فتحت عيني من جديد، وجدت أن جفون أبي وأمي قد تحررت أيضًا. حتى سيف، الذي كان يمسك بريم وسط البركة، تحررت جفونه هو الآخر ووقف محدقًا إلى الماء وكأنه وجد انعكاس ظله الحارس أخيرًا. قالت الظل لي:

- لو اتخذتم الممر الأيسر حين تفرع النفق، لوصلتم إلينا مباشرةً.

نظرتُ إلى أبي وكأنني أحمله مسؤولية سوء اختيار الطريق مجددًا. وقبل أن أنطق بشيء إلى الظل، فوجئت بأمي تقول شاردة وكأنها تغوص في ذكريات قديمة:

- إنني أتذكر حياتي قبل مجيئي إلى هنا. لم يكن اسمي دلال، اسمي لينا، لينا سلطان.

ثم أردفت غير مصدقة وهي تمسح الماء عن وجهها:

- كان لدي قطعة من حجر زمير. رأيتُ ذلك الحجر في عقد ترتديه امرأة في مجلة أزياء، وسحرني جماله. لقد راسلت المجلة كثيرًا كي يخبروني بطريقة التواصل مع تلك المرأة، وعندما أجابوا طلبي، أرسلتُ إليها رسالة أعرِّف فيها بنفسي، وأسأل عن ماهية ذلك الحجر الفريد.

ثم أكملت وعيناها تلمعان وكأنها تستعيد مزيدًا من الذكريات:

- بعدها بأيام، وصلني طرد مجهول فيه ذلك العقد، ووعاء صغير من البذور النادرة، دون أي رسالة مرفقة أو أي دليل على أن تلك المرأة هي من أرسلته إليّ.

ثم سكتت للحظة قبل أن تتابع:

- كنت مفتونة بذلك الحجر الذي لم أرَ مثله من قبل. ومكثت أنتظر بفارغ الصبر أن أريه لأبي وأمي، اللذين كانا في رحلة عمل خارج البلدة. ثم خبأته في بيتنا حتى يعودا، فيفتتنان بجماله هما الآخران.

فجأة، ظهر على سطح البركة مشهد مُتحرك يظهر فيه عمران وهو يركض في شوارع الواحة حيث تتساقط أسوار البيوت وسط حالة كبرى من الهرج والمرج. فصحتُ إلى أبي:

- إنه عمران! لا يزال على قيد الحياة!

نظر الجميع إلى ما بدا أنه يحدث في الواحة بالأعلى في الوقت نفسه. كان عمران يدفع الناس الخائفين للتحرك في اتجاه واحد، وهو يصرخ

فيهم راجيًا كي يسرعوا، ويحمل من لا يقدر منهم نحو ذلك الاتجاه.

فهمست أمي:

- إنه يدفعهم نحو الحصن السداسي.

فقال أبي في توترٍ شديد:

- لكن الحصن لا يكون محصنًا ضد أطفال البئر إلا ليوم واحد كل أربعة أعوام. لن يكون ملاذًا آمنًا الآن.

حينها، تذكرت شموخ الحصن السداسي وسط المجسم الذي رأيناه في قاعة الأطفال المعلقين، ثم سألت ظلي الحارس:

- هل يمكن للجن الحراس أن يجعلوا الحصن السداسي محصنًا طوال العام؟

ابتسمت الظل وقالت بصوت بدا مسموعًا للجميع:

- نعم، لكن عليكم أن تصلوا إلى تعويذته أولًا.

فسألها أبي في لهفة:

- أي تعويذة؟

ردت الظل بهدوء:

- فقط امنحوا البركة قطرات من دماء ذكر من نسل يعقوب.

ولم تكد تكمل جملتها حتى اختفت هي وبقية الجن الحراس. وكأن ذلك السر لم يكن من المفترض أن يُفشى.

***

نظرنا إلى بعضنا بعضًا في حيرة، بينما استمر مشهد الواحة في الانعكاس على سطح الماء، مظهرًا الأهالي المنكوبين وهم يركضون مذعورين خلف عمران نحو الحصن السداسي، وبين الحين والآخر، كان

بعضهم يسقط فرائس لأطفال البئر غير المرئيين، فتُنهش أجسادهم بلا رحمة. عندها، أخرج سيف قطعة الزجاج التي كانت بحوزته وناولها لأبي، إذ كان الوحيد بيننا الذي تتوافق دماؤه مع طلب الجنية الحارسة، وترك له الخيار، فشق أبي راحة يده في صمت، دون أن يرفع عينيه عن المشهد المأسوي على سطح الماء، لتتساقط دماؤه في ماء البركة وتذوب فيها.

في تلك اللحظة، بدأ الماء في البركة يتحرك بشكل غير طبيعي، وزاد توهجه الفيروزي، وكأن البركة تستجيب لتلك الدماء. ثم بدأ الماء ينشع من الجدران الصخرية المحيطة بنا ومن السقف، ليغمر أرضية القاعة ببطء. ثم زاد سقوط الماء من السقف ليتساقط على رؤوسنا كالمطر الغزير. وعندما نظرتُ إلى المدخل الذي دخلنا منه، وجدتُ الماء يأتي عبره وكأن الجدران خارجه قد بدأت في النشع أيضًا. بعدها بدأ منسوب البركة في الارتفاع بشكل ملحوظ، فحملت أمي ريم بين ذراعيها، وضمهما أبي بذراعه، بينما أمسك سيف بيدي وأنا أنظر إلى الماء القادم عبر المدخل والذي صار كالسيل.

نظرتُ إلى سطح البركة مجددًا فوجدتُ الظل قد ظهرت من جديد وأخذت تنظر نحوي مبتسمة دون أن تقول شيئًا. ثم نظرتُ إلى مشهد الحصن السداسي الذي ظهر بوضوح على سطح الماء، حيث تجمع أهل الواحة في ساحته، وعلى وجوههم الحسرة والضياع، بينما كان عمران يتحرك بينهم دون توقف، ويفتش بين الوجوه، كأنه يبحث عن شخص ما. وقبل أن أفكر في أي شيء آخر، ارتفع منسوب الماء فجأة وبكل قوة. فنظرتُ إلى أبي وأمي وريم وسيف مرة أخرى. وبعد لحظة واحدة، ابتلعتنا المياه.

(14)

يوسف

- نجمة شيخون؟! ماذا يعني ذلك؟!

نطقتُ إلى رزان بصوت متوتر ووجه كان على وشك الانفجار من احتقان الدماء فيه، وأردفتُ متسائلًا:

- هل يقصد شيخون، ساحر الواحة القديم؟!

كانت رزان تنظر نحوي وإلى الورقة المطوية التي تحتوي على صورة النجمة، وكأن على رأسها الطير. فنظرتُ نحو الطبيب سلطان الذي بدت عليه الحيرة وقلة الحيلة، فقال:

- أيًا كان ما يقصده، فقد تأكدنا الآن أن هناك علاقة بين هذه النجمة وبين واحتكم.

قالت أرملة السيد مؤيد:

- إن زوجي لم يخبرني من قبل أيّ شيء عن هذه النجمة، ولا أعرف لماذا أخفى هذه الورقة هنا كل تلك السنوات.

فقالت رزان:

- ربما أخفاها ثم فقدت ذاكرته كل ما يتعلق بالواحة، بما في ذلك هذه النجمة.

بدت الحيرة على وجه الأرملة هي الأخرى قبل أن تقول:

- لا أعرف شيئًا عن شيخون الذي تقولون إنه ساحر في واحتكم، لكن زوجي لم يكن يومًا مهتمًا بأمور السحر. لقد كان متدينًا.

ثم تابعت وكأنها تتذكر:

- وإن ظننتُ أنه مسحور في الفترة التي سبقت اختفائه، بعدما وجدته شاردًا طوال الوقت ومنطويًا على نفسه، على عكس طبيعته. لكني قلت في نفسي إنها حالة تصيب أغلب الرجال المنشغلين بمستقبل أسرهم.

قلت لها متوسلًا:

- نحن في حاجة ماسة إلى مساعدتك. أرجوكِ، لا تبخلي علينا بأي معلومة تتذكرينها، أو أي مكان تتذكرين أن زوجك كان يتردد عليه قبل اختفائه.

قالت:

- كما أخبرتكم من قبل، لا أتذكر الكثير. لقد حدث أمر اختفائه وعودته منذ سنوات طويلة.

أومأتُ برأسي أسفًا، ثم غادرنا بعدما سمحت لنا بالاحتفاظ بالورقة. وعدنا إلى بيت الطبيب سلطان وجلسنا نتأمل النجمتين المرسومتين في الورقة والمجلة دون أن نصل إلى أي نتيجة، حتى أوى كل منا إلى فراشه بعدما تجاوز الوقت منتصف الليل.

***

في اليوم التالي سمح لنا الطبيب سلطان بتفتيش غرفة أمي بدقة لعلها أخفت شيئًا هي الأخرى مثلما فعل السيد مؤيد، لكننا لم نعثر على شيء، فخرجنا إلى البلدة نتجول في شوارعها بحثًا عن أي أثر أو رسم

يشبه النجمة الثمانية، لكننا لم ننجح في الوصول إلى شيء. تمنيت في داخلي أن نقابل ناجي مرة أخرى، لعل معرفته بتاريخ الواحة تفيدنا في تفسير علاقة تلك النجمة بضيوف الواحة. لكنه منذ أن رحل مع قاسم لم نلتقِهما مرة أخرى.

في الأيام التالية كررنا تجوالنا في شوارع البلدة. وفي اليوم السادس قابلنا سارة مجددًا بالصدفة في أحد الشوارع، تعجبت من الثياب الجديدة التي كنت أرتديها أنا ورزان، والتي أحضرها لنا الطبيب سلطان بنفسه بعد يومين من بقائنا في منزله. وسألتنا مستغربة عن سبب بقائنا في البلدة بعد زوال العاصفة وانتهاء حجز أيامنا في النُّزل، فتحججنا بأن إصابة رزان تحتاج إلى متابعة دقيقة من الطبيب سلطان، وأننا نخشى المغادرة قبل التئام الجرح بالكامل. كما أضفنا أن السيد سلطان منحنا حزمة من الامتيازات تشمل العلاج والإقامة والطعام مقابل مبلغ من المال دفعناه مقدمًا. كان السيد سلطان قد أخبرنا أن نقول مثل هذا الكلام إذا سألنا أحد عن سبب إقامتنا في البلدة.

فجأة، أضافت رزان:

- ونحن أيضًا نستغل الوقت لتأليف مسرحية جديدة تدور أحداثها حول نجمة ملعونة ذات ثمانية رؤوس.

تعجبتُ مما نطقت به، وظهر التعجب أيضًا على وجه الفتاة، خاصةً بعد أن سألتها رزان:

- يُشاع أن هناك قصصًا كثيرة في البلدة تدور حول تلك النجمة، هل تعرفين شيئًا عنها؟

فأجابت سارة:

- لا، لم أسمع عنها من قبل.

فقالت رزان:

- يا لسوء الحظ. ظننت أنك تعرفين شيئًا. أتمنى أن نعثر على تفاصيل مثيرة لهذه القصة قبل رحيلنا.

ثم غادرنا، فقالت رزان:

- لم أكن أفهم معنى الفرقة المسرحية التي كانت سارة تتحدث عنها دائمًا هي ووالدها، حتى سألتُ الطبيب سلطان قبل يومين عنها، فشرح لي بالتفصيل ماذا تعني وماذا يقصدون بالمسرح والمسرحيات. إنها تشبه القصص التي كنا نجسدها في طفولتنا بساحة الحصن السداسي أمام أهل الواحة، لكن مدتها أطول قليلًا. وعندما التقينا الفتاة قبل قليل، جال في ذهني فكرة إخبارها أننا نقوم بتأليف مسرحية عن النجمة الثمانية، لعلها تبوح لنا بشيء بغية مساعدتنا.

أظهرت لها أسفي بفشل فكرتها مبكرًا رغم عبقريتها، ثم أكملنا تجوالنا في البلدة دون أن نصل إلى أي جديد، مثل الأيام السابقة.

***

مرت الأيام التالية تباعًا دون جديد. وكالعادة كنا خلال ساعات النهار لا نترك شارعًا أو زقاقًا إلا فحصناه مرة ومرتين وثلاثة، حتى أصابنا اليأس. ثم جاء يوم كنت فيه أنا ورزان جالسين في ردهة بيت السيد سلطان، نريح أقدامنا من إرهاق التجوال، فوجدنا السيد سلطان يدخل علينا ومعه مجموعة من الأوراق، قبل أن يقول:

- لقد استطعت الحصول على بعض المعلومات الإضافية عن السجناء الأربعة الذين اختفوا في العاصفة. كان الأمر صعبًا مع

استمرار البحث عنهم من قبل الشرطة، لكنني دفعت مقابلًا جيدًا للحصول على هذه المعلومات.

ثم بدأ يفتح الأوراق بحذر، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقرأ معلومات السجين الأول الذي أظهر لنا صورته، فعرفنا أنه السجين نفسه الذي كان يحمل وشم النجمة الثمانية على صدره:

- اسمه كارم الرفاعي، يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، من بلدة قريبة تسمى الجبل. كان كارم يعمل مهندسًا معماريًا، وسُجل أنه عمل في عدة مشاريع مُهمة في بلدته، قبل أن يُتهم باقتناء قطع ومخطوطاتٍ أثرية بغرض الاتجار فيها، ويُعتقَل.

حينذاك، سألتُ السيد سلطان:

- هل تتوقع أنه وجد شيئًا عن تلك النجمة في المخطوطات التي كان يقتنيها؟

هز رأسه بأنه لا يعرف، فقالت رزان:

- أيًا كان السبب، فلا بد أن الحظيرة اختارته لخبرته في البناء. نعرف أن اختيار الضيوف يتم بناءً على حاجة الواحة.

أومأتُ برأسي متفقًا مع رزان، فنحى الطبيب سلطان ورق ذلك السجين جانبًا، وتابع وهو يُظهر صورة الشاب الثاني الأكثر وسامة:

- حسام الطيب، ثلاثة وثلاثون عامًا، من بلدة صغيرة اسمها البستان. عاش يتيمًا، ثم تخرج في كلية الآداب قسم اللغات القديمة، وتخصص في اللغات السومرية والأكدية والآرامية.

سألته متعجبًا:

- أي لغات هذه؟!

فقال:

- لغات قديمة كانت موجودة في بعض البلدان منذ آلاف السنين، ولا يعرفها أحد حاليًّا إلا المتخصصون الذين يدرسونها في معاهد متخصصة.

جال في بالي الضيوف القدامى الذين ساعدوا الواحة في فهم رموز الحصن السداسي وحظيرة القبور، وتنهدت بارتياح بعدما فكرتُ في أن هذا السجين قد يكون له دور كبير في فهم المزيد من رموز الواحة التي تظل أسرارًا غير مكتشفة.

أكمل السيد سلطان:

- كان عاطلًا عن العمل منذ سنوات، لا يملك أصدقاء أو أقارب، ولم يكن أحد يعرف مصدر دخله، حتى اعتُقِل بتهمة سرقة مال أحد الأشخاص.

ثم انتقل بعد ذلك إلى السجين الثالث قائلًا:

- محسن السمعاني، خمسة وأربعون عامًا، يعمل تاجرًا. كان يقيم في العاصمة، لكنه اتُّهم في نفس قضية تجارة الآثار التي اتُّهم فيها السجين الأول، والتي تمت في إحدى المناطق التابعة لسجن بلدتنا المركزي، مما أدى إلى سجنه هناك.

قالت رزان:

- لقد ذكرتَ لفظ آثار أكثر من مرة، ماذا تعني بها؟

فأجابها:

- ممتلكات قديمة تركها أجدادنا منذ مئات أو آلاف السنين، لها قيمة كبيرة، ولا يحق لأحد الاتجار بها.

فكرتُ في علاقة ذلك الرجل ببناء الأسوار، وأقنعت نفسي أن خبرته في الآثار القديمة قد تكون ذات قيمة في واحتنا وبيوتها التي تبدو قديمة

جدًا لما رأيناه في هذه البلدة. ثم وصل الطبيب سلطان إلى السجين الرابع فقال:

- اسمه بلال الريس، ستة وعشرون عامًا، من بلدة تسمى الجسر. كان يعمل باحثًا في مجال النباتات، واعتُقِل بعد اتهامه في قضية قتلٍ.

انتابتنا دهشة ممزوجة بالخوف، وتساءلتُ أنا ورزان في وقت واحد:

- قتل؟!

قال:

- نعم، لكن قضيته مثل قضايا الباقين، لا تزال بين يدي القضاء، ولم يُصدر فيها حكم نهائي بعد.

فسألتُ رزان في حيرة:

- ما الذي قد يضيفه باحثٌ في مجال النباتات لحل أزمة سقوط الأسوار؟

قالت:

- ربما يكون لديه الخبرة الكافية في استخدام الأشجار وأخشابها لتدعيم الأسوار.

فأومأتُ برأسي مقتنعًا. بعدها، لملم السيد سلطان الأوراق التي بُعثرت على الطاولة، ثم نظر إلينا وقال:

- هذا ما استطعت العثور عليه.

فقلت:

- لا بد أن نذهب إلى بيوت هؤلاء السجناء في بلداتهم.

فهز الطبيب سلطان رأسه معترضًا، وقال:

- إن جميع بيوتهم مراقبة الآن رقابة شديدة من قبل الشرطة، وأي محاولة منكما للذهاب إلى هناك سيتم اعتقالكما على الفور، خاصةً أنكما لا تملكان أي هوية شخصية، وقد يتم توريطكما في أمر اختفائهم.

فقالت رزان بنبرة يملؤها الارتياح:

- أيًا كان سبب اختيارهم أو طريقة ذهابهم إلى الواحة، فقد تأكدنا أن الواحة أحسنت اختيار ضيوفها. وأننا بطريقة أو بأخرى، نجحنا فيما غادرنا الواحة من أجله. لقد أُخترنا للتنقيب عن أحجار زمير كي نحصل على قطعة واحدة تمكننا من إحضار ضيفٍ يساعد الواحة في أزمة سقوط الأسوار، والآن تأكدنا أن الواحة اختارت أربعة متخصصين كضيوف لإنقاذ أسوارها؛ مهندس وخبير بالنقوش وخبير بالممتلكات القديمة وخبير بعلم النباتات. لو كان الاختيار بيدنا، لما أحسنًا الاختيار بهذا الشكل.

فقلت:

- نعم، إنكِ محقة. لكن ماذا عن نجمة شيخون؟

وضعت يدها على فمي وقالت:

- لتكن ما تكون. انسَ الأمر يا صديقي، وكأننا لم نرَها. لقد اختارتنا الواحة للنجاة، وعوّضت سكانها بمن هم أفضل منا. لنكمل حياتنا على هذا النحو، إننا لم نقصّر في شيء، ونجحنا في عبور الدوارة ليحل آخرون بدلًا منا. وعليك أن تكون أكثرنا سعادة، فأنت الوحيد الذي وجد لنفسه أسرةً هنا.

ونظرت إلى الطبيب سلطان وهي تقول:

- أليس كذلك، أيها الجد؟ ألا تعترف بحفيدك؟

احمرَّ وجه الرجل في الحال، وكأنه لم يتوقع كلام رزان، ونظر نحوي طويلًا، ثم هز رأسه مبتسمًا في صمت. فأكملت:

- أعتقد أن قاسم وناجي قد وجدا طريقهما للحياة هنا خلال الأيام الماضية، وأنا أيضًا سأبحث عن طريقة أنجو بها في هذا العالم الغريب مثلما نجا مغادرو الواحة قبل زمن طويل.

ونظرت إلى عيني وقالت:

- فلنعِش مستقبلنا يا يوسف، دون أن نتوقف في داخلنا عن التمني بأن يلحق بنا أهلنا.

لم أجد ما أقوله، فقد فاجأني كلام رزان. نعم، لقد نجوتُ وحققتُ الحلم الذي يراود كل إنسان في الواحة منذ مولده، بعبوري الدوارة سالمًا، والابتعاد عن حياة مليئة بالخوف والرعب، لكن رغم ذلك، كنت لا أزال أفتقد أسرتي، وأعلم أنه مهما طال عمري، فلن أكون راضيًا عن حياتي وأنا أعرف كم يعانون هناك مع أطفال البئر، بينما أنعم وحدي بحياة آمنة سعيدة.

بعدها، تركتُ رزان والطبيب سلطان ودخلتُ إلى الغرفة التي خصصها لي، وجلستُ أفكر مرارًا في كلام رزان، محاولًا إقناع نفسي بأنها على حق، لكنني لم أستطع. لأقرر في داخلي في النهاية، أنه حتى وإن كان العثور على طريق العودة إلى الواحة يبدو مستحيلًا، فلن أتوقف عن البحث عنه حتى آخر لحظة في حياتي.

***

بعد ذلك اليوم، مرَّت الأيام ببطء وثقل، وبينما كنت أحاول التأقلم على الحياة في هذه البلدة الغريبة. كانت رزان تُصرُّ على أنه ينبغي لنا أن نستمتع بالحرية التي حصلنا عليها.

جدي سلطان؛ الرجل الذي بدا وكأنه يحمل نقاء الدنيا في داخله، عرض عليَّ العمل معه. لم أكن أرى بديلًا أفضل في تلك اللحظة، لكنني لم أقبل عرضه إلا بشرط: أن تبقى رزان معنا في البيت. فوافق على الفور، وكأنه كان يتوقع طلبي، وأعطانا وعدًا بأنه سيسعى لاستخراج هوية شخصية لكل منا، لنبدأ حياة جديدة تمامًا.

في الأيام الأولى، كان العمل مع جدي مرهقًا، لكنه أشغلني قليلًا عن التفكير في الماضي. ثم أعطاني مجموعة من الكتب الطبية الحديثة، واقترح عليَّ أن أستعين بكتب أمي القديمة المليئة بوصفات الأعشاب والأدوية، وقال:

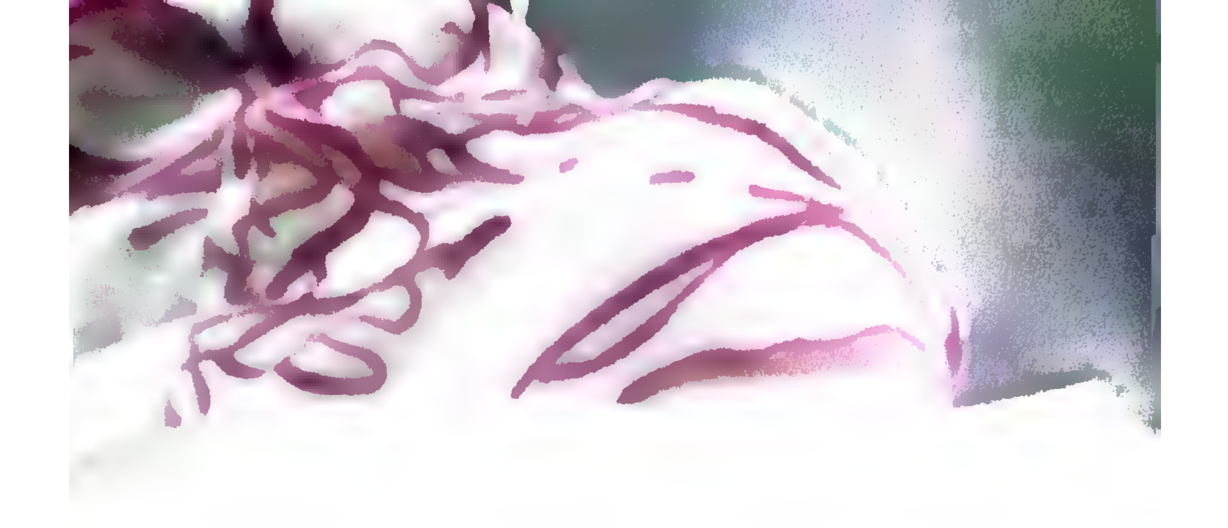
- ربما تكون قد ورثت عن أمك مهارة خلط الأعشاب لتحضير الأدوية. فلتدرس علم الأعشاب جيدًا ولتخض التجربة، ولن أبخل عليك بأي معلومة أعرفها.

شكرته بامتنان، وحملت الكتب إلى غرفتي، وهكذا بدأت رحلتي مع علم الأعشاب. رزان أيضًا بدأت العمل معه. قال لي وهي تقف بعيدًا عنا إنها تمتلك ذكاءً فطريًا يمكن استثماره، وأنه أقنعها بأن تتعلم على يده التمريض وأسرار تنظيف الجروح ومداواتها. بدا الأمر وكأننا نبني حياة جديدة، خاصةً مع نجاح جدي في استخراج هوياتنا الشخصية، لكنني لم أستطع التخلص من ذلك الشعور العالق في داخلي، بأن شيئًا ما لم يكن صحيحًا.

حتى جاء ذلك اليوم عندما كنت في طريقي إلى عيادة جدي وفوجئتُ بصوتٍ يناديني، وحين التفتُّ وجدتها سارة ترفع يدها إليَّ، ثم أسرعت نحوي، وبعدما تبادلنا التحية، سألتني:

- هل انتهيتما من كتابة المسرحية الجديدة؟

نظرتُ إليها مستغربًا، وسألتها:



- أي مسرحية؟!

فقالت مدهوشةً من سؤالي:

- تلك التي حدثتماني عنها مسبقًا، التي تدور أحداثها حول النجمة الثمانية.

تذكرتُ في تلك اللحظة الحديث الذي دار بيني أنا وحزان وبينها من قبل عندما كنا نبحث عن أي دلالة في البلدة تشير إلى النجمة، وهززتُ رأسي نافيًا وأنا أجيبها باسمًا:

- للأسف، لم نكتب حرفًا واحدًا.

نظرت إليَّ مستغربة وقالت:

- ظننتُ أنكم قطعتم شوطًا كبيرًا فيها بعد انتشار مقاطع الفيديو الأخيرة.

سألتها متعجبًا:

- أي مقاطع فيديو؟ لا أفهم ما تقصدينه.

أخرجت هاتفها بسرعة، ثم قالت:

- المقاطع التي سُرِّبت من الشرطة في الأيام الماضية وتنتشر بين سكان البلدة حاليًا. تلك المقاطع التي تعرض ما حدث في السجن قبل أيام من اختفاء السجناء الأربعة.

لم أكن أفهم ما تعنيه، لكنها بدت جادة جدًا. ثم حركت إصبعها على شاشة هاتفها، وبدأت تعرض لي مقطع فيديو يظهر فيه السجين الوسيم، حسام الطيب، وهو يقف أمام السجين الآخر كارم الرفاعي، الذي كان مقيدًا بقوة من ثلاثة سجناء آخرين، مزقوا سترته وكشفوا صدره، ليبدأ حسام بحفر وشم النجمة الثمانية عليه بالقوة. كان كارم يقاوم بشدة، لكنه لم يستطع التملص من إحكام السجناء قبضاتهم عليه.

المدهش أن رجال الشرطة الذين ظهروا في الفيديو كانوا يشاهدون ما يحدث دون أي محاولة لمنع حسام، وكأنهم، مثل بقية السجناء، ينفذون أوامره تحت تأثير سحرٍ ما.

تسارعت نبضات قلبي وأنا أتابع المقطع الذي أعادته سارة أكثر من مرة، قبل أن تنتقل إلى مقطع آخر. ظهر فيه السجين بلال الريس، الشاب العشريني، باحث النباتات، وهو يقف أمام رجل شرطة داخل زنزانته. فجأة دخل حسام ومدّ يديه ببرود، ممسكًا بفك بلال بقوة ليفتحه، ثم دفع لفافة غريبة في حلقه، فيما كان رجل الشرطة يقيده بإحكام. ظلّ بلال يختنق بينما كان حسام يتحقق من ابتلاعه للّفافة، دون أن يتحرك أحد لإيقافه. حينذاك شعرتُ بالقشعريرة تتسلل إلى جسدي. فقالت سارة:

- لا أحد يستطيع تفسير ما حدث في السجن، لكن تحقيقًا كبيرًا يُجرى الآن مع رجال الشرطة المتورطين.

ثم أردفت:

- عندما كنت أرى صور السجناء الأربعة المُعلقة في الشوارع، لم يخطر في بالي قط أن يكون ذلك السجين الوسيم شريرًا إلى هذا الحد.

لم أنطق بشيء، كانت عيناي ما زالتا تركزان على التفاصيل مع إعادة المقطع أكثر من مرة، بينما يتساءل عقلي: أي لفافة تلك؟ ولماذا أقحمها في جوف باحث النباتات؟ وهل لذلك علاقة بالواحة؟

في تلك الأثناء، تحدثت سارة عن انتشار أخبارٍ رافقت هذه المقاطع، تتعلق بالتغيير المفاجئ الذي حدث في موعد محاكمة حسام، لتصبح في نفس يوم إعادة محاكمات الثلاثة الآخرين: كارم ومحسن وبلال، بعدما كانت في يوم مختلف. وأشارت إلى أن هناك تحقيقًا يُجرى في

هذا الأمر أيضًا، بعدما بدا وكأنه جزء من خطة مدبرة. قبل أن تضيف بحماس:

- أمّا الفيديو التالي فأعتقد أنه سيكون مهمًا جدًا لمسرحيتكم.

فسألتها على الفور:

- هل هناك مقاطع أخرى؟

قالت:

- نعم. هناك اثنان متبقيان، لكنهما الشيء نفسه تقريبًا. قيل إنهما يوثقان اللحظات الأخيرة لذلك السجين في زنزانته، قبل أن يخرج منها ويحفر الوشم لزميله، أو يخنق الآخر باللفافة.

ثم أرتني سارة مقطع فيديو جديدًا يظهر فيه حسام داخل زنزانته جالسًا وسط نجمة ثمانية الرؤوس مرسومة على الأرض، لها ضلعان أطول من البقية. كان جسده محنيًا للأمام نحو الرأس التي يلتقي فيها الضلعان الطويلان، ويحرك شفتيه وكأنه يقرأ تعويذةً ما. فجأة، أضيئت الغرفة بضوءٍ فيروزي خافت، فتسارعت دقات قلبي وأنا أرى وجهه يحتقن وعيناه تبرزان بشكلٍ مخيف، بينما يواصل تحريك شفتيه بلا توقف.

لكن دقات قلبي بلغت ذروتها حين وقع بصري على الجدار الذي كان حسام ينحني نحوه، إذ رأيت عليه رسمة لبناءٍ يشبه الحصن السداسي. وبجوارها رسمة أخرى لساحة مليئة بحفر متجاورة، فهمستُ إلى نفسي مذهولًا:

- الحصن السداسي وحظيرة القبور؟!

بعدها، نظرتُ من جديد إلى وجه حسام، الذي عاد إلى طبيعته بعد سكون شفتيه وخفوت الضوء الفيروزي، لأهمس إلى نفسي مذعورًا:

- إنه شيطان لعين يعرف تمامًا ما يفعله.

(15)

عبير

استيقظتُ ببطء، والشعور بالبرد يزحف عبر أطرافي. عندما فتحتُ عيني، وجدتُ نفسي ممددةً على أرضية حجرية باردة، مُحاطة بجدران ملساء تشع بضوء فيروزي خافت. الرطوبة كانت تتسلل عبر ملابسي، والهواء كان مشبعًا برائحة عطرية غريبة، مزيج من عبير الزهور والدخان المحترق، وكأننا سقطنا في عالم الموتى.

رفعتُ رأسي بثقلٍ، ونظرتُ حولي، فرأيت أبي، وأمي، وريم، وسيف يستيقظون بجواري، ومثلي تمامًا كانت أعينهم مليئة بالحيرة والخوف وهم يحاولون استيعاب ما حدث. تلاقت نظراتنا في صمتٍ لم يكن يقطعه سوى صوت أنفاسنا المتسارعة، قبل أن أتساءل بصوت خافت مرتعش:

- أين نحن؟!

لكن لم يجبني أحد. الجميع كانوا غارقين في صمتهم، يحاولون فهم ما يحدث. فقط سيف كان يبدو أكثر هدوءًا من الآخرين. وقف بسرعة، ونفض الغبار عن ملابسه، وقال بنبرة حازمة:

- علينا أن نستكشف المكان ونعثر على تعويذة الحصن السداسي في أسرع وقت.

فسألتهم من جديد:

- أين نحن؟ هل ما زلنا في الواحة؟

فأجاب أبي وهو ينهض ويقف بجوار سيف:

- من المؤكد أننا ما زلنا في الواحة. لقد وعدنا الجن الحراس بالعثور على التعويذة، ولا أظن أنها ستكون خارج واحتنا. لنتحرك الآن ليس لدينا وافر من الوقت. إن أهل الواحة في حاجة إلى كل لحظة قبل أن يزول مفعول صمغهم.

بدأنا بالسير في المكان، وشيئًا فشيئًا أدركنا أننا في متاهة حجرية واسعة، جدرانها محفورة بالرموز نفسها التي لا نفهمها. وقف سيف أمام بعض الرموز، وتأملها لبضع لحظات قبل أن يهز رأسه غاضبًا من عدم قدرته على تفسيرها، ويتابع السير معنا. ثم صار الجو خانقًا بصورة ملحوظة، وبدأنا نسمع همسات خافتة تتردد من كل اتجاه حولنا، وكأن الجدران نفسها تتحدث إلينا، أو بالأحرى، وكأن الجدران تُبلغ أحدهم عما نفعله. فسألتُ الآخرين وأنا أتلفت حولي بقلق:

- هل تسمعون تلك الهمسات، أم أنها مجرد أوهام في رأسي؟

فقالت أمي في ثبات:

- لنكمل الطريق يا عبير. لو كان هناك ما يؤذينا، لما أرسلنا الجن الحراس إلى هذا المكان.

أومأتُ برأسي خائفة، وأكملتُ السير خلفهم دون أن أكف عن الالتفات حولي، حتى وصلنا إلى نفق ضيق، كانت جدرانه تتوهج بنور فيروزي، أكثر سطوعًا مما اعتدنا عليه في الأنفاق السابقة، وهناك توقفت أمي أمام نقشٍ محفورٍ على الجدار، وقالت بصوتٍ خافت:

- لقد رأيت هذا المكان في أحلامي التي راودتني بعد امتلاكي حجر زمير.

ثم بدأت تتحسس النقش بأصابعها وهي تغمض عينيها، فانتبهتُ في تلك اللحظة إلى أننا ما زلنا أحرار الجفون، دون أن يؤذينا أطفال البئر أو يكون بجوارنا أي ظلال لحراسنا. وهمستُ لأبي:

- كيف يمكن أن نكون محصنين بعيدًا عن حراسنا؟

رفع أبي كتفيه في استغراب، وأجابني بأنه لا يعرف تفسيرًا لذلك.

فجأة، قالت أمي وهي تغمض عينيها:

- إن الجدار يهمس لي بلغة أفهمها. إننا في أرض الجن، التي انتقل إليها يعقوب ونسله بعد ثورة أرواح أطفال البئر.

فسألتها في قلق:

- هل هذا يعني أننا انتقلنا إلى الماضي؟!

ففتحت أمي عينيها، وقالت:

- لا أعرف، لقد توقفت الهمسات فجأة، دون أن تقول المزيد.

ثم أغمضت عينيها مرة أخرى ولامست الجدار بأصابعها، وبدا على ملامحها أنها تحاول التركيز بشدة، لكن بعد لحظات فتحت عينيها، وقالت في خيبة أمل:

- لم تهمس مرة أخرى.

فقال أبي بحزم:

- لنكمل طريقنا فحسب.

واصلنا السير داخل النفق بخطوات حذرة وثقيلة، حتى توقفنا في أماكننا عندما سمعنا فجأة صوت بكاء طفلٍ يأتي من بعيد. حينذاك

التفتُّ إلى ريم التي اتسعت عيناها رعبًا وهي تحدق نحو الاتجاه الذي يأتي منه الصوت، وهمستُ إلى الباقين:

- ما الذي يجري؟!

لم تكن لأحدهم إجابة، لكن سيف قال:

- لا بد أنها خيالات وهلاوس تصيب أسماعنا كي تعيقنا عن التقدم علينا أن نكمل الطريق حتى نعثر على تلك التعويذة أو على الأقل نخرج من باطن الأرض إلى سطحها.

تعلقتُ بذراع أمي وتقدمنا ببطء، فيما كان صوت بكاء الطفل يتردد في أرجاء النفق، ويتزايد شيئًا فشيئًا، حتى توقف فجأة وساد الصمت تمامًا عندما وصلنا إلى نهاية النفق ووجدنا أنفسنا ندخل إلى غرفة صغيرة، في وسطها مذبح حجري قديم تحيط به مجموعة من التماثيل الصغيرة. وعلى حافة ذلك المذبح كانت هناك شمعة قديمة تشتعل بهدوء، فقالت أمي بقلق:

- يبدو أننا لسنا الوحيدين في هذا المكان.

زاد ذلك من توتري، وتسارعت أنفاسي أكثر وأكثر وأنا أحدق إلى التماثيل التي كانت تمثل مخلوقات مشوهة بملامح بشرية، لكن بذيول حيوانية. وكلي خوف أن تكون هذه التماثيل مشابهة لتلك التي رأيناها في القاعة الفيروزية. لكن سيف اقترب منها وتحسسها بيده وقال بثقة:

- إنها منحوتة من الحجر.

فقلت له بقلقٍ، وأنا أنظر إلى أبي الذي كان يقف بجواري حذرًا:

- تأكد أنها ليست مجرد قشرة من الوحل تخفي أجسادًا ساكنة تحتها.

فدفع سيف أحد التماثيل بقوة، فسقط وتحطم على الأرض محدثًا صوتًا مدويًا جعل أجسادنا تجفل، ثم ابتسم بهدوء وقال:

- إنها حجرية تمامًا، لا داعي للقلق.

حينها تقدم أبي بحذر نحو المذبح، ومرر إصبعه على بعض الدماء المتجلطة على حوافه، ثم قال بصوت منخفض تخلله قلق واضح:

- يبدو أن طقوسًا ما حدثت هنا مؤخرًا.

بينما كان يتفحص تلك الدماء، لفت انتباهي حفرة صغيرة في منتصف المذبح، بدت وكأنها مصممة لوضع شيء معين داخلها. فاقتربتُ منها ونفختُ الغبار عنها، ثم مسحتها بيدي، لأرى نقوشًا صغيرة تضيء بلون أحمر يشبه وهج الياقوت العتيق، فصحت في دهشة كبرى:

- انظروا!

نظر الجميع إلى تلك الحفرة ونقوشها المضيئة، ثم وجدتُ أمي تحدق إليها طويلًا، قبل أن ترفع عينيها إلينا وتقول بنبرة يملؤها الرعب وهي تنظر نحو سيف:

- علينا أن نغادر هذه الغرفة فورًا.

لكن قبل أن تكمل جملتها، تحولت عينا سيف فجأة إلى لون أحمر يشبه لون النقوش المضيئة. ودون أي مقدمات، دفع أبي بقوة ليسقطه أرضًا، ثم أخرج قطعة حجر زمير التي كانت بحوزته، ووضعها في تلك الحفرة، قبل أن ينزل على ركبتيه ويضع رأسه في تجويف صغير بحافة المذبح، كان أمامه مباشرة.

فجأة، تعالت الهمسات من كل زاوية حولنا، وكأن مجموعة من الناس يرددون نفس الكلمات بلا توقف، ثم بدأ حجر زمير يتوهج بشدة، وكأن قوة كامنة داخله قد بدأت في التحرر. في تلك اللحظة، اهتزت الأرض

بعنف تحت أقدامنا، لسقطنا جميعًا على الأرض غير قادرين على التحكم في أجسادنا. فصرخت أمي إليَّ عندما رأتني أقترب من جسد سيف:

- ابتعدي عنه!

- فقفزت مبتعدة وأنا أحدق إليه بذهول. كان قد نهض بوجه قبيح لم أرَ له مثيلًا من قبل، وبدأ يردد كلمات غير مفهومة، ثم رفع يديه إلى الأعلى وهو يواصل ترديد تلك الكلمات. فاجتاحت الغرفة رياح عاتية، أسقطت التماثيل على الأرض وحملت صخور حطامها، لتدور بها كدوامة عنيفة، كنا في وسطها تمامًا. فتشبثتُ أنا وأبي وأمي، التي كانت تمسك بريم، بحافة المذبح بكل ما أوتينا من قوة، قبل أن أرى أبي يمد يده بكل عزمٍ نحو سيف، ظننت لوهلة أنه يستنجد به، لكنه كان يقاتل الرياح للوصول إلى قطعة الزجاج الحادة التي كان يحتفظ بها أسفل خصر سرواله، وحالما نجح في انتزاعها جرح بها ذراعه سريعًا، لتتساقط قطرات دمه على المذبح، فانطفأ وهج حجر زمير على الفور، وانطفأ معه وهج جدران الغرفة الفيروزي، ولم نعد نرى سوى وهج عيني سيف الأحمر. بعدها انفجرت الأرض تحت المذبح، كاشفة عن بئر عميقة مظلمة، تتصاعد منها أصوات مختلفة. فصرخ فينا أبي:

- اقفزوا إلى البئر.

فجمعتُ قواي وقفزتُ إلى أعماق البئر، ليرتطم جسدي بالصخور الحادة، وتتوالى الضربات وأنا أسقط بلا توقف، بينما كانت الهمسات القادمة من الأسفل تتزايد في قوتها وغموضها. وكلما اقتربت من القاع، كان الصدى يتضخم، حتى شعرت وكأن البئر نفسها تتحدث إليّ، تناديني باسمي وتحثني على الهروب من ذلك الشيطان.

عندما وصلت إلى القاع، كان جسدي ينزف من كل مكان تقريبًا. استلقيتُ في مكاني عاجزة عن الحركة من شدة الألم الذي اجتاح كل

عظمة في جسدي، لكنني سرعان ما لمحت شعاعًا من النور يأتي عبر نفق ضيق يتجه إلى الأعلى. فهمست بصوت واهن إلى أبي وأمي اللذين كانا يتألمان بجواري:

- هناك ضوء! يجب أن نسرع إليه!

نهضنا جميعًا رغم الألم الذي كان يعصف بأجسادنا، وبدأنا نركض نحو اتجاه الضوء، كنا نترنح ونتعثر في خطواتنا، لكننا لم نتوقف، ومع كل خطوة كنا نتقدمها، كنت أشعر بأن الهواء حولنا يزداد برودة، وكأن النفق يريدنا أن نستمر في طريقنا.

بعد لحظات عصيبة من الركض في الظلام، وصلنا أخيرًا إلى الفتحة التي ينبعث منها النور، لتلفظنا خارجها ونجد أنفسنا على سطح الأرض مرة أخرى حيث كانت السماء فوقنا مُضاءة بشمسٍ بدت وكأنها أشرقت للتو، فرقدنا على الأرض منهكين، نلهث، ونحن نتأمل المكان من حولنا.

كانت المنطقة صحراوية فسيحة، ليس بها أي مبانٍ أو أشجار، فقط الحصن السداسي كان يظهر شامخًا في مرمى أبصارنا، بينما تلوح الدوارة بعيدًا في كل اتجاه، نظرتُ إلى الحصن وتمتمت في ألم:

- الحصن هناك.

لكن أمي قاطعتني بصوت مرتعش:

- أين ريم؟!

لتلفتنا حولنا في ذعرٍ، نبحث عنها، ثم عدنا أدراجنا إلى الفتحة الصغيرة التي خرجنا منها وبدأنا ننادي باسمها، لكننا لم نسمع سوى صدى أصواتنا، فزحف أبي عائدًا إلى داخل الفتحة بينما بقيت أنا وأمي في الخارج، نحدق إلى بعضنا بعضًا بحسرة شديدة.

مرت قرابة الساعة قبل أن يعود أبي عبر الفتحة، بمفرده. لم يحتج إلى أن ينطق بكلمة، فقد كان الإحباط مرسومًا على وجهه، والدموع تترقرق في عينيه، فقط هز رأسه في صمت، فوقفت أمي بلا حراك، تهمس باسم ريم بصوت مكسور وعيناها غارقتان في الدموع، تحاول استيعاب فكرة أن طفلتها قد ضاعت في هذا المكان الملعون. فاحتضنها أبي وهو يحاول جاهدًا أن يبقى متماسكًا. أما أنا، فوقفتُ أمام الفتحة المظلمة في جمود، أفكر في مصير الطفلة التي تركناها وحيدة دون أن نعرف في أي لحظة فقدناها. بعد دقائق قاطع أبي شرودي قائلًا:

- لنكمل الطريق إلى الحصن السداسي، إن مصير قومنا يعتمد علينا.

فانفجرت أمي في البكاء مجددًا، وأخذت تنادي على ريم داخل الفتحة بألم، فاقتربتُ منها، وأمسكتُ بيدها وأنا أبكي، ثم تحركنا معًا بخطى ثقيلة نحو الحصن السداسي.

***

في الطريق نحو الحصن فكرتُ في سيف، وتساءلتُ بيني وبين نفسي: هل كان شيطانًا يعرف كل ما نقوم به، واستغل دماء أبي التي وُضعت في بركة الجن الحراس للوصول إلى هذا المكان أو إلى المذبح؟ أم أن قوة غامضة سيطرت عليه وأفقدته السيطرة على نفسه، وصار بحاجة إلى مساعدتنا للتخلص منها؟ ثم فكرت في أن الإجابة قد تكون عند أمي، فهي من نبهتنا لمغادرة غرفة المذبح على الفور وهي تنظر إليه برعب، لكن في ظل انهيارها التام مع فقدان ريم كنت أدرك أنها لن تنطق بكلمة. فكرت أيضًا في دماء أبي التي أنقذتنا من شر سيف، وتساءلت إلى نفسي إذا كان أبي يعرف قوة مفعولها كفرد من نسل يعقوب، أم كانت مجرد محاولة يائسة منه، قد تصيب أو تخيب. ومع

انهياره هو الآخر بسبب فقدان ريم، عزمتُ على أن أسأله لاحقًا عما دار في ذهنه في تلك اللحظة الحاسمة.

عندما اقتربنا من الحصن، شعرتُ بأنه أكبر وأعظم مما اعتدت أن أراه. جدرانه كانت تمتد نحو السماء كأنها تعانقها، وبابه الخشبي الكبير، المغلق أمامنا، ظهر وكأنه أضخم مما رأيته من قبل. ولوهلة أحسستُ أنه ينتظر وصولنا. ثم شعرتُ فجأة بأن الهواء حولنا يتغير، وكأن طاقة غريبة بدأت تخيم على المكان. فوقفتُ في مكاني وقلت لأبي وأمي:

- أشعر أن هناك شيئًا غريبًا.

توقف أبي عن التقدم وكأن الشعور نفسه تسلل إليه، أما أمي فأكملت الطريق هائمة نحو الحصن وكأن عقلها صار مغيبًا بعد فقدان ريم. فصرختُ إليها:

- أمي، انتظري!

لكنها واصلت الطريق دون أن تلتفت إليّ. فجأة شعرتُ بارتعاش الأرض من تحتي، وعندما نظرتُ حولي رأيت الرمال تنشق وتخرج منها أيادٍ سوداء نحيلة مشوهة الأصابع. أمسكت إحداها بقدمي وحاولت سحبي إلى الأسفل، فركلتُها وأنا أصرخ، وركضتُ إلى الأمام، محذرةً أبي وأمي.

صرخ أبي وهو يحاول تحرير قدميه من قبضات تلك الأيادي الملعونة. وعندما شعرتُ أن تلك الأيادي كادت تتمكن منه، عدت إليه وركلتُ إحداها، محطمة أصابعها الرفيعة. أبي هو الآخر ركل اثنتين منها وهو ساقط على الأرض. وعندما أمسكت إحداها بثيابه، حمل حجرًا ثقيلًا كان على مقربة منه وضربها به، فتراجعت تلك اليد إلى الرمال

واختفت. حينها حملتُ أنا الأخرى حجرًا كبيرًا قريبًا مني وأخذتُ أضرب الأيادي المحيطة بي وبأبي.

في تلك الأثناء، كانت أمي تركل الأيادي التي تحاصرها في فزع شديد، فركضنا نحوها أنا وأبي وأخذنا نضرب تلك الأيادي بأحجارنا، لكنها لم تستسلم بسهولة، بل كانت تتزايد في العدد وتنتشر حولنا. فصرخت أمي وهي تبكي:

- سنموت هنا.

فصرخ أبي بأعلى صوته:

- لنركض نحو الحصن، إنه أملنا الوحيد!

بدأنا نركض نحو الحصن بكل ما لدينا من قوة، بينما تلاحقنا تلك الأيادي السوداء وهي تتلوى على الأرض وكأنها كائنات حية مستقلة، حتى توقفنا عندما وجدنا أن المسافة بيننا وبين الحصن قد امتلأت عن آخرها بتلك الأيادي، فيما كانت الأرض تحتنا تواصل اهتزازها، لتخرج المزيد منها. ومع إرهاقنا من كثرة ما هشمناه من إيادٍ، وخوار قوانا، وتحطم الصخور التي كنا نملكها، وعدم وجود صخور أخرى حولنا، شعرتُ أن سحبنا إلى أعماق الأرض عن طريق تلك الأيادي بات مسألة وقت لا أكثر.

فجأة، وجدتُ أمي توجِّه جسدها نحو الحصن السداسي، وتغلق عينيها، وتصرخ بأعلى صوتٍ سمعته لها في حياتي:

- يا سكان الظل وحراس هذا المكان،

يا من تحرسون أبواب الخفاء وتفككون قيود الزمان،

أستدعيكم من أعماق الزمن وسراديب العدم،

بدماء الأوفياء وعهد الجان،

أستحلفكم بقوة الأرض وسر السماء أن تحضروا الآن من وراء الحجاب،

لتقيدوا الظلام وتزيلوا الشر،

باسم القوة التي تتخطى الزمان والمكان،

اربطوا أعداءنا بقيود لا تُكسر،

وافتحوا لنا بوابات النجاة بنور لا ينطفئ،

باسم القوة الأعظم التي لا تُقهر، استجيبوا لندائي الآن،

وأعيدوا لنا السلام والأمان.

وأخذت تردد تلك الكلمات بصوت عالٍ، وكأنها انعزلت تمامًا عن عالمنا. فجأة، سمعنا صريرًا حادًا يأتي من جهة الحصن السداسي، كان صرير الباب الخشبي الضخم وهو يُفتح ببطء. ثم بدأت الرمال تتحرك تحت أقدامنا بحركة لا تشبه الحركة التي أحدثتها الأيادي السوداء، قبل أن ترتفع الرمال من الأرض حولنا لتتشكل على هيئة مخلوقاتٍ رملية وجوهها غير واضحة. ودون تردد، بدأت تلك المخلوقات في ضرب الأيادي السوداء من حولنا بكل قوة، لدرجة أننا كنا نسمع صوت تكسر عظام تلك الأيادي من شدة الضربات. حتى تراجعت كل الأيادي إلى أعماق الأرض، واختفت تمامًا.

بعد ذلك، اصطفَّت المخلوقات الرملية على الجانبين أمامنا، لتصنع لنا ممرًا ممهَّدًا يمتد نحو باب الحصن الذي صار مفتوحًا على مصراعيه، فركضنا نحو الباب غير مصدقين، ودخلنا إلى ساحة الحصن ونحن نلهث. ثم أغلق الباب من خلفنا وساد الهدوء. فسألتُ أمي على الفور بينما ينظر أبي نحوها مرتبكًا:

- كيف فعلتِ ذلك؟!

فقالت وهي في حالة من الذهول:

- نطق أحدهم بتلك التعويذة في رأسي، وسألني راجيًا أن أصرخ بها في الحال وإلا هلكنا.

فسألتها:

- هل هو الصوت نفسه الذي أخبركِ أننا في أرض الجن؟

صمتت للحظة في شرودٍ عميق كأنها تتذكر، قبل أن تقول في دهشة كبيرة:

- لا، لم يكن هو. لقد كان صوت يوسف، أخيكِ. لن أخطئه أبدًا.

ثم تابعت وهي تنظر في أعيننا:

- إنه يعلم أننا هنا، وهو من أنقذنا قبل قليل.

(16)

يوسف

كان هاتف سارة لا يزال في يدي، وذهني غارق في أفكاري حول حسام، السجين الغامض الذي وشم نجمة ثمانية على صدر سجين آخر، وعذَّب ثالثًا، تحت أنظار رجال الشرطة الذين لم يحركوا ساكنًا. كنت أعيد مشاهدة المقاطع مرارًا، محاولًا العثور على أي تفصيلة قد تفسر لي ما يحدث. وعندما لم أتمكن من الوصول إلى شيء، رفعتُ رأسي إلى سارة، وقلت بنبرة متوترة:

- عليَّ أن أري هذه المقاطع لرزان والطبيب سلطان.

فسألتني سارة في دهشة:

- أليس لديك هاتف حتى أرسل لك المقاطع؟

هززتُ رأسي نفيًا، فأجابت بعد قليل من التفكير:

- حسنًا، سآتي معك إلى الطبيب سلطان، وهناك سأرسل المقاطع إلى هاتفه.

أومأتُ بالموافقة، وبدأنا نتحرك باتجاه منزل جدي.

***

طوال الطريق، لم يتوقف عقلي عن التفكير، كل التفاصيل في المقاطع كانت تعصف بذهني؛ النجمة الثمانية المرسومة على أرضية الزنزانة، الرسومات التي تشبه المعين السداسي وحظيرة القبور على الجبل، ووجه حسام المحتقن وهو ينفذ طقوسه الغريبة. ليتعاظم الشعور في داخلي بأن هناك سرًا أكبر مما نتخيل. قطعت سارة أفكاري قائلة:

- الناس في البلدة يتحدثون عن حسام. البعض يعتقد أنه ساحر يستخدم الجن للسيطرة على الآخرين، وهناك من يقول إنه استعان بهذه القوة للهروب هو والسجناء الثلاثة الآخرين.

أومأتُ برأسي موافقًا على ما قالته، فكل تفصيلة في تلك المقاطع كانت تشير بوضوح إلى أنه ساحر غامض يستخدم قوى شريرة لهدف يعلمه وحده. فأضافت مازحة:

- أعتقد أن صديقكم ذا العين الواحدة سيكون مثاليًا لدور حسام في المسرحية.

تذكرتُ قاسم، ثم أجبتها بنبرة جامدة:

- ربما، سنفكر في ذلك لاحقًا.

فتوقفت عن السير، ونظرت إليّ بتشكك قائلة:

- أشعر أن الأمر أكبر من مجرد مسرحية. أنتم تخفون شيئًا.

توقفتُ أنا الآخر، وكاد لساني ينطق بما أخفيه، لكنني تداركت الموقف سريعًا، وقلت بابتسامة مفتعلة:

- لا، إنها مجرد مسرحية. لكننا لم نفكر في تفاصيل مثيرة مثل التي ظهرت في مقاطع الفيديو. لقد ازدادت حماستي للمسرحية بعد هذه المقاطع، حتى إنني أشعر أنها ستكون نقطة فارقة في حياتنا.

ابتسمت سارة وقالت وهي تواصل السير:

- حسنًا، سأستعد من الآن لحضور العرض الأول.

***

وصلنا إلى منزل جدي، ودخلنا إلى الداخل. كانت رزان جالسةً بجوار جدي تقرأ كتابًا، رفعت عينيها نحوي بقلق عندما رأتني أحمل الهاتف وأتجه نحوهما بخطوات سريعة، بينما تحاول سارة اللحاق بي. ثم وقفتُ أمامهما، ومددتُ يدي بالهاتف نحو جدي قائلًا:

- لقد أرتني سارة بعض المقاطع المصورة، لا بد أن ترياها.

فنظرت سارة إلى الطبيب سلطان، وقالت بابتسامة متوترة:

- هل لي بهاتفك، سيدي؟ سأنقل لك المقاطع ثم أذهب، إن لدي الكثير من الأعمال التي يجب أن أنجزها.

فأعطاها جدي هاتفه وهو ينظر إليَّ بترقب. وفي غضون دقائق، كانت المقاطع على هاتفه. حينها رحلت سارة، وتركتنا لنشاهد الفيديوهات بمفردنا.

بدأ جدي في تشغيل الفيديو الأول، ومع مرور الثواني، كانت ملامحه هو ورزان تتغير شيئًا فشيئًا. ثم شغَّل الفيديو الثاني، فازدادت الحيرة والقلق على وجهيهما، وعندما ظهرت رسومات الحصن السداسي وحظيرة القبور على الجدار في الفيديو الثالث، نهضت رزان من مكانها وهمست في صدمة:

- ماذا يعني كل هذا؟

فقلت بهدوء، لكن بنبرة تملؤها القلق:

- يعني أن هذا الرجل يعرف الواحة جيدًا، إما أن قرأ عنها في كتاب ما، أو ذهب إليها من قبل.

فنظرت إليَّ رزان بعينين قلقتين، وسألتني:

- هل تعتقد أن شخصًا بهذا الشر الذي رأيناه في الفيديوهات قد ذهب إلى الواحة من أجل إنقاذ أهلنا؟

فهززتُ رأسي نافيًا دون أن أقول شيئًا. فالتفتتْ إلى جدي وسألته:

- هل يستطيع صديقك الذي أعطانا معلومات عن السجناء أن يدخلنا إلى زنازينهم؟

فكر جدي للحظات، ثم قال:

- لا أعتقد أن الأمر سيكون بهذه السهولة، خاصةً بعد انتشار هذه المقاطع.

فساد الصمت لفترة قصيرة، حتى فوجئنا بسارة تعود من جديد عبر باب البيت الذي كنا نظنه مُغلقًا، وتقول بتردد:

- أعتذر أنني لم أغادر، ووقفت خلف الباب أتنصت على حديثكم بعد أن شعرت أن هناك شيئًا غير طبيعي، خاصةً مع التوتر الذي أصاب يوسف عقب مشاهدة الفيديوهات، ورغم أنني لم أفهم شيئًا مما قلتموه عن تلك الواحة وذلك الحصن وتلك الحظيرة فإنني تأكدت أن شكوكي كانت في محلها، وأن الأمر أكبر من مجرد مسرحية.

ثم سكتت للحظة، وأردفت بنبرة جادة:

- إذا كان ما حدث في السجن يهمكم حقًا كما أشعر. فإنني أستطيع أن أجعل أبي يستخدم نفوذه ليدخلكم إلى تلك الزنازين في أقرب وقت كما تريدون، لكن بشرط واحد؛ أن تخبروني بالحقيقة كاملة.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا في توتر، حتى قالت رزان:

- كما قلنا لكِ سابقًا، إنها مجرد مسرحية جديدة نعمل عليها.

فقاطعتُ رزان؛ وقلت لسارة في حزم:

- لا، لقد كنا نكذب عليكِ. سأخبركِ كلّ شيء، لكن عليكِ أن تعدينا بأنك ستساعديننا.

نظرت سارة نحوي بعينين مرحبتين، وقالت باسمة:

- لقد عرضتُ مساعدتي بالفعل.

بعدها، جلست، وأخبرتُها كلّ شيء. حكيتُ لها عن الواحة، والدوارة، وكل ما حدث لنا منذ اختيارنا للتنقيب عن حجر زمير، حتى مشاهدتي لمقاطع الفيديو على هاتفها. ودعمتُ كلامي بصور أمي التي وجدتُها في بيت جدي، وبالنجوم الثمانية التي عثرنا عليها في مجلتها، وفي خزانة السيد مؤيد، وعلى صدر السجين كارم الرفاعي، قبل أن نشاهدها على أرضية زنزانة السجين حسام الطيبِ في مقاطع الفيديو. أصابها الذهول بينما كنت أتحدث، لكنني شعرتُ بأنها تصدقني، أو على الأقل، لا تظن أنني مجنون. حتى انتهيتُ من الحديث، فقالت:

- يبدو الأمر غير منطقي، لكني أثق في الطبيب سلطان، وأعلم أنه يمتلك من الحكمة والعقل ما يجعله يميز بين الصادقين والمحتالين.

ثم تابعت باسمة:

- سأجعل أبي يدخلكم إلى الزنازين في أسرع وقت ممكن. ولا تقلقوا، لن أخبر أحدًا عن الواحة، حتى أبي. سيظل الأمر كما هو، مسرحية جديدة تدور أحداثها عن النجمة ثمانية الرؤوس.

***

بعد يومين، أوفت سارة بوعدها وقادتني أنا ورزان إلى السجن المركزي، بينما آثر جدي ألا يأتي معنا كي لا يثير وجوده أي شكوك.

كان دخولنا سهلًا بفضل توصية والد سارة، ولم يعترضنا أحد. فقط أظهرنا هوياتنا الشخصية على البوابة الخارجية، ثم رافقنا أحد الجنود إلى داخل السجن. لم أكن أعرف طبيعة عمل والد سارة بدقة، لكن منذ وصولنا إلى البلدة، كان يبدو وكأنه من بين حكمائها، لو كان لهذه البلدة مجلس حكماء مثل واحتنا.

تقدم بنا الجندي المرافق عبر الممر الرئيسي الذي يمتد بين الزنازين في الطابق الأرضي، ثم توقف عند إحدى الزنازين، وقال:

- هذه زنزانة السجين الهارب حسام الطيب.

ثم فتح الباب وأشار لنا بالدخول، دون أن يدخل معنا. كانت الزنزانة صغيرة وذات إضاءة جيدة مقارنة بما رأيناه في الفيديو، وكانت آثار النجمة الثمانية لا تزال واضحة على أرضيتها. خشت رزان وسارة التقدم إلى وسط النجمة، ووقفتا خارج محيطها، أما أنا فخطوتُ إلى داخلها، ووقفتُ في منتصفها تمامًا موجهًا وجهي نحو الجدار الذي رُسم عليه الحصن السداسي وحظيرة القبور بالطبشور الأبيض، وحدقت إلى الرسومات بتركيز شديد، وكأنني أنتظر أن يحدث سحرٌ ما، لكن لم يحدث أي شيء. ثم انتفض قلبي بقوة حين لاحظتُ على الجانب الداخلي للباب دوائر مرسومة بالطبشور الأبيض أيضًا، تشبه في نمطها الفتحات الدائرية الموجودة في غرفة الاتصال بقبو منزلنا في الواحة. فناديتُ رزان بسرعة:

- انظري!

بدت وكأنها لم تدرك ما أعنيه، فسألتني:

- ما الأمر؟

أشرتُ إلى الباب، وقلت:

- هذه الدوائر تشبه الفتحات الجدارية الموجودة في غرف الاتصال بواحتنا.

حدقت رزان في الباب بتعجب، ثم لفتت نظري إلى أن حواف بعض الدوائر أسمك من غيرها، وكأن حسام ركّز على إبرازها دون سواها.

في تلك اللحظة، أخرجت سارة قلمًا أحمر من حقيبتها، وبدأت ترسم خطًا يصل بين الدوائر ذات الحواف السميكة. وعندما انتهت، ظهرت أمامنا نجمة ثمانية، تتوسطها دائرة أكبر من بقية الدوائر، لتقول في دهشة:

- النجمة الثمانية مرة أخرى!

نظرتُ إلى النجمة وإلى الدائرة الكبيرة في مركزها، ثم تساءلت:

- ماذا يعني ذلك؟!

لكن لم تكن لأي منا إجابة. بعدها قالت سارة:

- لا نملك الكثير من الوقت. سألتقط صورًا لهذه الرسومات لنفكر فيها لاحقًا.

وأخرجت هاتفها والتقطت صورًا لكل الرسومات على الجدران والباب، ثم خرجنا من تلك الزنزانة، واتجهنا إلى زنزانة السجين الثاني، كارم الرفاعي.

***

عندما دخلنا إلى زنزانة كارم، كانت الجدران نظيفة تمامًا، خالية من أي رسومات أو نقوش. لكن عندما دققتُ في الباب من الداخل، لاحظتُ آثار رسمة قديمة، بالكاد مرئية، تشبه رسمة فتحات غرفة الاتصال التي رأيناها في زنزانة حسام. فناديتُ رزان وأشرت إلى الدوائر الشاحبة التي كانت بالكاد تظهر، وسألتها:

- هل ترين ما أراه؟

حدقت رزان إلى الباب لبعض الوقت قبل أن تقول بصوت خافت:

- نعم، وكأن أحدهم مسحها بسرعة بملابسه.

ثم تابعت مستغربة:

- وهناك قطرات دماء متجلطة على الباب.

فقالت سارة وهي تنظر إلى الدماء:

- ربما تطايرت هذه الدماء في أثناء نقش حسام الوشم على صدر سجين هذه الزنزانة.

فاقتربتُ من الباب، وحدقتُ إلى تلك القطرات، ثم قلت لسارة بعدما لاحظتُ نمط توزيع الدماء على الباب:

- أريني صورة فتحات غرفة الاتصال المرسومة على باب زنزانة حسام.

فأظهرت لي الصورة على شاشة هاتفها، فقلت:

- أعطني قلمك.

ثم بدأتُ أرسم دائرة حول كل قطرة دماء، ثم ربطتُ بينها بخطوط مستقيمة، فظهرت النجمة الثمانية من جديد، تتوسطها دائرة تحتوي قطرة دماء كبيرة، فنظرت إلينا سارة بدهشة، وقالت:

- ما الذي يعنيه تكرار هذه النجمة في كل مكان؟

لم يكن لدينا أي جواب. فقط وقفنا ننظر إلى النجمة في صمت وحيرة. بعدها، التقطت سارة صورة للرسمة، وغادرنا الزنزانة متوجهين إلى زنزانة السجين الثالث، بلال الريس، الشاب الذي أجبره حسام على ابتلاع تلك اللفافة الغامضة. وعندما وصلنا إليها، قال الجندي المرافق لنا:

- هذه الزنزانة بها عطل في الإضاءة منذ اختفاء السجناء. سأدخل معكم وأضيء المكان بمصباحي لتتمكنوا من رؤية ما بداخلها بوضوح.

حدقت رزان إلى الباب لبعض الوقت قبل أن تقول بصوت خافت

- نعم، وكأن أحدهم مسحها بسرعة بملابسه.

ثم تابعت مستغربة:

- وهناك قطرات دماء متجلطة على الباب.

فقالت سارة وهي تنظر إلى الدماء:

- ربما تطايرت هذه الدماء في أثناء نقش حسام الوشم على صدر سجين هذه الزنزانة.

فاقتربتُ من الباب، وحدقتُ إلى تلك القطرات، ثم قلت لسارة بعد

حظتُ نمط توزيع الدماء على الباب:

- أريني صورة فتحات غرفة الاتصال المرسومة على باب زنزانة حسام.

فأظهرت لي الصورة على شاشة هاتفها، فقلت:

- أعطني قلمك.

ثم بدأتُ أرسم دائرة حول كل قطرة دماء، ثم ربطتُ بينها بخطوط متقيمة، فظهرت النجمة الثمانية من جديد، تتوسطها دائرة تضم

ة دماء كبيرة، فنظرت إلينا سارة بدهشة، وقالت:

- ما الذي يعنيه تكرار هذه النجمة في كل مكان؟

م يكن لدينا أي جواب. فقط وقفنا ننظر إلى النجمة في صمت

ة. بعدها، التقطت سارة صورة للرسمة، وغادرنا الزنزانة متوجهين

نزانة السجين الثالث، بلال الريس، الشاب الذي أجبره حسام

تلك اللفافة الغامضة. وعندما وصلنا إليها، قال الجندي المرافق

هذه الزنزانة بها عطل في الإضاءة منذ اختفاء السجناء. سأدخل معكم

وأضيء المكان بمصباحي لتتمكنوا من رؤية ما بداخلها بوضوح.

ثم فتح لنا باب الزنزانة، فاجتذبت الرائحة بداخلها حواسنا، لم تكن رائحة العفن المعتادة في الأماكن المغلقة، بل كانت مزيجًا من رائحة التربة المبللة وأوراق النباتات المغمورة بالرطوبة. بعدها، تقدم الجندي إلى الداخل ونحن نتبعه بحذر، ثم وجَّه مصباحه نحو الزوايا المعتمة والجدران، فأضاءها، لكنها كانت خالية من أي رسومات أو نقوش. سألته أن يضيء الجانب الداخلي للباب فاستجاب لطلبي، لكننا لم نجد أي أثر لرسم يشبه فتحات غرفة الاتصال أو أي آثار دماء على الباب. ثم حرك الجندي مصباحه في أرجاء الزنزانة، فلفت انتباهنا نبتة غريبة تنمو من شقوق الأرضية الحجرية، وتلتف حول أرجل السرير الحديدي مثل ثعبان، صاعدة نحو الأعلى وكأنها تبحث عن مصدر للضوء. فأخذتُ المصباح من الجندي وقربتُه من النبتة، فوجدتُ أوراقها داكنة تميل إلى السواد، وعلى أطرافها نقاط صغيرة تضيء بلون فيروزي خافت مع اقتراب ضوء المصباح منها، فأثار ذلك تعجبي، بينما قال الجندي في دهشة:

- يا لغرابة هذه النبتة، لقد أزلناها من هنا أكثر من مرة، آخر مرة كانت قبل ثلاثة أيام فقط، لكنها تنمو مجددًا بسرعة غير طبيعية!

فقلت لسارة بنبرة جادة:

- التقطي صورة لها.

فالتقطت الصورة على الفور.

بعد ذلك، قطعتُ من النبتة غصنًا صغيرًا يحمل ثلاث ورقات، ووضعتُه في جيب سروالي. ثم أعدت توجيه المصباح نحو الجدران والسقف والباب، باحثًا عن أي نقوش قد نكون أغفلناها، لكن لم يكن هناك شيء. فأشرتُ للباقين كي نخرج. وبعد أن ابتعد الجندي عنا ببضع خطوات، قلت لرزان وسارة:

- علينا أن نذهب إلى بيوت هؤلاء السجناء، خاصةً منزل حسام، أنا متأكد أن هناك المزيد من الأسرار التي سنكتشفها هناك.

أومأتا برأسيهما موافقتين. ثم بدأنا نتحرك نحو المخرج. لكن قبل أن نصل إلى نهاية الممر، سمعنا صوتًا ينادينا. فتوقفنا والتفتنا نحو مصدر الصوت، كانت الزنزانة التي بجانبنا، وخلف نافذتها الحديدية وقف ناجي، يناديني وينادي رزان بصوت مضطرب. فتسمرتُ في مكاني للحظة، قبل أن أقول بذهول:

- ناجي!

ثم اقتربنا من الزنزانة بحذر، وحدقنا إلى وجهه. كان يبدو مرهقًا، عيناه محمرتان وشعره أشعث وكأنه لم ينم منذ أيام. سألته رزان بصوت مملوء بالدهشة:

- ماذا حدث لك يا ناجي؟ كيف انتهى بك الأمر هنا؟

قال ناجي بصوت متقطع:

- أوقفني رجال الشرطة عندما وجدوا معي الخنجر الذي جلبته من الواحة. وعندما سألوني عن هويتي الشخصية، لم أفهم ما الذي يقصدونه، فحكيتُ لهم عن الواحة. ظنوا أنني مختل العقل، وقالوا إنهم سيعرضونني على طبيب نفسي.

نظرت سارة إلى ناجي بدهشةٍ، وسألته:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

أجابها بصوت واهن:

- الطبيب قال إنني لا أعاني أيَّ اضطراب نفسي، لكنهم قرروا حبسي بتهمة حمل الخنجر دون ما يُسمى تصريح، ولعدم امتلاكي هوية

شخصية. وحتى الآن لا أعرف ماذا سيحدث لي، أشعر بأنني تُركت لأتعفن هنا.

فسألته رزان:

- وأين قاسم؟

فقال:

- لقد اختلفنا بعد أن تركناكما في النُّزل، وافترقنا، ولا أعرف عنه شيئًا منذ ذلك الحين. أرجوكم، أخرجوني من هنا المكان.

فقلت له مطمئنًا:

- لا تقلق يا ناجي، سأجعل جدي الطبيب سلطان يساعدك. لن نتركك هنا.

فسألني بدهشةٍ:

- جدك؟!

قلت:

- إنها قصة طويلة، سأخبرك إياها لاحقًا. فقط احرص على البقاء بخير حتى نتمكن من إخراجك.

أومأ برأسه بتفهم، ثم ودعناه بعد أن حثنا الجندي على الإسراع إلى الخارج بعد انتهاء وقتنا. لنغادر السجن ورؤوسنا تعصف بأفكارها المتشابكة بعد كل ما رأيناه داخل تلك الزنازين.

***

عدنا إلى منزل جدي وأخبرناه كلَّ ما رأيناه في الزنازين، ثم عرضت له سارة على شاشة هاتفها الصور التي التقطتها هناك. فبدت عليه الدهشة والحيرة، وصمت مفكرًا لبعض الوقت، قبل أن يسألني:

- ما فائدة غرف الاتصال في واحتكم؟

أجبته:

- قال لي أبي إن غرف الاتصال كانت تُستخدم قديمًا للتواصل بين أرجاء الواحة. كل مجموعة بيوت بها غرفة اتصال واحدة كانت تتواصل مع مجموعة بيوت أخرى تحتوي على غرفة اتصال مشابهة.

فسألني جدي:

- هل ما زالت تلك الغرف تعمل حتى الآن؟

هززتُ رأسي نفيًا:

- لا، لم أرها تعمل في حياتي، وحتى أبي لم يرها تعمل. أعتقد أنها توقفت عن العمل منذ مئات السنين.

ففكر جدي للحظة، وقال:

- أو ربما لم تُشيد لذلك الغرض من الأساس، وتناقلت الأساطير المتوارثة معلومات خاطئة عنها.

ثم سألني:

- كم عدد غرف الاتصال في الواحة؟

فأجابت رزان دون أن تنتظر إجابتي:

- خمس عشرة غرفة.

أومأتُ برأسي متفقًا معها، فقالت سارة ممازحة:

- ظننتُ أنكما ستقولان ثمانيَ.

ضحكت رزان وقالت:

- لا، إنها خمس عشرة. أنا متأكدة، وجميعنا يعرف أماكن البيوت التي تحتوي على تلك الغرف.

فحدقتُ إلى الفراغ أمامي بعدما انتبهتُ إلى شيء ما. ثم أمسكتُ بقلم كان على الطاولة، وبدأتُ أرسم على سطح الطاولة نموذجًا مصغرًا للواحة، ثم حددتُ بكل دقة مواقع البيوت التي تحتوي على غرف الاتصال في أقبيتها، ووضعتُ دائرة حول كل بيتٍ من تلك البيوت، حتى انتهيت من الدوائر الخمس عشرة. فسألتُ جدي على الفور:

- أين الورقة التي عثرنا عليها في بيت السيد مؤيد؟

نهض جدي نحو خزانة خشبية بالردهة، وأحضر الورقة المطوية، ففردتها محدقًا إلى نجمتها الثمانية، ثم بدأتُ أرسم بها دوائر حول كل نقطة التقاء للخطوط المستقيمة في النجمة، سواء عند الرؤوس أو الزوايا، ثم عدت إلى رسمتي على الطاولة، وبدأتُ أوصِّل الدوائر التي تمثل غرف الاتصال بخطوط مستقيمة، حتى انتهيت، فوضعت ورقة السيد مؤيد بجوارها، وسألتهم:

- هل ترون ما أراه؟

بدا وكأنهم صاروا يفكرون فيما أفكر فيه. فتابعت قائلًا:

- إن غرف الاتصال الخمس عشرة تمثل نمطًا غير مكتمل لرؤوس وزوايا النجمة الثمانية. فقط تنقصنا دائرة واحدة لتكتمل رؤوس النجمة الثمانية وأضلاعها.

ثم رسمتُ على سطح الطاولة دائرة إضافية في نفس مكان الدائرة الناقصة عن نجمة السيد مؤيد، ووصلتها بأقرب دائرتين عن طريق ضلعين طويلين، كما في نجمة السيد مؤيد تمامًا. فظهرت النجمة الثمانية بوضوح. بعدها، رسمتُ دائرة كبيرة في منتصف النجمة المكتملة، كما رأينا على أبواب الزنازين، وسألتهم:

- أتدرون ما الذي تمثله هذه الدائرة؟

هزت سارة وجدي رأسيهما نفيًا، بينما تساءلت رزان بصوت هامس:

- الحصن السداسي؟!

قلت:

- بالضبط، يقع الحصن السداسي في قلب النجمة الثمانية التي تكوِّنها غرف الاتصال.

ثم نظرتُ إلى نجمة السيد مؤيد من جديد، وتابعتُ وأنا أشير إلى ضلعيها الأحمرين الطويلين، اللذين يلتقيان عند الرأس البعيد الذي كان ينقص نجمتي:

- لم نعطِ اهتمامًا كافيًا من قبل لاختلاف طول هذين الضلعين عن باقي الأضلاع في كل النجوم الثمانية التي رأيناها، لكن يبدو لي الآن أن هذا الاختلاف مقصودٌ تمامًا.

فسألتني سارة في ترقب:

- وما الذي قد يعنيه ذلك؟

فعدتُ إلى النجمة التي رسمتها على الطاولة، ورسمتُ قوسًا يقطع ضلعيها الطويلين بالقرب من التقائهما عند الرأس، وقلت وأنا أشير إلى القوس:

- إذا افترضنا أن هذا القوس يمثل الدوارة، فهذا يعني أن غرفة الاتصال السادسة عشرة، التي تكمل نمط النجمة الثمانية لا توجد في واحتنا، بل توجد خارج الدوارة.

ثم رفعتُ رأسي إليهم، وأردفتُ:

- أي إن هذه الغرفة توجد في مكانٍ ما في هذا العالم.

(17)

خيّم الصمت على الجميع بعد أن أبديتُ اعتقادي بوجود غرفة اتصال في هذا العالم الذي انتقلنا إليه. ومع ذلك، فقد بدا على وجهَيْ جدي وسارة أنهما يفكران بجدية في احتمال صحة اعتقادي، بينما لم تبدُ رزان مقتنعة بالفكرة. ثم قطعت سارة الصمت وسألتني:

- وماذا سيفيد في رأيك وجود غرفة اتصال هنا؟ هل ستتمكن من العودة إلى واحتك عبرها؟

أجبتها:

- لا أعلم. لطالما ظننتُ أن هذه الغرف كانت تُستخدم قديمًا للتواصل بين أهالي الواحة. وقضيتُ أغلب فترات حياتي داخل غرفة الاتصال الموجودة في قبو بيتنا أتحدث إلى فتحاتها بلا هدف سوى البوح بما في داخلي. لكن بعد أن رأيت توزيع الدماء على رسمة الفتحات الجدارية الموجودة على باب الزنزانة، بدأت أشك أن لهذه الغرف دورًا أكبر مما كنت أتصور.

ثم وثبت إلى ذهني في تلك اللحظة قنينة الدماء التي أعطاني إياها أبي قبيل عبوري الدوارة، والتي فقدتُها في أيامي الأولى بالبلدة، وتساءلتُ إلى نفسي في حيرة:

- هل كان أبي يعلم بوجود غرفة اتصال هنا؟! هل كان يقصد عندما ذكر أن تلك الدماء قادرة على فتح باب في الدوارة المعنى الحرفي

لقوله، أم كان يقصد أنها تستطيع فعل شيء بجدار غرفة الاتصال إن عثرنا عليها، ولم يخبرني؟

هل أعطاها لي لهذا الغرض منذ البداية، وكذب بشأن بيت الجد يعقوب الذي تحصنه؟

وأردفتُ لنفسي بعد لحظةٍ من التشتت:

- أم أن بيت الجد يعقوب موجود حقًا في هذا العالم، وغرفة الاتصال المفقودة تقع تحته؟

ثم نظرتُ إلى جدي وسارة ورزان وكدتُ أخبرهم ما جال في ذهني، لكنني تذكرت أنني لم أخبر رزان بشأن تلك الدماء بعد. فتراجعتُ وقررت تأجيل الحديث معهم عن تلك التساؤلات إلى وقت لاحق، أكون قد مهدتُ قبله أمر الدماء لرزان. بعدها، قطع جدي حبل أفكاري بسؤاله:

- حسنًا، كيف تريدنا أن نبدأ الخطوة التالية؟

فقلت له:

- أريدك أن تحاول إخراج ناجي من السجن. وجوده معنا أصبح مهمًا للغاية الآن.

أومأ جدي برأسه إيجابًا، وقال:

- أعدك بأنني سأبذل كل ما في وسعي لاستخراج هوية شخصية له وحل مشكلة الخنجر التي ورَّط نفسه بها.

فشكرته على ذلك الوعد، ثم نظرتُ إلى رزان وسارة، وقلت:

- أما نحن، فسنبدأ بزيارة بيوت السجناء. ربما ترك أحدهم دليلًا في بيته يقودنا إلى غرفة الاتصال. سنذهب إلى تلك البيوت، حتى لو كانت تحت مراقبة الشرطة، ومن ثم نفكر في الخطوة التالية.

فأومأ الجميع بالموافقة، بما فيهم جدي، الذي كان يعارض الفكرة في السابق.

***

في اليوم التالي، قادنا جدي إلى بلدة البستان، حيث يقع بيت السجين حسام الطيب، الذي حصلنا على عنوانه من الأوراق التي أحضرها جدي سابقًا. كانت الشمس على وشك الغروب عندما وصلنا إلى وجهتنا. أوقف جدي السيارة بعيدًا بعض الشيء عن البيت، لتجنب لفت الأنظار أو إثارة أي شكوك.

من مكاننا، كان بإمكاننا رؤية البيت بوضوح. كان بيتًا قديمًا محاطًا بسور حجري مهترئ، وأمام ذلك السور امتد شريط أصفر طويل. قالت سارة وهي تشير إليه:

- إنه شريط الشرطة الذي يمنع أي شخص من دخول البيت.

ثم أشارت إلى جنديين يقفان عند بوابة السور، وأردفت:

- إنهم هناك، علينا أن نحرص ألا يرونا.

بعدها، نزلتُ من السيارة أنا وسارة ورزان، وتسللنا خلف سيارة كبيرة كانت تقف قرب السور، واختبأنا خلفها، نراقب الجنديين بصبر، حتى تأكدنا من انشغالهما في حديث جانبي، فتسللنا سريعًا نحو البيت عبر فتحة صغيرة في السور، ثم زحفنا عبر الحديقة الأمامية، التي لم تكن تحتوي على أي أثرٍ للحياة، حتى وصلنا إلى الباب الأمامي، فوجدناه مغلقًا. فأشارت رزان إلى نافذة جانبية مكسورة، تسللنا عبرها واحدًا وراء الآخر.

داخل المنزل كان الجو كئيبًا ومريبًا. رائحة العفن تملأ الأجواء، والجدران مليئة بالشقوق، بينما تمتد خيوط العناكب في كل زاوية وكأن المكان لم تطأه قدم إنسان منذ سنوات. همستُ لرزان:

- هل جدي متأكد أن هذا هو بيت حسام؟

أجابت:

- نعم، ووجود الشرطة أمامه أكبر دليل على ذلك.

فقلتُ في دهشة:

- لا بد أن الجميع مخطئ في هذا الأمر، إن بيوتنا في الواحة أكثر حداثة من هذا البيت.

قالت سارة وهي تضيء مصباحًا يدويًا:

- لا كهرباء هنا، وكأن هذا البيت كان يُضاء بالشموع.

فقلت:

- لنبدأ بالتفتيش عن أي شيء قد يفيدنا، ومن يلاحظ شيئًا غريبًا يخبر الباقين على الفور.

ثم بدأنا في التنقل بين الغرف، نوجِّه المصباح نحو الجدران واحدًا وراء الآخر، لكن جميعها كانت مشققة لا شيء مميز عليها. حتى دخلنا غرفة صغيرة، فتوقفنا أمام جدارٍ مليء بالرموز التي اعتدنا رؤيتها في الواحة على أسوار البيوت، والحصن السداسي، وحظيرة القبور. ورموز أخرى لم نرها من قبل. وكانت النقوش نفسها مُكررة على باقي جدران الغرفة وكأن من رسمها يحاول إتقانها، فهمست سارة:

- هل تعرفون معنى هذه الرموز؟

أجبتها في توترٍ كبير وأنا أنظر نحو الجدران:

- بعض هذه الرموز موجود في الواحة كرموز للحماية، لكن هناك رموزًا لم أرها من قبل.

فسألتني رزان بصوت مضطرب:

- هل تعتقد أن حسام كان يحاول استحضار جني حارس هنا؟

أخرجتُ زفيري، وقلت:

- لا أعلم، لكن ما أعرفه هو أن الجني الحارس لا يُستحضر للضيف إلا بعد وصوله الواحة واتباعه الطقوس الخاصة بمولد الجني.

فأشارت رزان إلى نجمة خماسية، ثلاثة من أضلاعها مصبوغة بدماء متجلطة، وقالت:

- يبدو أنه كان على دراية بالطقوس ويتدرب عليها.

فزممتُ شفتي في حيرة، قبل أن أقول:

- أتمنى أن يتمكن جدي من إخراج ناجي من السجن قريبًا، ربما يملك تفسيرًا لوجود هذه الرموز هنا.

بعدها طلبتُ من سارة أن تلتقط صورة للجدار المليء بالنقوش، ففعلت ذلك على الفور. غير أن هاتفها أصدر وميضًا قويًا مفاجئًا مع التقاط الصورة، جعلنا نتلفت حولنا، خوفًا من أن يكون جنديا الحراسة قد لاحظا ذلك الوميض. فقالت سارة في ارتباك:

- أعتذر، لقد نسيتُ أن أغلق خاصية إطلاق الوميض مع التقاط الصور.

فتحركت رزان نحو النافذة على أطراف قدميها، وتفحصت أمر الجنديين في الخارج، ثم قالت في ارتياح:

- لا تقلقا، ما زالا منشغلين في الحديث.

فقلت لسارة:

- لنكتفِ بهذه الصورة، إن بقية جدران الغرفة تحتوي على الرموز نفسها.

أومأت برأسها إيجابًا، ثم واصلنا تجوالنا في الغرف بحثًا عن أي رموز أو أشياء أخرى قد تكون ذات صلةٍ بالواحة، حتى سمعنا فجأة حركة خلفنا، فاستدرتُ على الفور، ففوجئتُ بشخص يتحرك بسرعة أمام باب الغرفة التي كنا فيها، فتجمدتُ في مكاني، وقلت للباقين بصوت منخفض وحذر:

- لسنا وحدنا في البيت!

ارتبكت رزان وسارة. وهمست سارة في ذعر وهي تمسك بذراعي بأن ذلك البيت مسكون بالجن مع وجود تلك الرموز على جدرانه. لكن مع سكون الحركة خارج الغرفة أخذتُ المصباح وتقدمتُ به نحو الباب، ووجَّهته في الأرجاء كافة، فلم أجد شيئًا. ناطفأتُ ضوء المصباح ثم همستُ إلى سارة بأن تلتقط صورة عشوائية باستخدام خاصية الوميض، نفعلت ذلك، بينما بقيتُ عند باب الغرفة، أراقب الردهة المظلمة. فجأة سمعنا الحركة مجددًا، فأضأتُ المصباح على الفور، ووجهته نحو مصدر الصوت، فرأيتُ فتاة عشرينية ذات شعر أشعث ووجه شاحب وعينين واسعتين تعكسان خوفًا وارتباكًا شديدين. كانت منكمشة على نفسها أسفل طاولة قديمة، وجسدها يرتجف بوضوح.

فسألتُها وأنا أصوِّب المصباح نحو وجهها:

- من أنتِ؟

رفعت يدها لتحجب الضوء عن عينيها، وقالت بصوتٍ متوسل:

- أرجوكم، لا تؤذوني. أنا أعيش هنا.

قالت سارة التي تقدمت من خلفي وهي تنظر نحو الفتاة بتركيز شديد:

- حمدًا لله، إنها بشرية، لا داعي للخوف.

ثم اقتربت من الفتاة، وسألتها:

- ما الذي يجعلك تعيشين هنا؟

خرجت الفتاة ببطء من تحت الطاولة، وهي لا تزال ترتجف، وقالت بصوتٍ خافت:

- إنه منزل حبيبي. ليس لدي مكان آخر.

سألتُها مباشرةً:

- هل تقصدين حسام؟

نظرت إليّ بخوف ثم أومأت برأسها إيجابًا.

***

بعد أن هدأنا قليلًا، واطمأننا أن تلك الفتاة ليست مؤذية، واطمأنت الفتاة أننا لسنا جنًّا أو محققين من الشرطة، جلسنا حول الطاولة التي كانت تختبئ تحتها، ووضعنا المصباح على سطحها، موجهين ضوءه بعيدًا عن أعيننا.

بدت الفتاة مرتبكة وتائهة، وظلت تحدق نحو سطح الطاولة في شرود، بينما تبادلنا نحن نظرات مليئة بالتساؤلات، حتى قطعت سارة الصمت بسؤالها:

- ما اسمكِ أيتها الجميلة؟

ابتلعت الفتاة ريقها، وقالت دون أن ترفع عينيها:

- رقية.

فسألتها سارة:

- ما قصتكِ يا رقية؟ وما الذي يجبركِ على البقاء في بيت يخيم الخير مثل هذا؟

أجابت بتردد:

- منذ ست سنوات وأنا أعيش هنا. في البداية، كان حسام يعطف عليّ، وسمح لي بالبقاء معه بعد أن علم أنني يتيمة بلا أهل أو مأوى. ثم تطورت علاقتنا مع الوقت وتحولت إلى حبٍّ كان من المفترض أن ينتهي بالزواج، لكن كل شيء تغير قبل ثلاث سنوات.

فنظرتُ إليها بترقب وقلت:

- لكنه لم يُسجن إلا مؤخرًا، ماذا حدث قبل ثلاث سنوات؟

ترددت رقية قليلًا، وكأنها لا ترغب في التحدث، فقالت سارة مطمئنة لها:

- لا تقلقي يا رقية، لن نؤذيكِ، نحن هنا فقط لنساعد حسام إننا نظن أنه في خطر كبير.

وأردفت إليها:

- هل شاهدتِ الفيديوهات التي انتشرت عن أفعاله في السجن؟

هزت رقية رأسها بالإيجاب دون أن ترفع نظرها عن الطاولة، فسألتها سارة مجددًا:

- وهل تعلمين أنه اختفى بعد تلك الفيديوهات هو وثلاثة سجناء آخرين؟

هزت رأسها مرة أخرى بالإيجاب، فتابعت سارة بسؤال مباشر:

- هل تعرفين أين ذهب؟

هزت رأسها نافية، فقلتُ:

- إنني أعرف أين ذهب.

رفعت رقية عينيها نحوي للحظة، ثم عادت لتحدق إلى الطاولة، وساد صمت طويل بعدها، فأخرجتُ قلمًا من جيبي، ورسمتُ نجمة ثمانية بها ضلعان طويلان على سطح الطاولة التي تفصلنا. في تلك اللحظة، انفجرت الفتاة في حركة مفاجئة، وضربت المصباح بيدها ليسقط على الأرض بعيدًا وينطفئ، ثم ركضت نحو الغرفة التي توجد فيها النقوش، وأغلقت الباب بسرعة، وكأنها تخشى حدوث شيء ما. فسألتها رزان على الفور:

- ما الذي تخشينه؟! وماذا يمكن أن يحدث بسبب هذه النجمة؟

فنظرت نحونا في ذعر، ثم صرخت فينا:

- اخرجوا من هنا.

فقلت لها بحزم:

- لن نخرج حتى تخبرينا ما تعرفينه.

نظرت إلينا بتوسل، وقالت:

- أرجوكم، اخرجوا وإلا سأبلغ الشرطة في الخارج عن وجودكم.

ردّت سارة بنبرة متحكمة:

- أعتقد أن الشرطة لا تعرف أنكِ تعيشين هنا، وأظن أنهم سيسعدون بسماع قصصك عن حبيبك الساحر. إذا كنتِ تريدين استدعاءهم حقًا، فلا بأس، سأوفر عليكِ الجهد.

ثم تقدمت نحو النافذة وكأنها تستعد للنداء على الجنديين، لكن الفتاة صاحت بسرعة:

- أرجوكِ، لا أملك مكانًا آخر.

فتوقفت سارة عن التقدم، وقالت:

- فلتخبرينا إذًا ما كان يفعله حسام هنا.

قالت في تردد:

- أقسم إنني لا أعرف كل شيء، لكن ما أستطيع قوله هو أن حاله تغير تمامًا بعدما التقى منذ ثلاث سنوات أحدَ السجناء الذين فروا معه من السجن.

سألتُها بدهشةٍ:

- أي واحدٍ منهم؟

قالت:

- محسن السمعاني، تاجر التحف، منذ أن ظهر ذلك الرجل في حياة حسام، وانقلبت حياته رأسًا على عقب.

ثم صمتت كأنها تتذكر شيئًا ما، وتابعت:

- كان حسام شابًا ذكيًا في مجال ترجمة النصوص القديمة، وكان الأبرز بين زملائه في ترجمة المخطوطات الأثرية التي يُعثر عليها في بلادنا، وذاع صيته في ذلك الأمر، حتى جاءه ذلك التاجر ومعه كتاب قديم غريب، وطلب منه أن يترجم نصوصه مقابل وزن ذلك الكتاب من الذهب.

ثم أضافت:

- في الأيام الأولى، وجد حسام صعوبة بالغة في ترجمة الكتاب، وأبلغني في حزن أنه لا معنى للنصوص التي يترجمها، وكأن الكلمات لا تتبع أي قواعد معروفة، وبعدما يئس من قدرته على ترجمة تلك النصوص قرر أن يعيد الكتاب إلى صاحبه في لقائهما التالي، لكن قبل أن يعيده، جُرحت يده صدفةً من بروز حديدي في الطاولة التي كان يوجد عليها الكتاب، وتساقطت بضع قطرات

من دمه على الكتاب، فامتصتها أوراقه بطريقة غريبة، وكأنها كانت جائعة لها.

ثم أخذت نفسًا عميقًا، وأكملت:

- بعدها بأيام بدأ حسام يتصرف بغرابة، وبدأ يرسم بعض الرموز على الجدران، ثم أخبرني أنه استطاع أن يقرأ ما بين السطور، وأن ذلك الكتاب عبارة عن مجموعة من التعاويذ الموجودة في أرض تُسمى أرض الجن.

نظرت أنا ورزان إلى بعضنا بعضًا، بينما أردفت رقية:

- حاولتُ أن أبعد عنه ذلك الكتاب، وكدت أحرقه، لكنني فوجئت به يمسك بي بشدة، ويتمتم بكلمات غريبة، ثم تحولت عيناه إلى لون أحمر غريب وهو يحكم قبضته عليّ، فأدركت حينها أن شيئًا شريرًا قد سيطر عليه.

سألتها رزان بصوت خافت:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

أجابت رقية:

- من حسن حظي استطعتُ الإفلات منه حينها، وتركت البيت وهربت بعيدًا، ونمت في الشوارع حتى أجد مأوى، لكن بعد أيام جاء لي معتذرًا، ووعدني بأنه سيعيد الكتاب للتاجر، فعدت معه، لكنه أخلف وعده، ولم يُعد الكتاب، وواصل فك تعاويذه.

ولأنني أدركت خلال أيامي بالشارع أنني مشردة دون هذا البيت، اضطررتُ إلى البقاء معه. لأراه كل يوم وهو يواصل رسم تلك النقوش على الجدران، وأرى حاله وهو يتدهور من يوم لآخر،

وأرى ذلك البيت وهو يتحول من مكان مفعم بالحياة إلى مكان ميت، كما ترونه الآن.

ثم صمتت للحظة، وتابعت:

- ثم بدأت الكوابيس تطارده كل ليلة، وبدأ يتمتم بكلمات غريبة في أثناء نومه، وكأنه يردد التعاويذ نفسها في كوابيسه. لم أتمكن قط من فهم ما يقوله، باستثناء جملة واحدة كان يكررها بوضوح بين الحين والآخر: أنا خادم شيخون الوفي.

فهمستُ مذهولًا:

- شيخون؟!

قالت:

- نعم، كان يردد هذا الاسم باستمرار في أثناء نومه.

انتفض قلبي بقوة، ونظرتُ إلى رزان التي كاد وجهها ينفجر من اندفاع الدماء إليه، بينما تساءلت سارة إلينا في ذهول:

- شيخون؟ ساحر واحتكم القديم الذي أخبرتموني عنه في قصصكم عن أطفال البئر؟

فسألتنا رقية في رعب:

- هل تعرفون صاحب هذا الاسم؟!

فقلت لها:

- نعم، إنه من أشر البشر الذين مروا على تاريخ البلد الذي وُلدنا فيه.

فتساءلت بعينين متسعتين من الخوف:

- أرض الجن؟

قلت:

- قديمًا كانت تُسمى أرض الجن، لكنها الآن أرض طيبة يعيش فيها أناس طيبون، ونعتقد أن حسام ذهب إليها لهدف خبيث لا نعرفه. وقد تأكدنا من ذلك بعد ما أخبرتِنا به الآن.

ثم قالت رزان، محاولةً تهدئة الفتاة بصوت مطمئن:

- كما قالت لكِ سارة، لن نؤذيكِ. نحن نريد فقط معرفة ما يجري؛ لأن هناك أناسًا يهمنا سلامتهم. يبدو أن حسام كان شابًا طيبًا، والدليل أنه وفر لكِ هذا المأوى، لكن الكتاب أفسد حياته. أرجوكِ أخبرينا ببقية ما تعرفينه، لعلنا نستطيع فعل شيء ننقذ به حبيبك، ونحمي أهلنا إذا كانوا في خطر بعد فك تلك التعاويذ.

فصمتت لبعض الوقت وكأنها تفكر في قرارها بالإكمال أم لا، حتى قالت بعد تردد:

- استمر حسام في كتابة الرموز على الجدران، ثم اكتشفتُ بعد ذلك أنه بدأ الاطلاع على كتب سحرٍ قديمة أحضرها له تاجر التحف. وللأسف، بدأ يطبق بعضًا من سحره الأسود عليّ، ولأوقاتٍ كثيرة كنت أنهض من نومي لأجد أيامًا عديدة قد مرت دون أن أشعر، وأكتشف أنني فعلت أشياء لا أتذكر شيئًا عنها، حتى أخبرني ذات يوم أنه أصبح يجيد السيطرة على الآخرين ومنهم أنا.

تذكرتُ رجال الشرطة الذين ظهروا في مقاطع الفيديو ممتثلين لأوامره. بينما تابعت رقية بنبرة أسى واضحة:

- حتى عندما سُجن قبل شهرين، لم أدرك أنه لم يعد معي في البيت. لقد وضعني تحت تأثير سحره قبل رحيله، فلم أشعر بغيابه مطلقًا. كنت أشبه بآلة مبرمجة، أقضي حاجاتي اليومية دون أن أعي أو أتذكر شيئًا مما فعلته.

ثم تنفست بعمق، وتابعت:

- لم أستعد وعيي إلا مع هبوب العاصفة. وكأن قوة رياحها أبطلت السحر الذي كان يسيطر عليّ. حينها فقط أدركت ما حدث لي خلال تلك الفترة، وتذكرت بعض تفاصيلها بوضوح.

نظرت إليها رزان بدهشة، وسألتها:

- لكن لماذا يُبقيك تحت سحره كل هذه المدة؟

فأجابت رقية بمرارة بعد هنيهة من التفكير:

- لأنه لم يكن ليستأمن أحدًا غيري على الكتاب.

حينذاك، تدخلتُ وسألتها بترقب:

- ألم يأخذ الكتاب معه إلى السجن؟

فصمتت للحظات، وكأنها تحاول اتخاذ قرار، ثم رفعت عينيها إلينا وقالت بصوت خافت ومضطرب:

- لا.. الكتاب لا يزال هنا.

(18)

انتفضتُ من مكاني عندما قالت رقية إن الكتاب لا يزال في بيت حسام، وسألتُها في لهفة:

- أين هو؟

نظرت نحو الأرض وقالت بصوت متردد:

- دفنه حسام قبيل سجنه في قبو المنزل. جعلني أحفر حفرة تتسع للكتاب بنفسي، ثم وضعه هناك وغمره بطبقة من الوحل. كان ذلك في الوقت الذي كان يسيطر فيه عليّ بالكامل.

ثم تابعت بنبرة مشوشة:

- منذ دُفن الكتاب، كان صوت حسام يتردد في رأسي باستمرار، يأمرني أن أكون مستعدة لحمله إلى المكان الذي سيحدده لي، وكان دائمًا يخبرني أن الوقت قريب. وفي صباح يوم هبوب العاصفة، أصبح الصوت أكثر إلحاحًا، وأمرني بإخراج الكتاب والانتظار حتى يوجهني إلى وجهتي.

ثم توقفت للحظة، قبل أن تتابع:

- أخرجتُ الكتاب من حفرته بالفعل، وانتظرت. لكن مع اشتداد العاصفة، انقطع صوت حسام فجأة عن رأسي، وكأن قوة الرياح

أبطلت السحر الذي كان يسيطر به عليَّ. وبدأت أستعيد وعيي شيئًا فشيئًا، لأدرك أنني كنت مغيبة تمامًا طوال تلك الأيام.

ثم أردفت بصوت مضطرب:

- حينها، أصابني خوف شديد، ولم أعرف ماذا أفعل. فأعدتُ الكتاب إلى الحفرة التي كان مدفونًا فيها، وغطيتُه مجددًا بالوحل.

ثم هزت رأسها بأسى وقالت:

- وبعد أيام، علمتُ مثل الجميع بأمر اختفاء حسام والسجناء الثلاثة الآخرين في العاصفة.

فسألتها رزان بترقب:

- ألم يخبرك الصوت بالمكان الذي كان حسام يريدك أن تأخذي الكتاب إليه؟

هزت رقية رأسها نافية، وقالت بصوت خافت:

- تحررتُ من سحره قبل أن يخبرني.

فساد الصمت بيننا للحظات، تبادلنا خلالها نظرات مليئة بالأسئلة، قبل أن أنظر إلى رقية وأقول بحزم:

- خذينا إلى القبو.

فأومأت برأسها إيجابًا، ثم نهضت ببطء وتحركت نحو المصباح الذي كان قد سقط على الأرض، والتقطته، ثم أضاءته، وبدأت تقودنا نحو باب صغير في المطبخ. فتحته، ليكشف عن درج ضيق يؤدي إلى الأسفل. نزلنا خلفها بحذر، واحدًا تلو الآخر، حتى وصلنا إلى القبو، الذي كان مظلمًا وذا أرضية رطبة إثر المياه التي تنشع فيها. بعدها، وجهت رقية ضوء المصباح إلى ركن مظلم، وقالت في توترٍ بالغ:

- هناك.

فأمسكت سارة بيدي وسألتني:

- هل أنت متأكد أنك تريد فعل ذلك حقًا؟

قلت:

- نعم.

ثم تقدمتُ نحو البقعة المُضاءة بالمصباح الذي تمسكه رقية، وانحنيتُ، وبدأتُ أحفر بيدي، حتى شعرتُ بشيء صلب تحت يدي، وبدأت تظهر قطعة قماش سوداء، ملفوفة بإحكام حول شيء مستوٍ. فواصلتُ إزالة الوحل المحيط بها بعناية، حتى تمكنتُ من إخراجها. ثم رفعتُ القماش ببطء، فظهر الكتاب أمامنا.

كان الكتاب قديمًا للغاية، غلافه الجلدي مُشقق من الزمن، وفي منتصف ذلك الغلاف كانت هناك دائرة كبيرة محفورة، ومغطاة بطبقة من الفضة، تحيط بها نجوم ثمانية صغيرة، تلمع بانعكاس خافت.

همست رزان بصوت متوتر عندما رأتني أحدق إلى الكتاب وكأنني مسحور:

- لا تفتحه الآن، لا نعرف ما قد يحدث.

لكنني لم أستطع مقاومة الفضول. ورفعتُ الغلاف ببطء شديد، لكن سارة وضعت يدها على كتفي، وقالت بجدية:

- يوسف، إن رزان محقة، لا داعي للتسرع، علينا أن نأخذ الكتاب إلى الطبيب سلطان أولًا. ونعرف رأيه بشأن ما أحدثه ذلك الكتاب بحسام.

نظرتُ إلى الكتاب للحظات، ثم أغلقتُه مستسلمًا لنصيحة رزان وسارة. ثم صعدنا من القبو بخطوات سريعة، والكتاب بيدي. وعندما كنا على وشك المغادرة، قالت رقية:

- أرجوكم، لا تدعوا هذا الكتاب يقع في الأيدي الخطأ، واحذروا من أن تلامس أي دماء صفحاته.

أومأنا برؤوسنا إيجابًا، ثم شكرناها على ما قدمته لنا من معلومات، ثم خرجنا من المنزل بحذر، وعندما عدنا إلى السيارة، تفاجأ جدي حين رأى الكتاب بين يدي. وسألني بقلق:

- ما هذا الكتاب؟

فقلت له:

- قُد بنا السيارة، وفي الطريق إلى البيت سأروي لك كل شيء.

***

قصصنا على جدي ما أخبرتنا إياه رقية عن حسام وتجاربه الغامضة مع الكتاب، فظهر القلق على وجهه بوضوح، ثم نظر إلى الكتاب بعينين حذرتين، وقال بنبرة حازمة:

- لن نأخذ هذا الكتاب إلى داخل البيت.

ثم صمت للحظات، وكأنه يبحث في ذهنه عن مكانٍ نضع به الكتاب، قبل أن يكمل:

- هناك سيارة قديمة في حديقة البيت الخلفية، سنضعه في داخلها، ولن يقترب منه أحد حتى أجد شخصًا موثوقًا لديه القدرة على طرد الشرور التي يحويها.

فاعترضتُ بنبرة متذمرة:

- لكننا نريد أن نعرف ماذا ينوي حسام فعله في أسرع وقت.

رد جدي بحزم لا يقبل الجدل:

- هذا الكتاب يحمل سحرًا خطيرًا. لا يمكننا المخاطرة بمحاولة فهمه بمفردنا. في صباح الغد سأبحث عن روحاني مختص يمكنه السيطرة على هذا السحر وفهم ما الذي جرى لحسام بعد أن قرأ تلك التعاويذ.

أردت مقاطعته، لكنه أشار نحو الحديقة الخلفية في صرامة، فامتثلتُ لأمره، وتقدمتُ إلى هناك، ووضعتُ الكتاب داخل السيارة القديمة. بينما وقف هو ورزان وسارة يراقبونني بحذر، وكأنهم يتوقعون حدوث شيء غير طبيعي في أي لحظة. حتى عُدت إليهم، فاستأذنت سارة بالعودة إلى منزلها. وبعدها طلب جدي مني أنا ورزان الدخول إلى البيت والنوم، ونسيان أمر هذا الكتاب مؤقتًا، فتوجهتُ إلى غرفتي وحاولتُ النوم لكن عقلي كان مشغولًا كليًّا بالكتاب. ومع كل دقيقة تمر كانت هناك رغبة قوية تشتعل في داخلي لاكتشاف أسراره. وبعد كل المحاولات مني لمقاومة تلك الرغبة، لم أستطع.

***

في منتصف الليل، وبعد أن تأكدت من أن الجميع نائم، نهضتُ بهدوء من سريري، وتسللتُ بخطوات حذرة خارج البيت نحو الحديقة الخلفية. ثم أخذتُ الكتاب من السيارة القديمة، وجلستُ على الأرض تحت ضوء القمر الخافت. ثم فتحت الكتاب بحذر.

كانت الصفحات قديمة مهترئة مليئة بالرموز الغريبة والخطوط المتشابكة التي لم أتمكن من فهمها. حاولتُ التدقيق في التفاصيل، بحثًا عن أي شيء مألوف يمكنني البدء به، لكن كل شيء ظل مبهمًا.

فجأة، خطرت لي فكرة جريئة، فنظرتُ إلى يدي وذهني يستحضر ما قالته رقية عما حدث بعدما سقطت دماء حسام إلى الكتاب، لكنني

ترددت، وعدت لتقليب الصفحات بسرعة وكأنني أعطي لنفسي فرصة أخيرة لفهم أي شيء قبل الإقدام على هذه الخطوة الجريئة، لكن دون جدوى. فأغمضتُ عيني، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أجرح إصبعي بحافة ورقة من الكتاب، لتتساقط بضع قطرات من دمي على الصفحات. لكن، لا شيء حدث. الصفحات بقيت كما هي، غامضةً ومبهمةً. فشعرتُ بخيبة أمل كبيرة، وكنت على وشك إغلاق الكتاب لولا أنني التقطت رائحة خافتة تنبعث منه، كانت بالكاد ملحوظة، لكن رغم ذلك، شعرتُ بأنها مألوفة. فأخذتُ أقلب الصفحات ببطء ملامسًا أنفي لها، حتى وصلت إلى صفحة كانت تنبعث منها الرائحة بقوة أكبر من غيرها، لكني لم أجد شيئًا مميزًا في تلك الصفحة. فواصلت تقليب الصفحات وأنا أقترب بأنفي، وبين حين وآخر كنت أتوقف عند الصفحات التي تزداد بها الرائحة، لأفحصها وأنا أحاول بكل طاقتي تذكر أين شممتُ تلك الرائحة من قبل، لكن ذاكرتي لم تساعدني. فأغلقتُ الكتاب وأعدته إلى السيارة، ثم عدت إلى غرفتي مستسلمًا، وبدأ النوم يسيطر عليَّ، حتى فتحتُ عيني فجأة عندما تذكرتُ مصدر تلك الرائحة، لأهمس إلى نفسي:

- إنها رائحة زنزانة بلال الريس، النبتة!

ثم قفزت من سريري، وبحثت عن الغصن ذي الثلاث ورقات الذي أحضرته من السجن، وشممت رائحته، فانفرجت أساريري بعدما تأكدت أنها نفس الرائحة، وأخذتُ الغصن على الفور، وعدت إلى الكتاب.

عندما وصلتُ إلى الصفحة التي كانت تنبعث منها الرائحة بدرجة أقوى، وفحصتها بدقة مرة أخرى، لاحظتُ في هذه المرة وجود بقعة صفراء باهتة على الجزء السفلي من الصفحة، صغيرة للغاية وبالكاد مرئية، وكأنها آثار ورقة جافة من تلك النبتة، ففكرتُ قليلًا، وبعد لحظات من التردد قطعتُ ورقة من الغصن، ووضعتها فوق تلك الصفحة.

في تلك اللحظة، حدث ما لم أكن أتوقعه. النقاط الصغيرة على أطراف ورقة النبتة بدأت تشع بنور فيروزي ساطع، وفي لحظة خاطفة، بدأت تظهر على الصفحة المقابلة كلمات لم أكن أراها من قبل. فارتجف قلبي بشدة، وتسارعت أنفاسي. وفكرت أن أصرخ على رزان وجدي ليأتيا ويريا ما يحدث، لكنني لم أستطع التوقف عن التحديق إلى الكلمات التي ظهرت أمامي. لم تكن رموزًا مشابهة لرموز الكتاب الواضحة أو التي اعتدتها على الجداران في واحتنا، وإنما كانت كلمات مرتبة بحروف تبدو من لغة غريبة لا أعرفها ولا أفهم منها شيئًا. ثم فجأة، بدأ صوتٌ لشخص غير مرئي يهمس في أذني، بنبرة تشبه فحيح الأفعى:

- الكلمات تُسمع، لا تُقرأ.

كان الصوت خافتًا، لكنه تسلل إلى أذني بوضوح. ثم زاد بريق بعض السطور المكتوبة دونًا عن غيرها، فعاد الصوت يهمس، وكأنه يقرأ لي تلك السطور:

- زِغتور ناهاكرام فالاريم..

فيمورا شِنكا هارابيم كيمارا..

هوراي شينفار تاراش نوفريم..

تِكال زيمارا روشايين..

ثم توقف الصوت، وانطفأ النور الفيروزي تدريجيًا. فاختفت الكلمات التي ظهرت مع وضع ورقة النبتة على الصفحة المقابلة، باستثناء السطور التي كانت متوهجة، إذ تحولت إلى لون أسود باهت، يتصاعد منه خيط رقيق من الدخان، وكأنها قد حُرقت على الصفحة. فشعرتُ بالرعب يتسلل إلى أعماقي، وخفق قلبي بعنف حتى شعرت أنه سيتوقف. لكن سرعان ما تذكرت أهلي والخطر الذي يهددهم، فاستجمعتُ قواي وقلت بصوت خافت، يرتعش بالقلق:

- ما الذي قلته؟ لم أفهم شيئًا.

فعاد الصوت يهمس، بصوت أشد رهبة:

- أطعمني مرة أخرى.

للحظة، لم أفهم ما يقصده، لكني تذكرتُ أوراق النبتة. فقطعتُ ورقة أخرى من الغصن ووضعتها فوق الصفحة نفسها. فاشتعل النور الفيروزي من جديد، لكنه كان ساطعًا جدًا، لدرجة أن عيني لم تتحملاه، فأغلقتُ جفوني بقوة. وحينها بدأ الصوت يهمس في أذني بنفس النبرة الفحيحية، وكأنه يترجم لي الكلمات التي قالها من قبل:

- يا من تحرس أعمق الأسرار..

أظهر لي ما لا يراه سوى الملعونين..

افتح الأبواب المغلقة..

وادعُ الحراس الأبدية لتعود إلى النور.

ثم سكت، فانطفأ النور الفيروزي. فتحت عيني متألمًا، فوجدتُ السطور التي كانت باللون الأسود المحترق قد اختفت هي الأخرى، وعادت الصفحة إلى حالتها قبل وضع أوراق النبتة، كأن شيئًا لم يكن. فأغلقتُ الكتاب في الحال، وجسدي يرتعش من الصدمة والرعب، بينما يتساءل عقلي: ماذا تعني هذه الكلمات؟ ومن الذي يحرس أعمق الأسرار؟ هل هو شيخونَ؟ أم سيدٌ من الجن؟ ونظرت حولي في توتر، خائفًا أن يكون شيء ما قد حدث بعد سماعي تلك التعويذة. لكن كل شيء بدا كما كان.

قبل أن أستمر في التفكير، شعرتُ بحركة في المنزل. كان أحدهم قد استيقظ وأضاء نور الردهة. فأسرعتُ نحو السيارة القديمة، وأعدت الكتاب إلى مكانه، لكن قبل أن أعود للداخل، خطرت لي فكرة غريبة

بعدما نظرت إلى الغصن في يدي ولم أجد ما يتبقى من أوراقه إلا ورقة واحدة، فغرستُ الغصن في تربة الحديقة بعيدًا عن السيارة، وأنا أهمس لنفسي:

- يحتاج الكتاب إلى أوراق كثيرة لفهم أسراره بالكامل. لعل هذا الغصن ينمو في هذه التربة. وإلا كان عليَّ العودة إلى السجن مجددًا من أجل إحضار المزيد من أوراق النبتة.

ثم عدت إلى الداخل، فأدركتُ أن جدي قد نهض من نومه وذهب إلى المرحاض، فتسللتُ إلى غرفتي. وحاولتُ النوم، لكن الأفكار ظلت تعصف برأسي، حتى غلبني النعاس. ولم أنهض إلا في صباح اليوم التالي عندما سمعتُ رزان تصرخ إليَّ في ذعرٍ شديد:

- انهض يا يوسف! هناك شيء غريب عليك أن تراه في الحديقة.

ثم ركضت إلى الخارج، فقفزتُ من سريري وركضتُ خلفها وأنا أفكر في التعويذة التي سمعتها في الأمس، حتى توقفتُ عند باب البيت الخلفي عندما استقبلتني رائحة غريبة في الهواء تنبعث من الحديقة الخلفية. كانت نفس رائحة النبتة، لكنها أقوى وأكثر نفاذًا، قبل أن تتسع حدقتا عيني وأتجمد مكاني في صدمة عظيمة، عندما وجدتُ الغصن الذي زرعته قبل ساعات قد نما بسرعة لا تُصدق. وصار أشبه بشجرة زاحفة تتشابك فروعها وأوراقها، وتمتد من الحديقة الخلفية نحو الحديقة الأمامية، ملتفة حول الأعمدة والجدران، وكأنها تبحث عن شيء ما. فركضتُ نحو الحديقة الأمامية مذهولًا، لأتوقف مكاني وأضرب رأسي كي أتأكد أنني لست نائمًا أو عالقًا في حلم غريب عندما رأيت النبتة تلتف حول نفسها في وسط الحديقة الأمامية، مشكّلة على الأرض نجمة ثمانية كبيرة، كانت النقاط الصغيرة في أوراقها تضيء بلون فيروزي أكثر سطوعًا من باقي النبتة، وفي منتصف هذه النجمة كان

طرف الغصن قد انغرس في الأرض، ويواصل تمدده نحو باطنها كأنه يحفر نحو شيء مخفي.

قال جدي الذي كان يقف على بعد خطوات من النجمة بنبرة تجمع بين الذهول والخوف:

- هذا مستحيل، كان علينا أن نبقي الكتاب والغصن بعيدين عن البيت!

أما أنا فشعرتُ بشيء غريب يجذبني نحو مركز النجمة. فتقدمتُ بحذر، ثم خطوت إلى مركزها، وبدأت أحفر بيدي في التربة متتبعًا طرف النبتة. لم يكن الحفر صعبًا، وكأن الغصن كان يفتت الأرض من حوله.

بعد بضع دقائق من الحفر، بدأت أرى طرف الغصن ملتفًا بقوة حول شيء صلب، وبدا وكأنه يحاول انتزاعه من موضعه. مددت يدي بحذر، وأمسكت بذلك الشيء ثم أخرجته، فوجدته صندوقًا خشبيًا صغيرًا، قديمًا وباهتًا. نظرتُ إلى جدي ورزان اللذين كانا يحدقان إليّ في ترقب شديد، ثم فتحتُ الصندوق ببطء، لأجد في داخله عقدًا بديعًا، يتدلى منه إطار فضي يحتضن حجرًا فيروزيًا في حجم حبة التمر، لأهمس إلى نفسي في ذهول:

- قطعة من أحجار زميرا!

(19)

عمران

كان الجو في ساحة الحصن السداسي مشحونًا بالخوف والرعب. الأهالي تجمعوا حولي، بوجوه شاحبة، وأجسادٍ ترتجف من القلق، وجفونٍ مفتوحة مُثبتة بالصمغ، كانت هي الحاجز الوحيد الذي يمنع أطفال البئر من انتزاع اللحم من عظامهم.

وقفتُ في قلب الساحة أراقب ما يحدث بعينين لا تستطيعان تجاهل الضياع الذي يكسو الوجوه، بينما تتردد أصوات البكاء والخوف في كل زاوية، فأسوار البيوت التي حمتهم لقرون أصبحت الآن ركامًا، ومعها ضاعت حياة الكثيرين ممن أحبُّوا. وآجلًا أم عاجلًا، سيصبح الباقون في عداد الموتى.

- إن الحصن السداسي هو الحل الوحيد.

تذكرت تلك الكلمات التي بدت وكأنها وُضعت في رأسي بقوة خارقة بعد أن نجحتُ في الهروب من تماثيل أطفال البئر التي هاجمتني في القاعة الفيروزية أسفل بيت السيد أيوب، وصعدت عبر الأنفاق إلى سطح الأرض مرة أخرى، لأجد الواحة تغرق في الفوضى. الجميع كانوا يصرخون في رعب وحيرة، لا يعرفون ماذا يفعلون مع انهيار الأسوار جميعها والتهام أطفال البئر لمن لم يثبِّت جفونه. في الوقت نفسه، انتشر الدخان في أرجاء الواحة، وصرخت إحدى النساء بأن بيت

السيد عقيل قد احترق، وأنه مات، واحترق معه مخزون الصمغ بالكامل، فازداد الهلع، وساد الهرج المكان، فصرختُ فيهم بأن يركضوا نحو الحصن السداسي، وحملتُ من لا يستطيع الحركة إلى هناك.

اعترض البعض بحذر وخوف، قائلين إن الحصن السداسي غير محصَّن، ولن يحميهم من أطفال البئر عندما ينفد صمغهم، لكن الصوت في رأسي كان يكرر دون توقف:

- ادفعهم إلى الحصن السداسي، يا كارم. ادفعهم فحسب.

وسط هذه الفوضى، بدأت أجزاء من ذاكرتي تعود إليَّ. اسمي الحقيقي ليس عمران، كما أطلق عليَّ في الواحة، بل أنا المهندس المعماري كارم الرفاعي. ثم تذكرت ما حدث لي خلال الأشهر الماضية. فهمست إلى نفسي مذهولًا:

- حسام.. أو سيف، كما يُسمَّى هنا.

وبدأت أبحث بين الوجوه المحيطة بي عن ذلك الساحر الذي دفعني إلى هذه الواحة، لعلي أجده وأقتله كي أخلِّص هذا العالم من شره، لكنني لم أعثر عليه بين الحشود. فتذكرتُ أنه كان ضيف بيت السيد عقيل، وتساءلتُ وقلبي يدق بقوة داخل صدري:

- هل مات في الحريق الذي دمَّر ذلك البيت؟ أم أنه من أشعل النار ليقضي على مخزون الواحة الرئيسي من الصمغ؟

بعدها، جلستُ بالقرب من منصة الساحة، أسترجع في ذهني كل ما حدث لي قبل وصولي إلى الواحة.

***

كنت مهندسًا معماريًا. رجلًا عاديًا، عشت معظم فترات حياتي مريضًا، حتى عثرتُ على العلاج الذي أنقذني. غير أنني لم أكن أعرف أن هذا الدواء، الذي اعتبرته طوق نجاتي، سيقودني إلى كل هذا. بدأت

القصة عندما أصبت بسرطان الدم قبل سنوات. وأخبرني الأطباء أن الحل الوحيد لنجاتي هو زراعة نخاع العظم، بعد فشل جميع العلاجات التقليدية. بحثتُ لسنواتٍ عن متبرع بنخاع العظم تتوافق أنسجته مع أنسجتي، لكنني لم أجد، لأشعر بأن الحياة تتسرب مني شيئًا فشيئًا. وعندما بلغ اليأس في داخلي ذروته، جاء اليوم الذي غيّر كل شيء، إذ تلقيتُ مكالمة هاتفية من المستشفى التي كنت أتعالج بها في العاصمة، وأخبروني أنهم قد وجدوا أخيرًا متبرعًا، اسمه نعمان، رجل في العقد الرابع من عمره، قال المتحدث عبر الهاتف بجدية أن ذلك الرجل غريب الأطوار، لكن أنسجته تتوافق تمامًا مع أنسجتي، ووافق على التبرع بنخاع العظم، عندما شرح له طبيبي حاجتي الماسة لتلك العملية.

بعد عملية الزرع، شعرتُ بأنني عدت إلى الحياة. جسدي تقبل نخاع العظم الجديد، وبدأتُ استعادة قوتي بعد سريان خلايا الدم السليمة في عروقي. ولكن مع عودتي إلى حياتي الطبيعية، بدأت تحدث لي أشياء غريبة. فصرت أحلم كثيرًا بكوابيس، أو ربما رؤى، أتذكرها بوضوح عندما أستيقظ، حيث أرى نفسي في مكان غامض، محاطًا بأشخاص آخرين، نقف جميعًا أمام حائطٍ مليء بالثقوب الدائرية، وأمامنا حجر كريم يشع نورًا غريبًا. كانت هناك طقوس تُجرى، وكنت أسمع همسات تقول إن دمي هو المفتاح. بعدها أرى نفسي أضع قطرات من دمي على الحائط، فتُفتح في وسطه نافذة ضخمة ينبعث منها نور ساطع يعمي الأبصار.

في البداية، ظننت أن الأمر مجرد هلاوس أو آثار جانبية للعملية. لكن الأحلام تكررت بشكل مزعج، وتطور الوضع إلى أنني أصبحت أستيقظ متعرقًا، وكأنني خرجت للتو من تلك الطقوس.

بحثت عن نعمان، الرجل الذي تبرع لي بنخاعه دون أن أراه، بعدما اشترط على المستشفى ألا يقابلني، ولم يخبرهم عن سبب رغبته تلك.

في البداية، لم أهتم بمقابلته؛ فقد كان الأهم بالنسبة لي هو الحصول على نخاعه فقط. لكن مع مطاردة تلك الكوابيس لي ليلًا ونهارًا، حاولت الوصول إليه، لكنني لم أنجح في ذلك.

ثم فجأة توقفت الأحلام. وبعد وقت قصير، تلقيت مكالمة هاتفية من المستشفى. أخبرني المتصل، الذي كان يعرف أنني أبحث عن المتبرع، أن نعمان قد وصل إليهم جثة هامدة. فربطتُ توقف الأحلام بوفاته، وبالفعل بدأت الأمور تعود إلى طبيعتها. وعدت إلى عملي مهندسًا معماريًا، أحاول تعويض ما فاتني من إنجازات خلال فترات مرضي الطويلة.

***

بعد مرور خمس سنوات على عملية زراعة النخاع، وفي يوم عادي تمامًا، طرق بابي رجل غريب يُدعى حسام الطيب، وقد قدَّم نفسه على أنه مترجم نصوص قديمة. في البداية، ظننت أنه قد أتى في أمر يخص أحد المشاريع التي أعمل عليها، لكنه سرعان ما بدأ يتحدث عن أمور غامضة لم أفهمها. إذ بدأ يخبرني حكايات غريبة عما تُسمى بالأرض الموعودة، وكيف يغادر بعض سكان هذه الأرض إلى عالمنا، ليتم استبدالهم بأشخاصٍ منا يُعرفون هناك بالضيوف، مشيرًا إلى كتاب يمتلكه عن أسرار تلك الأرض. ثم تحدث عن بوابة سحرية بين العالمين تُفتح بدماءٍ نقية من سكان تلك الأرض، فسألتُه مستغربًا:

- لماذا تخبرني هذه الأمور؟ أنا مجرد مهندس.

فنظر إليّ بعينين لا تحملان أي تردد، وقال:

- كان من المفترض أن يكون هناك شخص آخر بدلًا منك. شخص ينتمي إلى تلك الأرض، ويحمل دماء نقية لنسل يعقوب. قضيت العامين الماضيين أبحث عنه، حتى اكتشفتُ أنه مات قبل خمس

سنوات. وبعدما فقدتُ الأمل في إكمال ما خططتُ إليه، أخبرني أحدهم بالصدفة أن ذلك الشخص قد تبرع لك بنخاع العظم.

توقف قلبي للحظة. وشعرت بأن الدماء تجمدت في عروقي، وفلت لساني ناطقًا:

- نعمان؟!

أطلق ابتسامة شريرة رغم وسامته، وقال:

- نعم، نعمان. ذلك الرجل الذي جاء من تلك الأرض قبل عشرين عامًا تقريبًا. كان فاقدًا لذاكرته، فظن الجميع أنه غريب الأطوار. لكنه كان من نسل يعقوب الذين يعيشون في تلك الأرض. نجا من هناك، واستُبدل مكانه بشخص آخر من عالمنا. والآن دماؤه تجري في عروقك، وهذا ما يجعلك الشخص الوحيد القادر على فتح البوابة السرية المؤدية إلى ذلك العالم.

ضحكتُ بسخرية وقلت:

- هذا جنون! أرجوك، لا تضيِّع وقتي.

ابتسم بهدوء، وقال:

- قد يبدو لك الأمر كذلك، لكنني جاد تمامًا. هناك عالم آخر، وكنوز وثروات من أحجار كريمة لا يمكنك تخيلها.

حينذاك ارتجف جسدي إذ وثب إلى ذهني الحجر الكريم الذي كنت أراه في الكوابيس التي كانت تطاردني قبل خمس سنوات، وبدأتُ أشعر بأن ما يقوله قد يكون حقيقيًّا، لكني تمالكت نفسي وقلت بحدة:

- لا أعرف شيئًا عما تقوله، وإن كان الأمر حقيقيًّا كما تدّعي، فابحث عن شخص آخر غيري.

فأجاب ببرود:

- كنت سأفعل، لكن البوابة لا تُفتح إلا بدماءٍ من نسل يعقوب، وآخر من نجا من ذلك العالم كان نعمان، وبعد موته، أصبحت أنت الوحيد الذي يحمل مفتاح الوصول إلى ذلك العالم.

تملكني الرعب وأنا أتذكر نافذة الضوء التي كانت تُفتح في كوابيسي عندما أضع دمي على الحائط المثقوب، ثم صرخت فيه:

- اخرج من منزلي!

فابتسم ببرود وهمَّ بالمغادرة، لكنه استدار قبل أن أغلق الباب وقال:

- سأعود إليك عندما أجد بذور النبتة التي تكشف لي بقية أسرار الكتاب. وحينها، ستأتي معي سواء أردت ذلك أم لا.

في الأيام التالية انشغل ذهني كليًّا بما قاله ذلك الرجل، لكني حاولت إقناع نفسي بأنه مجرد مجنون جاء إليَّ ليهذي بخرافات تلاقت صدفةً مع كوابيسي القديمة، وقررت أن أنسى تلك المقابلة وأكمل حياتي. لتمر عدة أشهر، كنت قد نسيت خلالها أمر ذلك المجنون، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أتي فيه رجل آخر إلى بيتي وهو يحمل حقيبة سوداء منبعجة. وقبل أن أتمكن من سؤاله عن هويته أو سبب زيارته، اقتحمت الشرطة المكان. لتُلفق لنا تهمة تجارة الآثار بعد أن تبين أن تلك الحقيبة مليئة بالقطع والمخطوطات الأثرية. لم أصدق ما كان يحدث، حتى اكتشفتُ لاحقًا أن حسام هو من دبر لي تلك المكيدة، بمساعدة تاجر التحف محسن السمعاني، الذي جلب لي الحقيبة.

***

في السجن، قابلت حسام مرة أخرى، ابتسم بخبث وقال:

- ألم أخبرك أنني سأعود؟

سألته والغضب يشتعل في داخلي:

- لماذا أنا هنا؟

رد ببرود شديد:

- عليك الاختيار بين قضاء خمسة عشر عامًا في هذا المكان، أو الخروج معي وكسب ثروة عظيمة تؤمّن لك مستقبلك ومستقبل أولادك من بعدك.

قلت مصرًا:

- لا أعرف شيئًا عما تريده مني.

قال:

- كل ما أريده هو أن تأتي معي، وتردد تعويذة سأمليها عليك، ثم تقطر بضع قطرات من دمك على البوابة، وبعدها سينتهي كل شيء.

سألته بسخرية:

- وكيف سنخرج من هنا؟

قال وهو ينهض:

- جميع الجنود هنا تحت سيطرتي، لقد تكفل محسن برشوتهم، ومن لم يقبل الرشوة، سأتولى أمره بما لدي من قدرات.

صرختُ فيه:

- لن أطيعك حتى لو أعطيتني كنوز الدنيا.

فأطلق ابتسامته الماكرة، ثم تحرك نحو زنزانته دون أن يلتفت.

***

في محاكمتي الأولى، أقسمتُ للقاضي بأنني بريء وأن تلك التهمة قد لفقها لي حسام ومحسن من أجل مساعدتهما في أمرٍ خطير يخططان له، لكنه لم يصدقني، وفاجأني في نهاية الجلسة بالحكم عليّ بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا، كما قال حسام. صرختُ إلى القاضي

بأنني بريء، لكن أحد الجنود سارع بوضع شريط لاصق على فمي لإسكاتي، حينها نطق القاضي بالحكم نفسه على محسن السمعاني، لكنه بدا هادئًا، وكأنه واثقٌ من أنه لن يقضي العقوبة داخل السجن، لكن ما لفت انتباهي هو ذلك السجين الثالث الذي كان معنا في قفص المحاكمة، والذي أمر القاضي بتأجيل النظر في قضيته، بلال الريس، باحث النباتات. كان محسن يحدق نحوه بطريقة غريبة، وبدا على وجهه التذمر من قرار القاضي بتأجيل قضيته، لأتذكر أمر بنور النبتة التي تحدث عنها حسام في مقابلتنا الأولى في بيتي.

في طريق العودة من المحاكمة، كنت أنا ومحسن وبلال في سيارة الترحيلات مع جنود الشرطة، كان بلال صامتًا، ينظر نحوي بين الحين والآخر، بينما يدندن محسن في برود، وكأنه لم يُعاقب بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا للتو.

عندما وصلنا إلى السجن، كان حسام ينتظرنا في الساحة. تقدم محسن نحوه بثقة، بينما تقدمتُ أنا منهارًا إلى زنزانتي، لكن قبل أن أدخل إليها، قال لي بلال بصوتٍ مرتعش:

- إنه ساحر لعين، لا تستجب له.

وأردف متلعثمًا وهو يفتح باب زنزانته:

- لن أعطيه ما يريد، حتى لو أمر القاضي بإعدامي.

ثم تابع بالتلعثم ذاته:

- لن يتمكن من فرض سحره الأسود عليَّ، ولا أعتقد أنه يستطيع سحرك أنت أيضًا، وإلا كان قد فعل ذلك من البداية.

تسارعت دقات قلبي عند سماع تلك الكلمات، وتذكرت حديث حسام لي في يومي الأول بالسجن، حين أخبرني أن لديه قدرات خاصة يستطيع

بها تهريبي إذا وافقت على طلبه، وتساءلتُ في نفسي؛ هل كان يقصد بتلك القدرات السحر الأسود؟! عندها جال في ذهني أن دماء نعمان التي تجري في عروقي هي ما منعته من فرض سحره عليّ، وإلا جعلني أذهب إلى تلك البوابة رغمًا عني.

في ذلك الوقت، أدركت أن بلال قد لُفقت له تهمة هو الآخر، وأي تهمة؟ القتل! ومع ذلك، ظل هذا الشاب مصممًا على ألا يسلِّم حسام البذور التي يمتلكها. حاولتُ لاحقًا أن أفهم من بلال سر قوة تلك البذور أو مكانها، لكنه لم يخبرني أيَّ شيء، خوفًا من أن أفشي السر لحسام إذا ضعفت نفسي وقررتُ معاونته. وكان محقًّا، إذ بدأتُ أشعر يومًا بعد يوم في الزنزانة أن براءتي من تلك التهمة شيئًا مستبعدًا، وأن احتمالية بقائي في ذلك السجن لخمسة عشر عامًا أكثر من أي احتمال آخر، حتى مع وجود إعادة نظر في المحاكمة بعد عشرين يومًا، كما كان متبعًا في قوانين بلدتنا، وبدأت نفسي تستسلم شيئًا فشيئًا لما يريده ذلك الشيطان، محدثةً إياي بأنني قد قضيت أغلب حياتي مريضًا، ومن الظلم لها أن أقضي السنوات القادمة سجينًا، لأجد عقلي يفكر بين الحين والآخر في الموافقة على ما حدثني عنه حسام إذا أعطاني وعدًا بإخراجي من هذه المصيبة والابتعاد عني مستقبلًا بعدما أفعل ما يريده، وبعد تشتتٍ وارتباكٍ لأيام، وجدتُ نفسي أذهب إلى زنزانته، وأخبره بأنني موافق على الذهاب معه.

***

كانت زنزانته مختلفةً تمامًا عن باقي الزنازين، رموز وطلاسم منقوشة في كل زاوية تقريبًا، ورسومات بالطبشور الأبيض موزعة على الجدران، وعلى الأرض كانت هناك آثار محترقة تُشكّل نجمةً كبيرة،

كان يجلس في مركزها عندما نظرت عبر نافذة الباب الحديدية قبل أن أستأذنه بالدخول.

في الداخل، شعرتُ بالدهشة من سماح حراس السجن له بإحداث تلك التغييرات في زنزانته، لكنني تذكرت كلام بلال بأنه ساحر يستطيع السيطرة على عقول البعض. وقبل أن أقول أي شيء، أشار إلى رسومات الحائط وقال:

- ألم ترَ هذه الأشياء من قبل في أحلامك؟

نظرتُ نحو الجدران، وهززت رأسي نافيًا، وقبل أن ينطق بأي شيء آخر، قلت:

- إنني موافق على الذهاب معك، بشرط أن تعدني بإخراجي من هذه القضية.

ابتسم ابتسامة ماكرة، وقال في اقتضاب:

- أعدك بذلك.

فسألته:

- متى سنذهب؟

فأجابني:

- لا يزال صديقنا صاحب النبتة يقاوم، لكنه لن يصمد طويلًا. سيستسلم قريبًا، أعدك بذلك.

أومأتُ برأسي إيجابًا، فعاد إلى الجلوس في مركز النجمة المرسومة بالسواد المحترق على الأرض، وعدت أنا إلى زنزانتي.

***

بعد أيام، فوجئت بحسام يأتي إلى زنزانتي ليلًا، سألته متعجبًا:

- هل حان الوقت؟!

أجاب:

- بعد خمسة أيام سنتحرك معًا في سيارة الترحيلات من أجل إعادة محاكماتنا، لكن السيارة لن تذهب بنا إلى العاصمة، بل ستقودنا إلى مكان البوابة السرية للأرض الموعودة.

أومأتُ موافقًا كي يغادر، لكنه أردف:

- لكنَّ هناك رمزًا لا بد أن تُوشم به كي تعبر بنا تلك البوابة.

سألته في قلق:

- أي رمز؟

قال بهدوء:

- لا داعي للخوف.

ثم فوجئت به يفتح باب الزنزانة، ليدخل ثلاثة من السجناء الذين كمموا فمي وقيدوا حركتي، قبل أن يمزق أحدهم قميصي، ليبدأ حسام في نقش وشم على صدري، شعرت معه بحرارة غريبة تغمر جسدي. حاولتُ المقاومة بكل ما لدي من قوة، لكن السجناء شلُّوا حركتي تمامًا، حتى انتهى. فسقطتُ موضعي خائر القوى، وأنا أنظر إلى حراس السجن الذين كانوا يقفون على مقربةٍ يشاهدون ما يحدث دون أن يتدخلوا، ولم تمر لحظات حتى فقدت الوعي.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدتُ وشم النجمة الثمانية قد نُقش على صدري، ومنذ ذلك اليوم، عادت الكوابيس القديمة، لكن هذه المرة كانت أكثر وضوحًا. كنت أرى الواحة، والحصن السداسي، والجدران المثقوبة بالفتحات. وفي كل مرة، كنت أرى نفسي أؤدي الطقوس ذاتها، أضع قطرات من دمي على فتحات معينة تشكل نمط النجمة الثمانية، فتُفتح بوابة عظيمة ينبعث منها ضوء ساطع يعمي الأبصار، فأستيقظ لاهثًا ومتعرقًا.

في لحظة جنون، رسمتُ بالطبشور على باب الزنزانة من الداخل جدارًا يشبه الجدار الذي أراه في أحلامي، ووضعت قطرات من دمي على الفتحات التي أختارها دائمًا في تلك الأحلام. ففوجئت بضوء فيروزي خافت ينبعث من الوشم على صدري للحظة قصيرة، قبل أن يختفي بسرعة، فارتبكتُ بشدة ومسحتُ الرسمة على الفور، ثم ذهبت للتحدث مع حسام، لكنه كان معتكفًا داخل زنزانته طوال تلك الأيام، رافضًا مقابلة أي شخص، حتى نافذة باب زنزانته الحديدية أغلقها بقطعة قماش سوداء، فلم أتمكن من الوصول إليه.

***

في الليلة التي سبقت إعادة المحاكمة، كان السجن يسوده هدوء غير مألوف، قبل أن يقطعه فجأة صراخ مكتوم قادم من زنزانة بلال. كانت أبواب الزنازين مغلقة من الخارج في ذلك التوقيت، فلم أتمكن من الخروج، ووقفتُ خلف نافذة بابي، أنظر في رعب نحو زنزانته وهو يواصل صراخه المكتوم. كان باقي السجناء صامتين، لا يحركون ساكنًا أو يصدرون أي ضوضاء، وكأنهم جميعًا مسحورون. فصرخت بأعلى صوتي مستنجدًا بالحراس لإنقاذه، لكن أحدًا لم يستجب.

بعد دقائق، فوجئت بضابط يخرج من زنزانة بلال ومعه حسام، فأدركت حينها أن حسام كان يعذب بلال من أجل إخباره مكانَ بذور النبتة التي يسعى إليها. دون أن أعرف ما الذي حدث بالضبط في الداخل.

في صباح يوم إعادة المحاكمة، كنا في سيارة الترحيلات، أنا وبلال ومحسن تاجر التحف، ومعنا حسام الذي بدا واثقًا ومسيطرًا. وكانت الأغلال الحديدية تربط معاصمنا معًا. ظل بلال صامتًا ينظر نحو حسام في خوف وارتباكٍ شديدين، وكان يتقيأ بين الحين والآخر قيئًا مخلوطًا بالدم، حتى خنقت رائحة القيء أنفاسنا داخل السيارة، أما محسن فبدا

متوترًا على غير عادته، ولم يتوقف عن هز رجليه بعصبية. قال حسام، غير مكترث برجل الشرطة الجالس أمامنا والذي بدا مغيبًا تمامًا:

- لقد غيرتُ موعد محاكمتي لأرافقكم، ستتحرك بنا السيارة نحو الغرفة الأرضية التي تحتوي على الباب السري لأرضنا الموعودة. وهناك ستأتي صديقتي بكتاب سيد تلك الأرض.

نظرتُ إلى بلال وسألتُ حسام:

- هل حصلت على مرادك منه؟

قال:

- لقد ابتلع الجبان بذرة النبتة، لذا عاقبته وجعلته يبتلع لفافة تحمل رمز النجمة عقابًا له، وهناك سأستخرج هذه البذرة بنفسي.

نظر بلال إلى الأرض في صمت مطبق، والخوف يعصف به، وكأن ما مر به في الليلة السابقة كان أشد مما يمكن تحمله، ثم تحركت بنا السيارة، فأدركت من الوهلة الأولى أنها تسلك طريقًا مختلفًا عن طريق المحكمة الذي سلكته في المرة السابقة، وبينما كان حسام يغلق عينيه ويتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة وكأنه يُجري سحرًا ما، حدث ما بدا أنه لم يكن في حسبانه. إذ أوقف السائق السيارة فجأة، وعندما نظرنا من النوافذ الحديدية لنعرف السبب، فوجئنا بعاصفة ترابية هائلة تمتد إلى عنان السماء، تلوح في الأفق أمامنا. فتح حسام عينيه، وصرخ في السائق ليواصل القيادة، لكنه لم يكد ينهي كلماته حتى أحاطتنا العاصفة من كل جانب، لتضرب دواماتها جوانب السيارة وتملؤها بالتراب الذي غمر أجسادنا. حينذاك، فتح الشرطي المرافق لنا باب السيارة، فنزلنا جميعًا، عاجزين عن الرؤية أو التنفس، أو حتى التحرك بحرية، إذ كانت معاصمنا لا تزال مقيدة ببعضها بعضًا. وبينما كان حسام يصرخ فينا بأن نتحرك خلفه للخروج من العاصفة، سقط محسن أرضًا من شدة الإعياء، ليجبرنا جميعًا على البقاء في أماكننا.

في تلك اللحظة، أدركتُ أن الطبيعة قررت أن تقف في وجه ما يخطط له ذلك الشرير. حتى بلال، وسط المعاناة التي كنا فيها، أطلق ضحكة ساخرة، وقال كأنه يهذي ثملًا:

- كان يريد إخراج البذرة من بطني، لقد أخرجتها بالفعل عندما تبرزت على أرضية الزنزانة قبل خروجي هذا الصباح.

فجأة، اشتدت الدوامات بشكل غير مسبوق، وشعرت بأن جسدي يتلاشى في الهواء. وبعدها لم أشعر بشيء حتى تلك اللحظة التي وجدت فيها بلال يمسك بيدي ونحن نخرج من الدوامة إلى الجانب الآخر، وقد تحطمت الأغلال التي كانت تقيدنا معًا. كنا تائهين ضائعين، أجسادنا مغطاة بالوحل، وذاكرتنا غائبة تمامًا، لا نتذكر من نحن أو كيف وصلنا إلى هنا، حتى وجدنا أهل الواحة في انتظارنا.

***

الآن، وبعد أن استعدت ذاكرتي، ومع حكايات السيد أيوب السابقة عن نشوع الماء في قبر ابنه قبل قدومنا، أصبحت متيقنًا بأن أحدنا قد استُدعي إلى الواحة كضيف ليحل محل ذلك الابن. أما الباقون، فقد جاؤوا معه لأننا كنا جميعًا مقيدين بالأغلال معًا. لا أعرف كيف حدث ذلك، خاصةً أن حظيرة القبور توقفت عن استحضار الضيوف منذ عشرين عامًا. لكن هذا ما حدث، وأفسد خطط حسام.

نعم، كان حسام يريد الوصول إلى الواحة، لكنه لم يكن يخطط للوصول إليها بهذه الطريقة، عبر الدوارة، وفاقدًا لذاكرته. ومع ذلك، فبعد الحريق الذي التهم بيت صانع الصمغ الذي كان يستضيفه، لم يعد لديّ أدنى شك بأنه استعاد ذاكرته قبلنا، وهو الآن يسعى لتحقيق هدفه الذي لا يعرفه سواه، مستخدمًا أكثر الطرق خبثًا وقسوة.

ت أن تقف في وجه ما يخطط
ا التي كنا فيها، أطلق ضحكة

لقد أخرجتها بالفعل عندما
جي هذا الصباح.

بوق، وشعرت بأن جسدي
حتى تلك اللحظة التي وجدت
وامة إلى الجانب الآخر، وقد
تائهين ضائعين، أجسادنا
كر من نحن أو كيف وصلنا
ا.

كايات السيد أيوب السابقة
صبحت متيقنًا بأن أحدنا
لك الابن. أما الباقون، فقد
معًا. لا أعرف كيف حدث
استحضار الضيوف منذ
حسام.

ة، لكنه لم يكن يخطط
فاقدًا لذاكرته. ومع ذلك،
ي كان يستضيفه، لم يعد
الآن يسعى لتحقيق هدفه
ثًا وقسوة.

(20)

يوسف

وقفتُ مشدوهًا أمام حجر زمير المتلألئ الذي وجدته داخل الصندوق الخشبي وكأنني لا أصدق ما أراه. كان العقد بديعًا، والحجر الفيروزي يشع بنور فيروزي باهر يأسر القلوب. تقدم جدي من خلفي في صمت وذهول، ووقف يتأمل الحجر بعمق ودهشة، أما رزان فوقفت بجواري تحدق إلى الحجر بعينين متسعتين، وكأنها لم ترَ شيئًا بمثل هذا الجمال من قبل. ثم مدت يديها ببطء وكأنها مسحورة بالحجر ولمسته بإصبعها. في تلك اللحظة، بدأت النبتة تتغير أمام أعيننا. أوراقها التي كانت تتلألأ بالضوء الفيروزي بدأت تفقد بريقها، وبدأ لونها المائل إلى السواد يتحول تدريجيًّا إلى اللون الأصفر الباهت، ثم بدأ الجفاف ينتشر بسرعة في الأغصان، وكأنها قد استنزفت كل طاقتها لتقودنا إلى هذا الحجر، فقلت مذهولًا:

- إنها تموت!

ولم تمر لحظات بعدها حتى بدأت الأوراق الذابلة تتساقط عن الأغصان الجافة، وتتحول إلى فتات يتطاير مع الرياح الخفيفة التي هبت فجأة. لتختفي الأوراق جميعها في غضون دقيقة أو أقل، وبعدها بدأت الأغصان الطويلة التي كانت تمتد من الحديقة الخلفية إلى الحديقة

الأمامية بين الجدران والأعمدة تتحلل هي الأخرى. انحنيتُ وأمسكت بقطعة صغيرة من غصن متصلب متبقٍّ، وقلت في إحباط بعدما تحلل في يدي وأصبح ترابًا أسودَ:

- كنت في حاجة إلى مزيد من أوراق النبتة لاكتشاف أسرار الكتاب.

نظر جدي ورزان نحوي بأعين متسائلة تشك في أن أجوبة كل ما حدث عندي، لكن قبل أن يسألا شيئًا وصلت سارة إلى البيت، وعندما رأت حجر زمير وقفت مكانها في صدمة لا تقل عن صدمتهما، وتساءلت في ذهول:

- هل هذا هو حجر زمير؟!

أومأتُ برأسي إيجابًا، فسألت وهي لا تزال مذهولة:

- ما الذي فاتني خلال الساعات القليلة الماضية؟!

فقلت وأنا أنظر إليهم:

- سأحكي لكم ما حدث في الليلة الماضية.

ثم بدأتُ أحكي لهم ما حدث ليلًا في أثناء نومهم؛ تسلُّلي إلى الحديقة الخلفية كي أفحص الكتاب، ومحاولتي فك رموزه عن طريق دمي، ورفض الكتاب الاستجابة لذلك، ثم ملاحظتي الرائحة المميزة للنبتة على صفحاته، وما حدث للصفحات بعد وضعي أوراق النبتة عليها، وذلك الصوت الذي همس لي بالتعاويذ، ثم قراري بغرس الغصن في أرض الحديقة على أمل أن ينمو ليعطيني المزيد من الأوراق لاكتشاف باقي أسرار الكتاب، وخلودي للنوم بعدها، قبل أن أستيقظ صباحًا على صراخ رزان.

بعد ذلك، أكملت رزان لسارة ما حدث من النبتة في أرض الحديقة، وكيف قادتنا إلى حجر زمير قبل أن تختفي. ظلت سارة صامتة،

تستمع في تركيز شديد إلى كل كلمة نقولها وكأنها تحررت من الصدمة والذهول، وأدركت أننا أمام واقع لا بد أن نفهمه. حتى انتهينا، فسألت جدي الذي كان واقفًا يراقب كل زوايا الحديقة، وكأنه يخشى من حدوث شيء جديد:

- هل كنت تعرف بوجود هذا الحجر في حديقتك، سيد سلطان؟

أومأ برأسه نافيًا دون أن ينطق، فتابعت:

- إذًا، كيف أتى إلى هنا؟

أجاب بصوت هادئ:

- لا أعرف.

فساد الصمت. لكن بعد لحظات، دخلت رزان إلى البيت وغابت لمدة دقائق، ثم عادت ومعها مجلة قديمة من مجلات أمي، وقالت وهي تفتح إحدى الصفحات وتشير إلى صورة امرأة ترتدي العقد نفسه حول عنقها:

- يبدو أن العقد كان في الحديقة منذ وجود أمك هنا يا يوسف.

تفاجأ جدي بالصورة، أما أنا فأخذت أحدق إلى الصورة، لأتيقن أنه العقد نفسه، فقال جدي:

- لا أتذكر أن ابنتي أخبرتني أو أخبرت زوجتي شيئًا عنه.

فقلت:

- ربما اختارت الواحة أمي قبل أن تخبركما.

ثم أردفتُ:

- لكن كل ذلك لا يهمني الآن، ما يشغل بالي هو أننا غادرنا الواحة من أجل التنقيب عن حجر زمير في الواحة القديمة، ثم جئنا إلى هذا العالم ورأينا حداثته واعتقدنا أننا جئنا مكانًا آخر. لكن الآن

وبعد عثورنا على حجر زمير، بدأ عقلي يحدثني أن هذا العالم هو نفسه الواحة القديمة، لكن كيف حدث هذا التطور؟

قال جدي:

- لم يذكر تاريخ بلدنا شيئًا عن بئر قديمة جلبت الرخاء، أو عن جفاف طويل أعقب نضوب مائها، ولا عن أي طقوس غريبة تشمل التضحية بالأطفال في البئر.

وأومأت سارة برأسها موافقة على ما قاله، فنظرتُ إلى حجر زمير، ثم رفعتُ بصري إلى رزان وقلت:

- لقد كانت مهمتنا التنقيب عن هذا الحجر والعودة به إلى الواحة، واليوم نجحنا في العثور عليه. علينا أن نكمل البحث عن طريق العودة إلى الواحة. لا بد أن نعود كي ننقذها من شر ذلك الساحر الذي يدَّعي أنه خادم شيخون.

نظرت رزان إليَّ في صمت، ثم هزت رأسها إيجابًا من غير أن تقول شيئًا، فقلت لسارة:

- كما أخبرتكم قبل قليل، لقد غرستُ غصن النبتة كي أحصل على أوراقها من أجل اكتشاف تعاويذ الكتاب وأسراره، ثم حدث ما حدث وجفت وتحللت، لكنني ما زلت في حاجة لتلك الأوراق. أريدك أن تطلبي من أبيكِ أن يساعدنا في زيارة السجن مرة أخرى كي أحضر غصنًا آخر من زنزانة بلال، وفي المرة القادمة سأغرس الغصن وسأظل بجواره، وسأقطف أوراق النبتة التي تكفي أوراق الكتاب قبل أن نستخرج أي حجر قد تمتد نحوه في باطن الأرض.

فهزت سارة رأسها بأسف، وقالت:

- لقد غادر والدي البلدة هذا الصباح، ولن يعود إلا بعد يومين. ولا أستطيع التواصل معه الآن.

فتنهدتُ بعمق وأنا أشعر بالإحباط. ثم قلت:

- إذًا، علينا أن نستغل الوقت ونذهب إلى بيت السجينين كارم وبلال مثلما ذهبنا إلى بيت حسام، لعلنا نعثر على شيء يفيدنا هناك. وبعد عودة أبيكِ إلى البلدة نعود إلى السجن مرة أخرى.

أومأ الجميع موافقين، وبينهم جدي الذي بدا وكأنه تراجع عن فكرة إحضار روحاني من أجل فك تعاويذ الكتاب وفهم أسراره.

***

بعد ساعات، ذهبنا إلى بيت كارم في بلدة الجبل، لم يكن البيت محاطًا بشريط الشرطة الأصفر مثل بيت حسام، ولم نلاحظ حتى وجود شرطيين عند مدخله. دخلتُ أنا وسارة ورزان إلى داخله بعدما تمكنت سارة من فتح بابه باستخدام دبوس شعرها، لكن بعد التفتيش لساعات لم نجد أي شيء مفيد. فقط كل ما وجدناه كانت رسومات هندسية تتعلق بعمله، وأوراق كثيرة قالت سارة وهي تتفحصها:

- إنها فحوصات طبية قديمة، يبدو أنه كان يعاني مرضًا مزمنًا.

غادرنا بيت كارم إلى سيارة جدي الذي قادنا إلى بيت بلال في بلدة الجسر. وعلى عكس بيتيْ حسام وكارم كان البيت مُنارًا، وأدركنا ونحن نقف خارجه أن هناك أحدًا يعيش فيه. ترددنا للحظة في قرار الدخول، لكننا قررنا في النهاية التوجه إلى الباب وطرقه، وكان جدي معنا هذه المرة.

عندما فُتح الباب، وجدنا أمامنا امرأة خمسينية ملامح وجهها مليئة بالحزن والتعب، فعرَّف جدي نفسه ثم قال إننا جئنا إليها من أجل شيء

يخص بلال، فأدخلتنا السيدة مرحبة، ثم أخبرتنا بأنها أخته الوحيدة والتي قامت بتربيته بعد وفاة والديهما في أثناء طفولته. قال جدي للسيدة بلطف عندما جلسنا على مقاعد الردهة:

- سيدتي، هل تعرفين شيئًا عن بلال منذ اختفائه؟

هزت رأسها بالنفي في أسف، فتابع:

- إن أحفادي يعدُّون تقريرًا صحفيًا عما حدث، وفي أثناء زيارتهم السجن وجدوا نبتة غريبة تنمو في زنزانته، هل أخبركِ بلال من قبل عن نوع غريب من النباتات يُجري أبحاثًا عليه؟

فتدخلتُ قائلًا بلهفة:

- نبتة ذات أوراق مضيئة؟

قالت مستغربة:

- لا أتذكر أنه أخبرني شيئًا عن نبتة مثل تلك.

ثم تابعت بمرارة:

- ربما كانت المشكلة مني، لطالما كان يعود من رحلاته الاستكشافية سعيدًا باكتشافاته الجديدة، لكنني لم أكن أبدي اهتمامًا كبيرًا، ومع مرور الوقت، توقف عن إخباري أيَّ شيء يتعلق بعمله.

بعد حوار مرسل طويل، استطاع جدي إقناع السيدة بأن نبحث بين أغراضه عن أي معلومات تخص تلك النبتة المضيئة، وبكل لطف وافقت السيدة بل وأخبرتنا أنها ستعد لنا مشروبًا ساخنا في أثناء بحثنا. فبدأنا بالبحث في كتبه وأوراقه.

كان البحث مرهقًا، لكن بعد فترة من الوقت وجدت رزان ورقة تبدو غريبة. كانت تحمل رسمة متناهية الدقة لأوراق النبتة المضيئة التي رأيناها، ومعها اسم النبتة مكتوب بخط اليد.

- هذه هي، نفس النبتة.

صاحت رزان بحماس وهي ترفع الورقة أمامنا. فأخذتُ الورقة منها، وتفحصتها بعيني سريعًا، وعندما تأكدتُ أنها نفس النبتة فعلًا، قرأتُ الاسم المكتوب للباقين في تعجب:

- نبتة الماهورا!

بدت السيدة مرتبكة وقالت:

- لم يخبرني بلال عن نبتة بهذا الاسم قط.

واصلنا البحث في حماس بعد عثورنا على تلك الورقة لكننا لم نجد أي معلومات أخرى مكتوبة تشمل هذا الاسم الذي سُميت به النبتة، حتى نطقت سارة فجأة ونحن نقترب من نهاية البحث:

- حجر زمير!

نظرنا إليها في الحال، كانت قد عثرت على صورة ليدٍ تحمل حجر زمير، وقد بدا واضحًا أن صاحب اليد التقط الصورة بنفسه بواسطة هاتف يحمله بيده الأخرى، قلت وقلبي يدق بقوة:

- استطاع بلال العثور على حجر زمير باستخدام النبتة!

تساءلت السيدة مستفهمة وهي تنظر إلى الصورة:

- أي حجر هذا؟

لكن سارة نطقت متعجبة وهي تنظر إلى ظهر الصورة:

- محسن السمعاني!

لاحظنا في تلك اللحظة أن اسم محسن السمعاني مكتوب بخط اليد على ظهر الصورة، وبجواره رقم هاتف بدا أنه رقمه الشخصي، فقال جدي:

- هذا يعني أن بلال تواصل مع محسن السمعاني، تاجر التحف، من أجل إخباره عثوره على ذلك الحجر. ربما ليفهم طبيعته، أو يعرضه عليه للبيع.

اتفقنا مع جدي في افتراضه، وقالت رزان:

- هل من الممكن أن يكون بلال هو من عثر على كتاب التعاويذ بواسطة النبتة وباعه لمحسن السمعاني، وبعدها أعطى محسن الكتاب لحسام كي يترجم المكتوب فيه؟

فقلت وأنا أنظر إلى رقم الهاتف المكتوب:

- أو ربما اكتشف بلال النبتة والحجر بعد فك حسام تعاويذ الكتاب، وتواصل مع محسن دون أن يعرف أن هناك علاقة بينه وبين حسام.

ثم تابعتُ متخيلًا ما حدث:

- عرض بلال ذلك الحجر على محسن، وربما وعده بمزيد من الأحجار، فأخبر محسن حسام بالأمر، فأراد حسام الحصول على النبتة، لكن بلال رفض، فقام حسام بتعذيبه في الزنزانة.

سألت السيدة في قلق:

- أي تعذيب؟!

أدركنا أنها لا تعرف شيئًا عن مقاطع الفيديو التي انتشرت لحسام وباقي السجناء، فاستدرك جدي الأمر، وقال:

- لا شيء سيدتي، كانت مشاجرة عادية تحدث عادةً في السجون.

قالت:

- إن بلال بريء، لا يمكن أن يقتل كما يدَّعون.

وبدأت تبكي، فجلست سارة تواسيها، وبعد أن هدأت طلب منا جدي أن نغادر بعدما لم يكن هناك مزيد من الكتب أو الأغراض التي تبدو مهمة.

غادرنا ونحن نفكر في أن محسن السمعاني وراء كل المصائب التي حدثت للثلاثة، هو من أعطى الكتاب لحسام، وهو من تورط مع كارم في نفس قضية تجارة الآثار، وكانت هناك علاقة أو على الأقل اتصال بينه وبين بلال، كما أنه الوحيد الذي لم يظهر في مقاطع الفيديوهات. فقلت لجدي:

- علينا أن نتسلل إلى بيت ذلك التاجر.

فقال جدي:

- إنه يقيم في العاصمة، ولا بد أن هناك الكثير من مساعديه يحمون بيته. لن نتمكن من فعل هذا الأمر. كنا محظوظين اليوم بعدم وجود شرطة تراقب بيتيْ كارم وبلال، أما ذلك التاجر فلا بد أن الأعين جميعها ستكون موجهة نحوه.

فهززتُ رأسي متفهمًا، ثم أسندتُ ظهري على مقعد السيارة، وأنا أتمتم باسم النبتة:

- الماهورا.

***

بعد أربعة أيام، عدنا إلى السجن بعد أن حصلنا على تصريح الدخول بمساعدة والد سارة. لكن حالما دخلنا زنزانة بلال، كان المشهد أمامنا مخيبًا للآمال، إذ لم نجد النبتة أو أي آثارٍ لها، وكأنها تحللت مثل نبتة الحديقة، فتملكني الإحباط، وقلت غاضبًا:

- كيف يحدث هذا؟ في كل مرة نقترب من شيء، يتبخر ويختفي!

حاولت رزان تهدئتي، وقالت بصوت هادئ:

- لن نصل إلى شيء بالغضب. يجب أن نفكر بطريقة أخرى. هناك حتمًا حل لم نفكر فيه بعد.

لم أكن قادرًا على تهدئة نفسي، لكنني قررت أن أتبع نصيحتها. وعدنا إلى المنزل بعد أن قطعنا وعدًا لناجي، الذي تحدثنا إليه قبل خروجنا، بأننا سنفعل كل ما بوسعنا لإخراجه.

مرت الأيام دون أن نحقق تقدمًا يُذكر. فقط كان الشعور بالإحباط يتزايد. خاصةً عندما كانت سارة تحاول البحث عن نبتة الماهورا عبر شبكة الإنترنت، وينتهي الأمر في كل مرة بأنها لا تجد معلومة واحدة عن نبتة بهذا الاسم، ثم قررنا الذهاب إلى بيت محسن السمعاني في العاصمة على عكس رغبة جدي، فوجدنا أنه كان محقًّا، إذ لم نستطع الدخول إلى البيت الفاره الذي كان يمتلكه ذلك التاجر، من كثرة رجال الحراسة هناك، والذين لم يسمحوا لنا حتى بمقابلة زوجته أو أولاده للحديث معهم. فعدنا أدراجنا خائبي الأمل.

ثم انضم إلينا ناجي بعدما تمكن جدي ووالد سارة من إخراجه من السجن، فحكينا له كل ما فاته منذ افترقنا، كاد عقله يجن مما نحكيه، ولولا أنه رأى كتاب التعاويذ بعينيه لما صدقنا، ثم حاول قراءة الرموز الموجودة في الكتاب فلم يتمكن من قراءة أي شيء. فصمت لبعض الوقت، قبل أن يقول:

- ربما عليَّ أن أضع دمي عليه كما فعل حسام؟

قلت:

- لقد حاولتُ أن أفعل ذلك، لكن الكتاب لم يستجب.

قال:

- يبدو أن هناك أكثر من طريقة لاستكشاف تعاويذ الكتاب، منها الدم وأوراق النبتة المضيئة. ومع ذلك يبدو أن الكتاب يختار دم أشخاص معينين، فلأجرب حظي.

نظرنا نحوه في ترقب. كان ناجي خبيرًا في المعلومات التاريخية عن واحتنا، لكنه لم يكن شجاعًا قط ليتخذ مثل هذه الخطوة الجريئة، وبعد صمت طويل، قلت له:

- إذا كنت واثقًا من قرارك، فجرب.

هز رأسه موافقًا، ثم طلب من رزان إحضار سكين، فتعجبت رزان من قراره ونهضت لإحضار السكين، ثم عادت وأعطتها له، لكنه تراجع في آخر لحظة، وقال بقلق:

- لا، لن أفعل ذلك. قد تصيبني لعنة من هذا الكتاب، ربما يكون هناك حل آخر.

فقالت رزان ساخرة وهي تأخذ السكين منه:

- كنت أعرف أنك لن تفعلها، أيها الجبان.

***

مرت مزيد من الأيام دون جديد، فقط كنا نفتح كتاب حسام من حين لآخر دون جدوى، أو تواصل سارة بحثها عن نبتة الماهورا عبر شبكة الإنترنت دون أن تصل إلى شيء. ذات يوم اقترحتُ عليهم أن نبدأ البحث بأنفسنا عن غرفة الاتصال الموجودة في هذا العالم، لكن جميعهم رفضوا الفكرة وتعللوا بأن هذا العالم كبير جدًا وأن بحثنا عن شيء مشكوك في وجوده كهذا دون خيط نبدأ من طرفه سيكون مجرد إضاعة للوقت والجهد، خاصةً أنني قضيت أنا ورزان أيامًا طويلة سابقًا نبحث عن أي نجمة ثمانية مرسومة في البلدة، ولم نعثر على شيء.

بعد ذلك، قرر جدي أن يُبعد الكتاب عن متناول يدي، فوضعه في الصندوق الخلفي لسيارته التي يأخذها إلى العيادة يوميًا، خشية أن أتصرف بتهور في أثناء غيابه. ووعدني بأنني سأتمكن من تصفحه في حضوره، فاستسلمتُ لقراره. لتمر أيام أخرى بلا أي خطوة جديدة، حتى جاءت تلك الليلة عندما كنت مستلقيًا على سريري، غير قادر على النوم، وبدأت فكرة غريبة تدور في ذهني:

- بلال، كان باحثًا في مجال النباتات، وكان يمتلك حجر زمير والنبتة. وأمي كانت تمتلك حجر زمير أيضًا، وأيضًا كانت خبيرة في الأعشاب والنباتات، ماذا لو كانت أمي تعرف عن النبتة أيضًا؟!

حينذاك قفزتُ من السرير، وذهبتُ إلى غرفة أمي وأخذتُ أبحث في كتبها القديمة عن أي رسمة أو معلومات تتشابه مع نبتة بلال. لكني لم أجد شيئًا مشابهًا، فأخرجتُ زفيري في يأس، وأعدت الكتب في أماكنها، وكدت أغادر الغرفة، لكنني لمحت ثلاثة أوعية زجاجية صغيرة مملوءة بأنواع مختلفة من البذور على أحد الرفوف، كنا قد رأيناها منذ أن جئنا إلى البيت، لكننا لم نعِرها اهتمامًا، على اعتبار أن جدي أبقى كل مقتنيات أمي في أماكنها المعتادة. فأمسكتُ أحد الأوعية وفتحته، ثم حدقتُ إلى داخله وأنا أهزه بقوة، كان فيه عشرات البذور المختلفة الأحجام والأشكال. قربتُ أنفي وشممتُ رائحتها، لم يكن هناك شيء مميز أو بالأحرى لم أجد رائحة النبتة المضيئة. ثم فعلتُ الشيء نفسه مع الوعاءيْن الآخرين، فلم أستطع تمييز أي رائحة للنبتة.

فجأة خطرت في بالي زنزانة بلال، فنظرتُ إلى أوعية البذور مرة أخرى، ثم قررت أن آخذها إلى قبو البيت المظلم ذو الأرضية الصلبة التي تتخللها كثيرٌ من الشقوق الطينية، مثل زنزانة بلال، وزرعت كل البذور في تلك الشقوق. وقررت الانتظار بجوارها، خشية أن تنمو

إحداها بسرعة فائقة وتمتد لتنتشر في الأنحاء مثلما حدث مع النبتة الأولى، لكن طلع النهار ولم يحدث أي جديد.

عدت إلى غرفتي حيث كان ينام ناجي، وبعد ساعات قليلة عدت إلى القبو، فلم أجد نبتة واحدة نمت. بعد ثلاثة أيام، بدأت بعض البذور تنبت، لكن من رائحتها وشكل نبتتها كان واضحًا أنها ليست نبتة الماهورا. في اليوم الرابع، أخبرت ناجي ورزان بالأمر، فأتيا معي بعدما وعداني بألا يخبرا جدي، خاصةً مع حرصه الشديد على عدم تضييع أي شيء كان يحتفظ به لأمي. تفحصا الأعشاب التي نمت، وهنأني على فكرة توفير بيئة تشبه الزنزانة لإنبات النبتة، لكنهما اتفقا على عدم وجود بذرة الماهورا بين البذور بعدما لم تنبت كل هذا الوقت. واقترحت رزان أن نشتري بذورًا أخرى نضعها في الأوعية الزجاجية ونعيد الأوعية إلى غرفة أمي كي لا يغضب جدي. فوافقتها على ذلك الاقتراح.

بعد عشرة أيام، كان القبو قد امتلأ بالأعشاب، قال ناجي ضاحكًا وهو يتفحصها:

- لو اكتشف جدك هذه الجريمة سيطردنا من البيت.

فقلت بإحباط:

- فلنقطع هذه الأعشاب ونجمِّعها ونحرقها قبل أن يعود من عيادته.

انضمت رزان لنا، ووافقتنا على التخلص من تلك الأعشاب، فبدأنا في اقتلاعها من الأرض، وتجميعها، حتى توقف ناجي فجأة، وقال وهو يخرج بذرةً من التربة:

- هذه لم تنبت، أعدها إلى أوعية أمك مع البذور التي اشتريتها.

وألقى البذرة نحوي ضاحكًا، فالتقطتها. بعد دقائق، قالت رزان:

- هناك بذرة أخرى لم تنبت.

وألقتها نحوي، فقلت بعدما التقطتها، ووضعتها على راحة يدي بجوار البذرة الأولى:

- يبدو أنهما من نفس النوع.

وأردفتُ لرزان وناجي:

- إن عثرتما على بذور أخرى لم تنبت، ألقياها لي.

بعد دقائق عثرتُ أنا على بذرة ثالثة، كانت النوع نفسه أيضًا، وبعد دقائق أخرى عثر كل واحد منا على بذرتين جديدتين، كانت كلها من النوع نفسه. ثم انتهينا وأكد الجميع أنه لم يعد هناك أي أعشاب نامية، أو أي بذور غير نابتة في الشقوق الأرضية. فأشعلت رزان النار في الأعشاب المجمعة، بينما جلسنا بالقرب من النار نراقب الأعشاب وهي تحترق، حتى قلت:

- ماذا لو كانت بذور الماهورا تحتاج طقوسًا خاصة لتنبت؟!

وأخرجتُ البذور التسع من جيبي، وأخذتُ أنظر لها وتساءلت:

- لماذا لم ينمُ هذا النوع مثل الأنواع الأخرى؟

قالت رزان:

- ربما لم تناسبها بيئة هذا القبو، بعض النباتات تحتاج إلى بيئات محددة من حيث المكان والمناخ كي تنمو.

تساءلتُ وأنا أفكر في زنزانة بلال:

- لماذا لم تنمُ نبتة الماهورا إلا بعد رحيل بلال عن الزنزانة؟

صمت ناجي ورزان، وواصلا النظر نحو النار، دون أن يجيباني، فتمتمت:

- لقد نمت بعد يوم واحد من تعذيبه.

سألتني رزان مازحة:

- هل تنوي تعذيبنا مثلًا؟

قلت:

- لا.

ثم أردفتُ:

- لو كانت بذور تلك النبتة تنمو في الظروف العادية، لكانت قد اكتُشفت منذ زمن طويل مع انتشار أغصانها الغريب.

وأضفتُ وأنا أحدق إلى النار:

- هذه النبتة تتطلب طقوسًا معينة لإنباتها.

وسألتُ نفسي بصوتٍ مسموع:

- ما الشيء المشترك بين الطقوس والتعذيب؟

قال ناجي بغير اكتراث:

- الدم.

نظرت إليه وقلت بعينين متسعتين:

- نعم، إنك محق.

وتابعت:

- لا بد أن هناك دماءً تناثرت في الزنزانة بعد تعذيب حسام لبلال، أو على الأقل كان هناك قيءٌ ممزوج بالدم بعد وضع تلك اللفافة في جوفه.

ونظرتُ إلى البذور التسع في يدي، وقلت:

- ربما ابتلت تلك البذرة بالدماء فنبتت في اليوم التالي.

ثم رفعتُ بصري نحو رزان وناجي، وقلت:

- لن نخسر شيئًا، سيجرِّب كل واحد منا دماءه مع ثلاث من هذه البذور.

نظر إليَّ ناجي مترددًا، لكن مع تصميمي على الأمر، هز رأسه في النهاية موافقًا، أما رزان فزمَّت شفتيها مفكرةً للحظات، قبل أن تومئ أيضًا بالموافقة. ثم صعدت وأحضرت سكينًا من الأعلى، وعادت، فجرحتُ إصبعي أولًا، وصبغتُ ثلاث بذور بدمائي، ثم جرحت رزان إصبعها وصبغت بذورها الثلاث بدمها، وفعل ناجي الشيء نفسه مع بذوره. ثم غرسنا البذور التسع في شقٍ أرضي، وجلسنا أمام ذلك الشق نترقب ما سيحدث. لنُفاجأ بعد أقل من ساعة ببدء انتشار الرائحة التي شممناها في زنزانة بلال في الأجواء، قبل أن تدق ضربات قلوبنا بعنف، حين وجدنا ست بذور من البذور التسع تنبت في الوقت نفسه.

***

بعدما بدأت البذور في إنبات براعمها الأولى، وقفنا نراقب في ترقب كل حركة خفيفة تصدر من تلك النبتات. كانت الأوراق الصغيرة تتفتح ببطء أولًا، كلٌ منها يحمل توهجًا فيروزيًا خافتًا، وبدأت الأغصان تتشكل بلطف حول الساق الرقيقة. ثم، وعلى نحو مفاجئ، بدا وكأن شيئًا قد أطلق العنان لها، إذ بدأت البراعم تتفتح بالكامل وأغصان النبتات تتمدد في كل اتجاه بسرعة مذهلة. صرخ ناجي:

- إنها نبتات شيطانية.

وركض خائفًا نحو سلم القبو وصعد إلى الأعلى، أما أنا فاقتربتُ في حذر من أقرب النبتات لي كي أقطف الأوراق اللازمة لقراءة تعاويذ الكتاب، وبالفعل قطفتُ عشرات الأوراق من الأغصان المتمايلة ووضعتها

في جيبي بسرعة: لكنني تذكرت في تلك الحين أن الكتاب في سيارة جدي، وجدي لم يعد من عيادته بعد. فقلت لرزان خائفًا:

- علينا أن نذهب إلى جدي في الحال.

قالت في خوف أكبر:

- أعتقد أننا لن نتمكن من ذلك. انظر.

وأشارت نحو النبتات الست التي صارت شجرات زاحفة، تنمو بعنف وتمتد أغصانها بشكل مخيف، لتتسلق الجدران وتخرج عبر نوافذ القبو الحديدية.

في تلك اللحظة عاد ناجي من الأعلى وصرخ فينا وهو يقف على سلم القبو:

- يوسف، رزان، تعالا بسرعة!

ركضنا نحو الأعلى، وعندما صعدنا إلى الحديقة، رأينا مشهدًا لا يصدق؛ كانت شجرات الماهورا الست قد تجاوزت سور الحديقة، وأصبحت تمتد بسرعة رهيبة نحو الخارج.

- علينا أن نلحق بها!

صرختُ إلى رزان وناجي، واندفعنا إلى الخارج عبر باب الحديقة، لكننا سرعان ما تجمدنا في أماكننا من الصدمة، إذ رأينا الفروع الزاحفة تجتاح الشوارع وتلتف حول الأشجار والأعمدة، وتواصل تفرعها بشكل جنوني، وكأنها تغزو المدينة. صاحت رزان في ارتباك ممزوج بالذعر:

- إنها تبحث عن شيء ما.

قلت وأنا ألهث من الذهول:

- أحجار زميرا لا بد أن هناك أحجارًا أخرى تريد الأشجار اكتشافها واقتلاعها من مخابئها. هيا لنلحق بها.

ركضنا جميعًا خلف الأشجار، نلاحق فروعها المتمددة بينما كان الناس في الشوارع يصرخون في ذعر ويفرون وهم في حالة من الذهول بحثًا عن ملاذ آمن، فيما توقفت السيارات في أماكنها، وتحطم بعضها أسفل الفروع الزاحفة، لتنتشر الفوضى العارمة في كل مكان.

قال ناجي بأنفاس متقطعة وهو يركض بجوارنا:

- لقد قُضي علينا، ستأتي الشرطة وتعتقلنا بعد هذه الفوضى.

قلت:

- علينا الإسراع إلى وجهة الأشجار قبل وصولهم، وليحدث ما يحدث.

بالفعل، لم تمر سوى دقائق حتى بدأت أصوات صافرات سيارات الشرطة تعلو في الأفق، فصرختُ في ناجي ورزان:

- أسرعا.

لكن الصافرات كانت تقترب منا بسرعة كبيرة، وحين التفتُّ خلفي، وجدت أنها دراجات نارية تحمل رجال شرطة وليست سيارات، وبدأوا ينادوننا بالتوقف في الحال، سألني ناجي خائفًا:

- هل نتوقف؟

قلت:

- لا.

بعد لحظة واحدة، شعرتُ أننا على وشك الاعتقال مع لحاق الدراجات النارية بنا. لكن فجأة، خرجت سيارة سوداء من شارع جانبي وقطعت الطريق أمامهم، لتفصلهم عنا. كانت سيارة جدي، الذي أنزل زجاج نافذته، ونظر نحونا بابتسامة خفيفة، ثم ألقى إليَّ كتاب التعاويذ وهو يقول:

- حظًا موفقًا يا أحبائي.

التقطتُ الكتاب وواصلنا اللحاق بالأغصان الملتوية التي بدأت تخرج من حدود البلدة، وتندفع كأفاعٍ سحرية في اتجاه الغابة المتحجرة.

***

ركضنا بأقصى ما نستطيع نحو الغابة المتحجرة بينما كانت الأغصان الزاحفة لا تزال تسبقنا وتستمر في اندفاعها الرهيب لتدخل حدودها وتزحف بين الأشجار المتصلبة هناك. قالت رزان في إعياء شديد ونحن ندخل إلى الغابة:

- سيتوقف قلبي من شدة التعب.

قلت وأنا أتلفت خلفي وأرى دراجات الشرطة النارية تقترب من جديد:

- لم يعد هناك مجال للتراجع.

لنواصل التقدم نحو قلب الغابة حيث كانت الأشجار تواصل تقدمها. فجأة اقترب منا رجال الشرطة مجددًا، وكادوا يمسكون بنا، وصرخ أحدهم موجهًا سلاحه نحونا:

- توقفوا أيها السحرة.

وكأنهم اعتقدوا أننا من نملك القوى السحرية التي تغذي تلك الأشجار. توقف ناجي وهبط على ركبتيه رافعًا يديه مستسلمًا وهو يلهث، وفعلتُ أنا ورزان الأمر نفسه بعدما صوَّب الباقون فوهات أسلحتهم النارية نحونا، وأطلق أحدهم إحدى الطلقات بالقرب منا. فاقتربوا منا في حذر وجهزوا أغلالهم استعدادًا لتكبيلنا، لكن فجأة، بدأت السهام تتطاير في الهواء، وسقط أحد الضباط وهو يصرخ من الألم بعدما أصابه سهم في ساقه. نظرت حولي مرتبكًا لأرى مصدر السهام، فإذا بقاسم يظهر بين الأشجار المتحجرة مرتديًا ثوبه الجلدي الذي أتينا به من الواحة.

كان يمسك قوسه الكبير، ويواصل إطلاق السهام نحو الضباط في دقة عالية، فأصاب ثلاثة منهم بينما تبعثر الباقون خلف الأشجار المتحجرة، محاولين الاحتماء من سهامه الطائرة. فصرختُ في رزان وناجي:

- هيا، لنتابع الركض.

نهضنا واستأنفنا الركض، بينما واصل قاسم إطلاق السهام مانعًا رجال الشرطة من ملاحقتنا، حتى وصلنا إلى قلب الغابة، وهناك رأينا المشهد الذي أذهلنا جميعًا؛ الست شجرات التي نمت من ست بذور متفرقة كانت أطرافها قد تشابكت والتفت حول بعضها في صورة جديلة عظيمة لتصبح طرفًا واحدًا أخذ يزحف حول شجرة متحجرة عملاقة في خطوط مستقيمة باتجاهات مختلفة وكأنه يرسم نمطًا محددًا، فقلت مذهولًا وأنا أرى ذلك المشهد:

- إنها تصنع نجمة ثمانية، تقع الشجرة العملاقة في مركزها.

قال ناجي بذهول أكبر:

- انظروا، لقد امتد طرف الأشجار الزاحفة من النجمة، ويلتف بإحكامٍ حول جذع الشجرة.

في تلك اللحظة بدأت أوراق الماهورا المشكِّلة للنجمة الثمانية تتوهج بضوئها الفيروزي الساطع، بينما بدأت الشجرة المتحجرة في مركزها تتحرك ببطء، بعدما بدا أن الغصن الملتف حولها يحاول اقتلاعها من الأرض، وقبل أن نلتقط أنفاسنا من الدهشة كانت الشجرة العملاقة قد اقتُلِعت من جذورها وسقطت أمامنا، تاركةً موضعها حفرة كبيرة، ظهر في قاعها ستة أحجار زمير متراصة في شكل دائري. بعدها امتد غصن رفيع آخر من أشجار الماهورا، وزحف إلى تلك الحفرة، ثم التفَّ بأوراقه المضيئة حول الأحجار، كما لو أنه يصنع لها عشًا صغيرًا. ثم توقف في سكون تام، وكأن مهمة الأشجار قد اكتملت بكشف تلك الأحجار للعراء.

نظرتُ إلى أصدقائي، ثم نزلت إلى الحفرة بحذر، واقتربتُ من الأحجار دون أن ألمسها، فقط أخذت أحدق إليها. حينذاك، لاحظتُ نجمة ثمانية صغيرة محفورة وسط الأحجار المتلألئة، على ما يبدو أنه حجر مسطح، مددتُ إصبعي حذرًا إلى تلك النجمة ومسحتُ الوحل عنها، فظهرت بوضوح. في تلك اللحظة، أدركتُ أن الحجر المسطح المنقوش عليه النجمة يشغل مساحة كبيرة من قاع الحفرة، فبدأتُ أزيل الوحل بيدي تحت أقدامي، وأظهر سطح الحجر شيئًا فشيئًا، وأطرق عليه بقبضة يدي، وضربات قلبي تتسارع من الافتراض الذي وثب إلى عقلي، والذي تأكد عندما أزلتُ الوحل عن الحجر بالكامل، لأدرك أنه باب حجري دائري يتوسط الحفرة.

حاولتُ فتح الباب عبر الحيز الضيق المجاور لحافته، لكنه كان ثقيلًا جدًا، وكان غصن الماهورا المتدلي الذي يحيط بأحجار زمير يحول دون حرية حركتي في الحفرة، فأمسكتُ بأحجار زمير الستة ووضعتها في جيوبي، فبدأت أوراق الماهورا في الذبول، وبدأت الأغصان تجف وتتحلل تمامًا كما حدث في الحديقة. فصرخت في رزان وناجي على الفور:

- فلتساعداني في فتح هذا الباب، إنه ثقيل جدًا.

نزلت رزان وناجي بسرعة إلى الحفرة، وبدأنا جميعًا نحاول رفع الباب معًا. كان ثقيلًا وصعبًا، لكننا لم نتوقف. ثم انضم إلينا قاسم الذي قفز إلى الحفرة لاهثًا، وهو يقول:

- أسرعوا، إن رجال الشرطة يقتربون.

بعد عدة محاولات، انفتح الباب أخيرًا، ليكشف عن سلم حجري ينزل إلى الأسفل، مضاء بضوء فيروزي هادئ ينبعث من الجدران.

***

قفزتُ إلى السلم أولًا، وتبعتني رزان وناجي وقاسم بسرعة، ثم أغلقنا الباب فوقنا قبل أن يصل رجال الشرطة. وبدأنا النزول بحذر، حتى وصلنا إلى نهاية السلم فوجدنا أنفسنا في شبكة من الأنفاق الضيقة التي كانت تمتد أمامنا وكأنها بلا نهاية. الجو كان باردًا ومشبعًا برائحة نبتة الماهورا، والجدران كانت مضاءة بشكل غريب بذلك الضوء الفيروزي الذي ينبعث منها، ومحفور عليها رموز كثيرة غامضة، تشبه تلك التي رأيناها في كتاب التعاويذ. تمتمت رزان وهي تتلمس الجدران ورموزها الغريبة:

- ما هذا المكان؟!

لم يستطع أحد منا تقديم إجابة لها، وواصلنا تقدمنا عبر الأنفاق، في صمت مطبق، وأعين متسعة من الدهشة كأننا مسحورين، حتى وصلنا أخيرًا إلى غرفة كبيرة في نهاية النفق. كانت تلك الغرفة مظلمة بعض الشيء، باستثناء ضوء فيروزي خافت جدًّا كان ينبعث من أحجار زمير صغيرة، في حجم حبات العنب، معلقة على أحد الجدران.

الجدار المقابل لتلك الأحجار كان يحمل فتحات دائرية، تشبه تمامًا الفتحات التي كنت أبوح لها بأسراري في الواحة أغلب فترات حياتي. تقدمنا نحوه، ووقفنا أمام فتحاته مذهولين، قبل أن أهمس للباقين بصوتٍ مرتعش وقلبٍ ينبض بشدة:

- هذه هي غرفة الاتصال السادسة عشرة.

(21)

عبير

بعد أن أنهت أمي كلامها بأن يوسف هو من أنقذنا بإخبارها تلك التعويذة التي استدعت جن الحصن السداسي، تبادلتُ أنا وأبي النظرات في صمت عميق. في ظروفٍ أخرى أو في وقتٍ آخر، كنت سألاحق أمي بمزيد من الأسئلة، متشككة فيما تقوله، لكن بعد كل ما مرّ بي منذ الليلة الماضية، باتت تلك الأمور تبدو أقل غرابة. وبدا لي أن أبي يشاركني الشعور ذاته؛ إذ رفع رأسه نحو السماء وبدأ ينادي بصوتٍ عالٍ تتخلله ارتعاشة خفيفة:

- إن كنت ترانا يا يوسف، فأخبرنا ماذا نفعل.

تردد صدى الصوت بين جدران الحصن السداسي، فالتفت أبي إلى أمي، وسألها:

- هل همس لكِ بشيء آخر؟

هزّت أمي رأسها بالنفي. فأعاد أبي النداء بنبرة أعلى وأشد تضرعًا:

- يوسف، إن كنت ترانا، فنحن في أمسّ الحاجة إلى مساعدتك!

فقالت أمي بأسف وهي تومئ برأسها نحو الأرض:

- لا أسمع أي همس في أذني الآن.

فتحرك أبي نحو جدران الحصن وأخذ يتأمل النقوش التي تزينها، ثم قال:

- لا أستطيع تفسير أي شيء من هذه الرموز.

نهضتُ من مكاني وساعدتُ أمي على الوقوف، وتحركنا لننضم إلى أبي أمام الجدران. كانت النقوش زاهيةً ومشرقةً بشكلٍ غريب، تختلف عما اعتدناه في الواحة. ورغم وضوحها، ظلت معانيها مبهمة بالنسبة لنا، فتمتمتُ بحزن:

- لا بد أن تعويذة الحصن موجودة هنا في مكان ما. لم يرسلنا الجن الحراس إلى هذا المكان عبثًا.

فجأة، تردد صوت حركة خافتة بالقرب من منصة الحصن المتوسطة لساحته. فانتفض قلبي من الخوف، وأمسكت بذراع أبي وبدأنا نتحرك بحذر نحو المنصة الحجرية، حتى اقتربنا منها، فسمعنا صوت نحيب خافت يأتي من خلفها، فزاد خوفنا وتقدمنا بخطواتٍ ثقيلة ترتجف قلوبنا معها.

عندما تجاوزنا حافة المنصة، تجمدنا في أماكننا منهولين. خلف المنصة كان يجلس فتى، عاريًا تمامًا، حليق الرأس، بجسدٍ نحيل ومتهالك لدرجة أننا كدنا نعدُّ فقرات ظهره المقوسة، كان منحنيًا ومتكوِّرًا على نفسه، وقد دفن رأسه بين ركبتيه، بينما جسده النحيل يهتز مع نحيبه المتواصل الذي يملأ المكان. نظر أبي إلينا مرتعبًا، ثم توجه إليه بخطوات حذرة، وسأله بصوت متوتر:

- من أنت؟

استمر الفتى في نحيبه دون أن يرفع رأسه، فبدت على أبي وأمي علامات القلق الشديد. ونظر أبي إلينا مرة أخرى كأنه يسألنا عمَّا ينبغي فعله، ثم عاد ونطق بصوت ثابت موجِّهًا حديثه نحو الفتى:

- نحن هنا للبحث عن تعويذة الحصن السلاسي، الجن الحراس وعدونا بالعثور عليها في هذا المكان.

عندها، توقف الفتى عن النحيب، ورفع رأسه قليلًا دون أن يواجهنا بوجهه، ثم نطق بصوت غريب يشبه فحيح الريح بين الصخور:

- بندو... بندو...

همستُ متسائلة، وقد اختلطت الحيرة والخوف في نبرتي:

- ما علاقة الجني الحارس لريم بالأمر؟

في تلك اللحظة، استدار الفتى ببطء، وكشف عن وجهه الشاحب الذي كان بلا عينين، فقط حفرتان فارغتان تحيط بهما ندوبٌ عميقة. فانكمشتُ من الرعب، لكن أمي تماسكت، ورغم ارتعاش صوتها، نطقت قائلة:

- بندو؟

عندها، انحنى الفتى أمام أمي في حركة خفيفة وهادئة، كأنه يقدّم التحية. فرمقته أمي بذهولٍ مشوب بالخوف، وقالت بصوت يكاد يُسمع:

- إنه بندو، الجني الحارس لريم.

***

وقفتُ مع أبي وأمي أمام ذلك الجني، كلٌّ منا يحمل تساؤلاته وقلقه. وساد السكوت للحظات حتى سأله أبي بصوت مضطرب:

- أين هي ريم؟ أرجوك، أخبرنا، هل هي بأمان؟

رفع بندو رأسه ببطء، وقال بصوته الغريب:

- إنها في قبضة خادم شيخون الذي كان يرافقكم.

وبدأ يبكي من جديد. فتسارعت نبضات قلبي، وشعرتُ بشيء يلتف حول صدري، يصعب معه التنفس بعد سماعي اسم شيخون، إذ لم أكن أعرف عن ذلك الاسم منذ مولدي سوى إنه اسم الساحر الشرير الذي تسبب في كل اللعنات التي أصابت الواحة منذ أكثر من ألف عام. قال أبي مستغربًا ومكذبًا له:

- لكن شيخون مات منذ ثورة أرواح أطفال البئر. كيف يكون سيف خادمًا له؟

هز الجن رأسه نفيًا دون أن ينظر إلينا، وقال بفحيح عميق:

- لم يمت. كانت روحه مقيدة فحسب، وتنتظر التحرر كل هذه السنوات.

سأله أبي في لهفة وترقب:

- كيف ذلك؟

صمت وكأنه يسترجع القصة من بدايتها، ثم قال:

- كان شيخون في بدايته ساحرًا عاديًا، يعيش بين الناس دون أن يلفت الأنظار، ولم يكن يملك من القوة سوى القليل. لكن شيئًا تغير في نفسه بعد اكتشاف الناس قوة أحجار البئر؛ فقد رأى بعينه كيف تُعيد القطع الصغيرة من تلك الأحجار نبع الماء في الآبار الجافة، ليدرك أن البئر العظيمة ليست مجرد منبع ماء مُنح للواحة بعد سقوط الشهاب من السماء، بل بوابة لقوة هائلة تمتد إلى أعماق الأرض، وتتصل بعوالم مظلمة يعجز العقل البشري عن استيعابها.

ثم توقف للحظة، وكأنه يعيد ترتيب أفكاره، ثم تابع:

- حينذاك، تأججت في قلبه أطماعه، وأصبح يطمح للسيطرة على الواحة والأراضي البعيدة، مؤمنًا أن السطوة والقوة وحدهما سيجعلان منه حاكمًا يخشاه الجميع. ولتحقيق ذلك، تسلل إلى أعماق البئر وسرق الحجر الرابع الذي تعاهد الناس على تركه هناك دون مساس، مقتنعًا بأن هذا الحجر هو مفتاح تحقيق مجده الأكبر، وقدره المنتظر للهيمنة المطلقة.

همس أبي في دهشة:

- كان شيخون مَن سرق حجر زمير الرابع؟!

هز بندو رأسه، وقال:

- نعم، لكنه لم يهنأ بفعلته.

ثم أردف:

- فبعد أن استولى شيخون على الحجر، سرقه منه يعقوب، شقيقه الأصغر، الذي كان على دراية بأطماعه السوداء. كان يعقوب يدرك أن وجود الحجر بين يدي أخيه سيجلب الخراب على الواحة وأهلها، فهرب به إلى هذه الأرض، أرض الجن، حيث قدَّم ذلك الحجر قربانًا لسيد أرضنا، الذي أخذه وأودعه في غرفة سرية تحت الحصن السداسي، محمية بحراسٍ لا يقدر على اختراقها بشر أو شيطان.

همستُ بنبرة أكثر دهشةً:

- الجد يعقوب كان شقيق شيخون؟!

هز بندو رأسه إيجابًا وكأنه سمعني، ثم أكمل:

- كان هذا الفقدان هزيمة عظيمة بالنسبة لشيخون، لكنه لم يتوقف، إذ عاد إلى أعماق البئر في سعيٍ محموم عن قوة بديلة.

وهناك، واجه روح النبتة، الشيطان القابع في البئر، كيانٌ شرس مُكبل، ينتظر منذ أزلٍ طويل تحرره للانتقام ممن نفوه إلى هذه الأرض. عرض الشيطان على شيخون قوةً هائلة، وسلطة لا يمكن تصورها، مقابل شرط وحيد؛ أن يقدم الأطفال كقرابين لتغذية روح النبتة، حيث إن دماء الأطفال، حسب قول الشيطان، كانت العنصر الضروري لاستعادة النبتة طاقتها المطلقة بعد سرقة أحجارها، وتحرير شيطانها من قيوده.

فوافق شيخون، لكنه اشترط على الشيطان تجفيف البئر العظيمة وكل آبار الواحة التي تنبع بالمياه أولًا، حتى يقتنع الناس بأن التضحية بالأطفال هي السبيل الوحيد لعودة الماء، وبهذا، جفت البئر، وعاش الناس في خوف ويأس مع القحط الذي أصاب الأرض، فاستغل شيخون ذلك، وبدأ بتقديم الأطفال واحدًا تلو الآخر، كقرابين لنبتة البئر. لتذوب أرواحهم في النبتة الشيطانية، ويعود هو لينهل من طاقتها الساحرة، فتزداد قوته وسطوته مع كل روح تُزهق.

ومع تصاعد قوته الشريرة، شرع شيخون في تدوين كتابٍ مسحور يفيض بالسحر الأسود وتعاويذ أرض الجن التي سرقتها شياطينه. كان هذا الكتاب أشبه بوعاءٍ شرير أودع فيه جزءًا من روحه وروح شيطان النبتة، فتغذى الكتاب على تلك القوى المظلمة، وصار أكثر قوة وسحرًا، ليصبح شيخون أقرب ما يكون إلى السيطرة الكاملة التي سعى لها منذ البداية.

ثم رفع بندو رأسه فجأة نحونا، وأردف:

- إلا أن الأمور لم تسر كما أراد. ففي لحظة غرور، قطع جفون أخيه يعقوب الذي كان يوقفه على حافة البئر، لتسقط دماء يعقوب إلى أعماق البئر، وتقلب الموازين.

وأطلق بندو ضحكة خافتة وأكمل:

- لم يكن شيخون يدرك أن دماء يعقوب، قد بُوركت من سيد الجن بعد تقديمه الحجر الرابع قربانًا. ولم يكن يعلم أن طاقة تلك الدماء ستستطيع تحرير أرواح الأطفال المقيدة في أعماق البئر، فثارت الأرواح، وحاصرت شيخون كي تنهش لحمه.

حينذاك، ودون مفر، ألقى شيخون بنفسه في أعماق البئر. بعدما تأكد من هروب بعض أبنائه من بطش أطفال البئر ومعهم كتابه المسحور، ووهب نفسه لشيطان النبتة، طالبًا حمايته ريثما يستعيد سطوته بمساعدة أبنائه، لكن الشيطان أخبره بغضب أن يعقوب ألقى تعويذةً على أبنائه أفقدتهم ذاكرتهم، مانعًا أيًا منهم من العودة لمساندته. ومع ذلك، وافق الشيطان على منحه الأمان، لكنه قيَّده بين فروع النبتة، وربط تحريره بإعادة الحجر الرابع إلى أعماق البئر. ليس هذا فحسب؛ بل وعده بأنه سيمنحه حينها قوةً عظيمة تمكنه من السيطرة على عالم البشر، بمساعدة جيش من أطفال البئر الذين يمكن لقوة الحجر الرابع إخضاعهم، وتحويلهم إلى أداة لتحقيق أطماعه السوداء.

ثم استدار بندو بوجهه نحو منصة الحصن، وتابع:

- في تلك اللحظة، أغلق شيخون عينيه هنيهة، ثم فتحهما ليعلن للشيطان أنه رأى نبوءة من خلال بقايا روحه المودعة في كتابه المسحور؛ نبوءة ستتحقق بولادة ما يُعرف بروح العهد.

وصمت بندو للحظة، ثم واصل بنبرة أعمق:

- طفلٌ يحمل دماءً مختلطة، دماء من نسل يعقوب ودماء من نسل شيخون، يكسر الحواجز بينه وبين الجن، فيعشقونه ويألفون رائحة دمه. سيكون هذا الطفل هو قربانه الأعظم للشيطان، حيث

ستُروى بدمه جذور النبتة، فتمتد فروعها إلى أرض الجن دون أن يعترض طريقها أي حارس، لتصل إلى غرفة الحجر الرابع وتعيده إلى قلب البئر. وعندها، يتحرر شيخون، ويكتسب السلطة المطلقة على مصير الواحة وأرض الجن وأرواح الأطفال الثائرين.

ثم استدار بندو بوجهه إلينا مرة أخرى، وتابع:

- ومنذ ذلك الوقت، ارتضى شيخون بحكم الشيطان، طامعًا في تحقيق النبوءة، ووافق الشيطان بدوره، بل ومع مرور السنوات بدأ يقدم له العون، فأرسل شياطينه الهائمة في الأرض لتعبر الدوَّارة إلى أرضنا، وتلقي في حظيرة القبور تعاويذ تجعلها تستدعي ضيوفًا من نسل شيخون، لديهم القدرة على التأقلم مع نسل يعقوب وفهم لغة الجن. لكن التعاويذ كانت غير مكتملة، فوصل هؤلاء الضيوف إلى الواحة فاقدي الذاكرة، لا يدركون سبب وجودهم في أرضٍ لا يعرفون عنها شيئًا، فنجا بعضهم وتمكَّن من العودة إلى حيث أتى، بينما انتهى أمر الباقين إلى موت محتوم.

ثم وجَّه حفرتَي عينيه الخاليتين نحو أمي، وأردف:

- إلى أن أتت امرأة من نسل شيخون، عبرت الدوارة، ونجت من أطفال البئر، ثم وقعت في حب رجل من نسل يعقوب، وتزوجا، وأنجبا ثلاثة أطفال. كانت الصغرى منهم هي روح العهد التي انتظرها شيخون أكثر من ألف عام.

احتقن وجه أمي بقوة، بينما عاد بندو إلى النحيب، وهو يتابع:

- ريم هي روح العهد، فهي الوحيدة من بين إخوتها التي وُلدت بقدرة خاصة على التواصل مع الجن. لقد تواصلت معي، وأحببتها بصدقٍ كما أحبها بنو جنسي. ومع مرور الوقت، لم أكن مجرد جني حارس لها؛ بل أصبحت معلمًا. علمتها لغتنا وطلاسمنا، وكنت

مستعدًا للدفاع عنها بكل ما أملك من قوة. ولكن، كان قلبي يرتجف خوفًا من اللحظة التي يسقط فيها سور بيتكم، وقد حدث ذلك في الليلة الماضية. ومنذ تلك اللحظة، لم أعد قادرًا على حمايتها.

قالت أمي مكذبة له:

- لكني لست من نسل شيخون، فكيف تكون ريم روح العهد؟

قال:

- كل الضيوف الذين وصلوا إلى هذه الأرض عبر الدوارة هم من نسل أبناء شيخون الذين فروا من ثورة أرواح أطفال البئر، حتى لو لم يعلموا بذلك.

ثم أضاف بنبرة مثقلة بالأسى:

- لقد أعلنت ريم عن كونها روح العهد دون أن تدري.

نظرنا له مترقبين، فقال:

- لقد ذهبت يوم رحيل أخيها إلى حظيرة القبور، وبكل براءة وقفت أمام قبره، وطلبت أن ينجو من الدوارة. فلقنتُها تعويذة النجاة، فقرأتها بلغتنا أمام القبر، فاستجابت الحظيرة في الحال، وبدأ الماء ينشع في القبر.

تذكرتُ الساعات التي فقدنا فيها ريم يوم رحيل المنقبين، قبل أن نجدها نائمة بجوار صخرة في الجهة الشرقية من الواحة، بالقرب فعلًا من حظيرة القبور. وتبادلتُ أنا وأبي وأمي النظرات، وكأننا عرفنا أخيرًا لماذا نشع الماء في قبر يوسف دونًا عن غيره من المنقبين. قبل أن يردف بندو باكيًا:

- لم يكن عليّ أن أطاوعها في ذلك. لقد كانت قراءتها للتعويذة بلغتنا، واستجابة الحظيرة لها، إعلانًا للشياطين الساكنة في

حظيرة القبور منذ أن ألقيت تعويذة الضيوف، بأنها روح العهد.
ولا شك أنهم أخبروا شيخون وشيطانه بذلك.

فقالت أمي في خوف:

- هل تراها الآن؟

هز رأسه آسفًا وقال:

- لا، لم أعد أراها، فقد ألقى خادم شيخون تعوينة أخفتها عن أعين الجن.

فسأله أبي:

- وأين الحجر الرابع الآن؟

قال الجني:

- إنه لا يزال محفوظًا بأمان في غرفة حصينة تحت هذا الحصن، بعيدًا عن البشر والشياطين. ورغم ذلك، تمتد طاقته العظيمة لتضيء أعماق الواحة بأكملها.

فقال أبي:

- إذا كانت طاقة ذلك الحجر عظيمة إلى هذا الحد، فلماذا لم يستخدمها سيدكم للتخلص من أطفال البئر؟

أجاب بندو:

- لقد استُخدمت طاقته بالفعل في تعاويذ الحماية التي حمت الواحة لقرون. لكننا لم نتمكن من تسخيرها للقضاء على أطفال البئر، أو منعهم من إعادة تكوين أجسادهم من أشلاء ضحاياهم في أعماق أرضنا. إن الحجر ينتمي إلى الشيطان، ووحده يستطيع استخدام قوته الكاملة.

تذكرتُ تماثيل أطفال البئر التي واجهناها في أعماق الواحة قبل وصولنا إلى بركة الجن الحراس، قبل أن يكمل بندو باكيًا:

- لن تسلم ريم من أذى الخادم، سيروي بدمائها جذور النبتة التي تقيد فروعها سيده، وبعدها ستمتد تلك الفروع خفية إلى أرضنا، وسيضل الحراس رائحتها العفنة بوجود رائحة دم ريم المألوفة لنا عليها، فتعود بالحجر إلى أعماق البئر وتحرر شيخون.

فسألتُه وأنا أقاوم مشاعر الخوف التي كانت تعصف بي:

- لماذا دلتنا الجن الحارسة إلى هذا المكان إذًا، وهم يعلمون أن هذا ما يريده شيخون؟

فأجابني بحزن وندم عميقين:

- بعد سقوط سور بيتكم، خشينا أن يتمكن خدام شيخون من الوصول إلى ريم. لذلك همسنا إلى عمران بأن يأخذ الناجين من أهل الواحة إلى الحصن السداسي، كي ندفعكم للبحث عن تعويذةٍ تحمي أولئك الناسَ داخل الحصن. ومن ثم تأتون إلى هنا، بعيدًا عن متناول خدام شيخون وشياطينه.

ثم صرخ فجأة بصوت ممتزج بالغضب والألم:

- لم نكن نعرف أن سيف خادم لشيخون، لقد خدعنا.

فسأله أبي مصدومًا:

- هذا يعني أنه لا توجد تعويذة لتحصين الحصن السداسي طوال العام؟

هز بندو رأسه، وقال:

- إنها كذبة. إن الحصن مُحصن ليوم واحد فقط كل أربع سنوات، كما اعتدتم. ذلك اليوم يوافق ذكرى اليوم الذي أحضر فيه يعقوب الحجر إلى هذه الأرض.

أمسك أبي برأسه غير مصدق ما يحدث، أما أنا فسألته بخوف:

- وكيف يمكننا العودة إلى زمننا مرة أخرى؟

قال:

- بالطريقة نفسها التي جئتم بها، تصلون إلى قاعة البركة وتقطرون فيها دماء ذكرٍ من نسل يعقوب.

فقالت أمي:

- في أي زمنٍ نحن الآن؟

قال:

- إنه اليوم التالي بعد ثورة أرواح أطفال البئر.

قال أبي:

- لكنني لم أرَ خارج الحصن بشرًا غيرنا.

قال بندو:

- لقد وصل أسلافكم قبل ساعات إلى أرضنا، وهم الآن برفقة يعقوب يؤدون بعض الطقوس في حظيرة القبور بعد نشوء الدوّارة، وسيعودون بعدها إلى الحصن السداسي.

فسألته أمي:

- هل يستطيع يعقوب إنقاذ ريم؟

هز رأسه آسفًا وقال:

- لن يخرجوا من الحظيرة قبل فجر الغد. ولن تستطيعوا الذهاب إليهم، لن يُفتح باب الحصن مرة أخرى إلا من الخارج.

فسألته أمي بعينين لامعتين بالدموع:

- كيف ننقذها من شيخون إذًا؟

صمت مفكرًا لبعض الوقت، ثم قال:

- عليكم أن تخرجوا من هذا الحصن إلى أرض واحتكم القديمة.

سأله أبي:

- كيف؟

فقال بندو بحزم:

- سأدلكم على الطريق.

ثم رفع يديه نحو السماء وبدأ يهمس بلغة غريبة، بعدها أشار نحو المنصة الحجرية التي تتوسط ساحة الحصن، فانشق سطحها ليكشف عن باب خماسي الأضلاع، وقال:

- سنصل إلى البوابة التي تفصلنا عن الواحة القديمة عبر أنفاق غرف التضحيات.

ثم تقدم نحو الباب الذي فُتح في سطح المنصة ونزل سلم حجري طويل ينحدر منه، فتبعناه بعد لحظة من التردد، لنسير في ممر عتيق كانت النقوش القديمة على جدرانه تتوهج بضوءٍ باهتٍ كلما لمسها بندو، وكأنها تستيقظ من سبات طويل.

فجأة، ظهرت حولنا أشباح رمادية، تهمس بلغة غير مفهومة، التفّت حولنا كدوامة مرعبة، فشعرتُ بقلبي يرتجف من الخوف. لكن بندو همس ببعض الكلمات التي بدت كأنها تعويذة قديمة، فبدأت الأشباح تتلاشى، مفسحةً لنا الطريق ببطء. لنتابع السير لمسافة شاسعة، وكأننا نقطع

الواحة بأكملها من أقصاها إلى أقصاها، حتى وصلنا أخيرًا إلى غرفة واسعة في عمق الأرض، تتوسطها منصة حجرية صغيرة منقوشة برموز غريبة، بينما كان أحد جدرانها مليئًا بفتحات دائرية. قال بندو بصوتٍ خافت:

- هذه الغرفة تقع في أعماق واحتكم القديمة.

قال أبي مدهوشًا:

- إنها غرفة اتصال.

أومأ بندو وأجاب:

- نعم، تُعرف هذه الغرف لديكم بهذا الاسم، أما في عالمنا فتُسمى غرف التضحيات، وهذه هي الوحيدة التي تقع خارج حدود أرض الجن، لذا لن يمكنني تجاوزها معكم.

ثم قال وهو يشير نحو المنصة الحجرية:

- عليكم أن تضعوا أيديكم هنا، وتثبتوا نواياكم الحقيقية. ستستجيب الغرفة لرغبتكم إذا كانت صادقة.

تبادلنا النظرات، ثم مددنا أيدينا بتردد لنلامس بأصابعنا النقوش. في تلك اللحظة، بدأت النقوش تتوهج بلون فيروزي عميق، ومع توهجها شعرتُ بطاقة غريبة تنساب عبر يديَّ وتنتشر في أنحاء جسدي. فجأة، اهتزت الأرض تحتنا، وبدأت فتحات الجدار تشع ضياءً فيروزيًا وكأنها تستجيب. قبل أن يُفتح في وسطها باب على شكل نجمة ثمانية.

حينذاك، التفت إلينا بندو، وقال:

- الطريق مفتوح الآن. لكن تذكروا، بعد عبوركم هذا الباب لن تكونوا محصنين من أطفال البشر، ولن يسمح لكم شيخون بالوصول إليه دون أن يختبركم. ستواجهون ظلاله وكل ما يرمز له من شر، فاستعدوا للمواجهة.

(22)

يوسف

وقف الجميع متسمِّرين عندما قلت، وأنا أنظر إلى الجدار المليء بالفتحات الدائرية؛ إنها غرفة الاتصال السادسة عشرة. وساد الصمت لحظات، قبل أن يقطعه ناجي متسائلًا:

- ما الذي علينا فعله الآن؟

في تلك اللحظة، تقدمت رزان نحو جدار آخر في الغرفة، وقالت بدهشة وهي تشير إلى رموز حديثة مرسومة عليه:

- إنها نفس الرموز التي وجدناها في بيت حسام!

أخرجتُ قطعةً من أحجار زمير من جيبي، وقرَّبتها من الجدار، فظهرت الرموز بوضوح أكبر، لتؤكد لنا أنها بالفعل الرموز نفسها، فأردفت رزان:

- هل يمكن أن يكون حسام قد جاء إلى هنا من قبل؟

تنهدتُ وقلت:

- ربما، لكن السؤال هو كيف وصل إلى هنا أصلًا، والباب الدائري كان مخفيًا تحت تلك الشجرة الضخمة؟

فقال ناجي:

- ربما نمت الشجرة بسرعة هائلة بعد دخوله إلى هنا، لم يعد هناك شيء مستبعد.

فقال قاسم:

- .أو ربما يوجد مدخل آخر يؤدي إلى هذه الغرفة.

فقلت، محاولًا توجيه تفكيرنا:

- أيًا كانت الطريقة التي وصل بها إلى هنا، فعلينا أن نجد نحن طريقة تمكّننا من الوصول إلى الواحة عبر هذه الغرفة.

فقالت رزان:

- هل يمكننا استخدام الكتاب؟ ربما نعثر في داخله على تعويذة تنقلنا من هذه الغرفة إلى أي غرفة اتصال أخرى في الواحة.

أعجبتني فكرتها، وأدخلت يدي في جيبي كي أخرج أوراق الماهورا التي اقتطفتها بعد نمو أشجارها، لكن ما إن لمستُ الأوراق حتى تحولت إلى تراب ناعم بين يدي، فتذكرتُ أن مهمتها قد انتهت مع كشف أحجار زمير الستة وملامستنا لها، فرفعتُ يدي المليئة بالتراب لأصدقائي، وقلت:

- لن نستطيع قراءة تعاويذ الكتاب.

زمّت رزان شفتيها مفكرة، لكن ناجي صرخ فجأة وهو ينظر إلى الجدار المليء بالفتحات الدائرية:

- هناك قطرات دماء متجلطة على بعض الفتحات.

اقتربتُ من فتحات الجدار مرة أخرى، وقربتُ حجر زمير منها، كانت هناك بالفعل بقع دماءٍ صغيرة جدًا على حواف بعضها، فتذكرتُ قطرات الدماء المتجلطة على باب زنزانة كارم والتي اتخذت نمط النجمة الثمانية، وبدأتُ أقرب حجر زمير من كل فتحة لأتأكد بالفعل أن الفتحات التي يوجد عليها آثار الدماء تتبع النمط نفسه، فقلت:

- يبدو أن مفتاح العبور عبر هذا الجدار هو وضع الدماء في هذا النمط.

ثم طلبتُ من قاسم أن يعطيني خنجره، فأعطاني إياه، وكدت أجرح راحة يدي، لكن رزان قالت بتحذير:

- انتظر، علينا أن نزيل تلك الدماء عنها أولًا، لا بد أنها دماء حسام، التي قد تكون ملعونة.

وأخذت الخنجر مني، وبدأت تكحت الدماء المتجلطة عن الفتحات، حتى التصق بعضها بسن الخنجر. وعندما انتهت، التفتت إلى قاسم وقالت:

- أعطه سهمًا من جعبتك ليجرح به يده بدلًا من هذا الخنجر. لن نخاطر باستخدامه.

فأعطاني قاسم سهمًا، فجرحتُ برأسه راحة يدي، ثم قطرتُ دمائي على حواف الفتحات التي نظفتها رزان، وانتظرنا، لكن شيئًا لم يحدث، فقالت رزان دون تردد:

- دعني أجرب.

ثم مسحت رأس السهم الذي استخدمته، وجرحت يدها، ووضعت قطرات دمها على الفتحات نفسها. لكن مرة أخرى، لم يتغير شيء.

فالتفتنا إلى ناجي الذي كان يقف بعيدًا، يراقب ما نفعله بعينين متسعتين، لكنه تمتم بقلق:

- لا، لن أفعلها.

حينها قال قاسم:

- لا أمانع في المحاولة، لكن دعونا نجرّب شيئًا آخر أولًا.

ثم أخرج سلسلة صغيرة من جيبه، مُعلّقة بها قنينة زجاجية صغيرة تحتوي على سائل أحمر داكن. وقال وهو يرفعها أمامنا:

- لقد وجدتُ هذه السلسلة مع أحد الفتيان الذين صادفتهم بعد رحيلي عنكم، وانتزعتها منه بالقوة بعدما شعرتُ من تصميمها بأنها تعود إلى واحتنا، أو على الأقل تحمل نفس الطابع المميز لفنوننا.

تجمدتُ مذهولًا للحظة وأنا أنظر إلى السلسلة والقنينة، قبل أن أقول:

- هذه.. هذه قنينتي!

أصابت الدهشة الجميع، فأكملتُ بسرعة:

- إنها تحتوي على دماء الجد يعقوب. إنها قصة طويلة سأحكيها لكم لاحقًا، لكن علينا استخدامها الآن.

فأومأ قاسم برأسه إيجابًا دون جدال، وناولني القنينة. فتقدمتُ بها نحو الجدار، وفتحتُ غطاءها بحذر، ثم بدأتُ أضع قطرات من دماء الجد يعقوب على الفتحات التي فشلت دماؤنا في إحداث أي تغيُّرٍ بها، حتى أكملتُ نمط النجمة الثمانية، فبدأت تلك الفتحات تشع بضوء فيروزي قوي، أضاء الغرفة بأكملها. قبل أن ينفتح باب كبير في الجدار، محاطًا بتلك الفتحات كإطارٍ مشع، ليصرخ الباقون في صوت واحد:

- لقد استجاب الجدار لدماء الجد يعقوب المباركة.

فقلت بحماس:

- علينا الإسراع بالعبور قبل أن يُغلق هذا الباب.

وكدت أعبر الباب، لكن قاسم أمسك بيدي وأوقفني، ثم قال وهو يمد يده الأخرى لي بزجاجة صمغ:

- هل نسيت طبيعة واحتنا؟ إن أطفال البذر ينتظرون رمشة جفن واحدة.

ابتسمت وشكرته، كان الحماس قد أنساني بالفعل تثبيت جفوني، ولولا أن قاسم قد احتفظ بحصص صمغنا التي أخذها منا يوم افترق عنا، لكنا قد بقينا في الغرفة لا نجرؤ على عبور ذلك الباب.

***

ثبتنا جفوننا بالصمغ، ثم عبرنا الباب واحدًا تلو الآخر، لنتقدم بحذر عبر الأنفاق الطويلة التي تشعَّبت أمامنا. كانت الأنفاق مضاءةً بإضاءة فيروزية خافتة، وجدرانها الصخرية مشبَّعةً بنقوش غريبة لم نرَ مثلها من قبل، قال ناجي مبهورًا وهو يمرر إصبعه على النقوش:

- وكأنها من كتابة الجن القدامى، السكان الأصليين لواحتنا.

حينذاك قال قاسم وهو يتلفت حوله:

- أشعر أننا لسنا وحدنا هنا، وكأن هناك أنفاسًا أخرى تحيط بنا.

التفتنا حولنا فلم نجد شيئًا، فواصلنا تقدمنا عبر النفق الذي كنا نقطعه، وبعد مسافة طويلة، وصلنا إلى قاعة واسعة ذات إضاءة أفضل من الأنفاق، توقفنا عند مدخلها متسمرين في أماكننا، حين أبصرنا داخلها عشرات التماثيل لأجساد بشرية صغيرة، مُعلَّقة من السقف بأحبال طويلة تشبه الأحبال السرية. تمتمت رزان في ذهول:

- من الذي نحت كل هذه التماثيل؟

كان داخلي يحدثني بأن هناك شيئًا غير طبيعي، فأشرت لها أن تصمت ونواصل ترقبنا للقاعة، بينما تقدم قاسم خطوات داخل القاعة، ثم قال في دهشة:

- تبدو وكأنها مصنوعة من الوحل، وليست منحوتة من الصخر.

ثم أضاف بدهشة أكبر، وهو يلمس تمثالًا لا يغطيه الوحل بالكامل:

- وكأنهم أطفال حقيقيون تجمدوا في هذا الوضع منذ زمن بعيد.

لكن سرعان ما تحولت دهشته ودهشتنا إلى رعب عندما فتح ذلك التمثال عينيه فجأة، لتتوهج بضوءٍ فيروزي، قبل أن يتساقط كل الوحل عن جسده، فأمسك قاسم قوسه بسرعة، وسحب سهمًا من جعبة سهامه، وأطلقه نحو صدر ذلك التمثال، فانطفأت عيناه المتوهجتان في الحال، لكن بعد لحظة واحدة، فتح التمثال فمه وأطلق خوارًا حانقًا، ففوجئنا ببقية التماثيل تفتح أعينها المتوهجة، ويتساقط الوحل عن أجسادها، لتتحرر من الأحبال التي كانت معلقة بها، وتلتفت نحونا، فصرختُ في قاسم بأن يركض نحونا، وصرختُ في ناجي ورزان:

- اركضا!

ركضنا عبر الأنفاق ونحن لا نعرف ماهية هذه التماثيل التي بدأت في مطاردتنا بحركاتٍ متيبسة وملامح متجمدة، حتى وصلنا إلى قاعة أخرى، لكن المشهد لم يكن مختلفًا؛ تماثيل أخرى كانت تتحرر، وكأن الخوار الذي أطلقه التمثال الأول قد أيقظ جميع تلك الكائنات المرعبة. هرعنا نحو نفق على يميننا، قادنا إلى أنفاق أخرى متشعبة، حتى وصلنا بأنفاس متقطعة إلى قاعة ثالثة، كانت التماثيل المخيفة تخرج منها أيضًا. حينذاك وقفنا في أماكننا لا نعرف إلى أين نذهب، فكل نفق كان يقودنا إلى قاعة جديدة مليئة بالمزيد من تلك التماثيل، وكأن أعماق الواحة تعج بأعداد لا حصر لها من هذه الوحوش الصغيرة.

فجأة، صرخ ناجي وهو يشير إلى نفق بعيد:

- هناك، لنتجه نحو ذلك النفق.

فركضنا في اتجاه ذلك النفق، وواصلنا تقدمنا فيه، حتى وصلنا أخيرًا إلى قاعة خالية من تماثيل الأطفال، رغم أن الأحبال التي تتدلى من السقف كانت حاضرة. في وسط تلك القاعة، كان هناك مجسم للواحة، التففنا حوله في صدمة حين رأينا أسوار البيوت كلها قد انهارت وصارت

حطامًا، باستثناء الحصن السداسي الذي ظل صامدًا في قلب المجسم.

قال قاسم في توتر شديد:

- هل هذا حقيقي أم خدعة من الشر الذي يسكن هذا المكان؟

لم أجد أنا أو ناجي إجابة لسؤاله، ونظرنا نحوه في صمت، بينما كانت رزان تحدق إلى المجسم بعينين مليئتين بالدموع، قبل أن تهمس:

- إن بيتنا محترق في هذا المجسم.

ربَّتُّ كتفَها لأُهدِّئها، وقلت:

- لا بد أن هذا المجسم خدعة، اطمئني، سنصعد إلى الأعلى وسنجد أهلك بخير.

لكن قبل أن أنطق بشيء آخر، بدأت التماثيل تتدفق إلى القاعة، فصرخ ناجي:

- علينا أن نخرج من هنا!

ركضنا نحو فتحة صغيرة كانت توجد في الجزء السفلي من أحد الجدران، وعبرناها لنجد أنفسنا في أنفاق مظلمة أخرى. حينذاك، أخرجتُ قطع أحجار زمير من جيبي، ووزعتُ على كل منا واحدة لتضيء لنا الطريق، وأكملنا السير في تلك الأنفاق، حتى وصلنا إلى قاعة مختلفة، ذات سقف منخفض وجدران صخرية ناعمة تحمل رموزًا تشبه رموز التحصين التي نعرفها. وفي وسط تلك القاعة، كانت هناك بركة ماء كبيرة، سطحها ساكن ومضيء، وكأن في أعماقها حجر زمير يتوهج بهدوء.

اقتربنا من البركة بحذر، وحينما نظرتُ إلى الماء، رأيت وجهًا أبيض ناعم الملامح، له عينان عميقتان تشعَّان بنور فيروزي مريح. تحدث إليَّ بصوت هادئ حين رأى ملامح الخوف على وجهي:

- لا تخف يا يوسف، أنا الجني الحارس لك.

رغم القشعريرة التي سرت في جسدي، تماسكتُ وسألته:

- أين نحن الآن؟

أجابني:

- في أعماق الواحة، تحت بيتك تمامًا.

سألتُه عن تلك التماثيل التي تطاردنا، فأجاب:

- إنها أجساد أطفال البئر التي أُعيد تكوينها من أشلاء ضحاياهم. لكن لا تقلق، فأنت بأمان في هذه القاعة.

سألتُه عن سبب مهاجمتهم لنا رغم تثبيتنا لجفوننا، فقال:

- إنهم يستمدون وهج أعينهم في الأعماق من الجدران المضيئة، لذا يهاجمون كل غريب يبصرونه. أما في الأعلى، فتستشعر أرواحهم حركة الرموش فقط.

سألتُه عن حال الواحة، فقال في أسف:

- لقد سقطت جميع أسوار البيوت، ولم نعد قادرين على حماية ساكنيها.

أدركتُ حينها أن ما رأيناه في المجسم كان حقيقيًا. ونظرتُ حولي فرأيت رفاقي يتحدثون إلى الماء وكأن كل واحد منهم يتواصل مع جنيِّه الحارس، ثم التفتت إليَّ رزان بعينين غارقتين في الدموع، وقالت:

- جني الحارس يقول إن أبي قد مات، قتله خادم شيخون.

ارتعد قلبي من الصدمة، ونظرتُ إلى جني الحارس من جديد، وسألته بقلق عن أسرتي، فقال:

- لقد خدعنا خادم شيخون. وذهب معهم إلى مهد هذه الأرض، بعدما كانوا هنا.

ثم أردف متأثرًا:

- الجن الحراس حاولوا حماية ريم، روح المهد، لكنها الآن في خطر عظيم.

كدت أسأله عما يقصده بمهد هذه الأرض، وروح المهد، والخطر الذي تواجهه ريم، لكن فجأة ظهر مشهد على سطح الماء: رأيت فيه والديَّ وعبير وريم، يسيرون في أنفاق مع حسام، الذي أطلق عليه الجني خادم شيخون، فصرختُ إلى سطح الماء:

- ابتعدوا عن هذا الشيطان، إنه يخدعكم.

لكن الجني الحارس قال لي بهدوء:

- صوتك لن يصل إليهم، إلا كهمسات غير مفهومة.

راقبتُ المشهد بقلق أكبر وأنا أواصل صراخي إليهم، ثم رأيتهم يدخلون غرفة يتوسطها مذبح حجري قديم حيث وضع حسام حجر زمير في منتصفه، قبل أن ينزل على ركبتيه ويضع رأسه في تجويف صغير بحافة المذبح، فتوهج الحجر بشدة وبدأت الغرفة تهتز بعنف. ليسقط الجميع غير قادرين على التحكم في أجسادهم. قبل أن يدور الهواء في الغرفة كدوامة عاتية جعلت أجسادهم تتطاير في الهواء وهم يتشبثون بحافة المذبح، لكن والدي، بشجاعة، انتزع قطعة زجاج من حسام، وجرح ذراعه بها، ليسقط دمه على المذبح ويبطل التعويذة. بعدها انفجرت الأرض تحت المذبح محدثة حفرة عميقة، سقط فيها أبي وأمي وعبير، بينما هرب حسام حاملًا ريم بين ذراعيه.

صرختُ في الجن الحارس:

- أين هم الآن؟ وماذا قصدت بمهد هذه الأرض؟

قال، وقد بدا أن صوته صار مسموعًا من رفاقي، الذين كانوا يحدقون بترقب شديد إلى المشهد المستمر على سطح الماء:

- لقد عادوا إلى ماضي هذه الأرض، حيث لم تكن بيوت الواحة قد شُيدت بعد، ولم يكن أطفال البئر قد اخترقوا الدوارة.

وبينما كنت أستوعب كلامه، رأيت مشهدًا جديدًا يظهر أمامنا على سطح الماء؛ كان والداي وعبير يتقدمون نحو الحصن السداسي وسط أرض عارية، وفجأة خرجت من الأرض أيادٍ سوداء تحاول سحبهم إلى الأعماق. حينذاك قال الجني الحارس باكيًا:

- لقد ألقى خادم شيخون سحره الأسود على الأرض. لن يستطيعوا الوصول إلى الحصن السداسي دون تعويذة تستدعي حراس الحصن.

تسارعت أنفاسي وأنا أرى الأيادي تتزايد من حولهم، بينما كانوا يحاولون التملص منها وضربها بالصخور دون جدوى، عندئذٍ قالت رزان:

- ربما يحتوي الكتاب على تلك التعويذة!

قلت مضطربًا:

- لا نمتلك أوراق نبتة الماهورا، ولن تفلح دماؤنا في فك تعاويذ الكتاب.

فقالت وهي تخرج الخنجر الذي أزالت به دماء حسام المتجلطة عن فتحات الجدار الدائرية:

- لكن دماء حسام قد تصلح، إنها لا تزال عالقة على سن هذا الخنجر. يمكننا المحاولة.

أخذتُ منها الخنجر بحذر، ثم أصابني الارتباك وأنا أفكر في أي صفحة قد تحتوي على تلك التعويذة، كي أضع الدماء عليها، ثم نظرتُ إلى الجني الحارس، فأومأ بأنه لا يعرف، فنظرتُ إلى المشهد المستمر على سطح البركة، لأرى أبي وأمي وعبير وقد أصابهم الإعياء الشديد

وضعفت ضرباتهم، لتوشك الأيادي السوداء على التمكن منهم، فوضعتُ سن الخنجر المصبوغة بدماء حسام في وسط الدائرة الفضية الموجودة على غلاف الكتاب.

بعد لحظة واحدة، توهجت النجوم الثمانية التي تحيط بالدائرة بضوء فيروزي ساطع، وسمعت الفحيح يهمس في أذني:

- أخبرني، ماذا تريد يا مُطعِم الكتاب؟

فقلت باضطراب:

- أريد التعويذة التي تستدعي حراس الحصن السداسي، بلغة أفهمها.

في تلك اللحظة، وجدتُ الكتاب في يدي يُفتح من تلقاء نفسه، والصفحات تُقلّب بسرعة، حتى توقفت عند صفحةٍ تتوهج بسطور متتالية من رموز غريبة لا أفهمها، وبعدها عاد الفحيح للهمس في أذني:

- يا سكان الظل وحراس هذا المكان،

يا من تحرسون أبواب الخفاء وتفككون قيود الزمان،

أستدعيكم من أعماق الزمن وسراديب العدم،

بدماء الأوفياء وعهد الجان،

أستحلفكم بقوة الأرض وسر السماء أن تحضروا الآن من وراء الحجاب،

لتقيدوا الظلام وتزيلوا الشر،

باسم القوة التي تتخطى الزمان والمكان،

اربطوا أعداءنا بقيود لا تُكسر،

وافتحوا لنا بوابات النجاة بنور لا ينطفئ،

باسم القوة الأعظم التي لا تُقهر، استجيبوا لندائي الآن،

وأعيدوا لنا السلام والأمان.

وأخذ يكررها أكثر من مرة، فالتفتُ نحو البركة وصرختُ بالكلمات نفسها إليهم، فقال الجني الحارس:

- يجب أن تمد البركة بأي شيء ينتمي إلى أحدهم، كي يتمكن من سماع التعويذة.

فكرتُ سريعًا، لكني لم أجد معي شيئًا ينتمي إلى أي منهم، ثم فجأة نظرتُ إلى قاسم، وسألته:

- ألا يزال معك مرطب العيون الذي صنعته أمي من أجلنا؟

قال وهو يخرج زجاجة صغيرة:

- بالطبع.

كنت أعرف مدى إخلاص أمي في صناعة معجون أعشابها، حتى إننا كنا نقول دائمًا إنها تصنعه من روحها. لذلك، عندما أعطاني قاسم الزجاجة، أفرغتُ محتواها في البركة فوق صورة أمي مباشرةً، وحين ذاب المعجون في الماء، صرختُ إلى أمي بأن تردد ما أقوله، وبدأتُ أصرخ بكلمات التعويذة مرة أخرى، فنجح الأمر، وبدأت أمي تردد الكلمات ورائي. وكلَّما أخطأتُ في كلمة، صحح لي رفاقي، وكأنهم حفظوها من كثرة ما رددتها أمامهم.

بعدها، وجدنا باب الحصن يُفتح ويخرج منه الجن الحراس الذين تجسدوا في صورة أشباحٍ رملية أنقذت أمي وأبي وعبير من تلك الأيادي الشريرة، وصنعت لهم ممرًا آمنًا إلى داخل الحصن السداسي. وبعدها اختفى المشهد من سطح البركة، وقال الجني:

- لن تستطيع رؤيتهم أو التحدث إليهم بعد دخولهم الحصن السداسي. لكن لا تقلق، إنهم بأمان هناك.

تنفستُ الصعداء، ثم قلت له:

- أخبرني، ما قصة روح العهد التي تحدثت عنها، وما الخطر الذي يحيط بريم؟

بدأ الجني في سرد قصة الواحة، من لحظة سقوط الشهاب من السماء واكتشاف أحجار زمير، إلى طمع شيخون في السيطرة، وتقديم يعقوب الحجر الرابع لسيد أرض الجن، ثم استمر يروي ما جرى بعد التضحية بالأطفال للبئر، وما حدث في ليلة ثورتهم. وكيف قام شيطان النبتة بتقييد شيخون في أعماق البئر بانتظار أن تتحقق نبوءته عبر دماء روح العهد، التي ربما تكون أختي ريم، والتي اختطفها حسام ليقدم دماءها لجذور النبتة الشيطانية.

كنت أشعر بقلبي ينبض بقوة من التوتر والخوف بينما أصغي للجني الحارس الذي أكمل قصته، موضحًا كيف بدأت التعاويذ التي ألقيت في حظيرة القبور باستدعاء الضيوف إلى الواحة. ثم لاحظتُ على سطح الماء مشهدًا يظهر أمي وأبي وعبير وهم يسيرون وسط أنفاق متشابكة، يقودهم كائن غريب، نحيل ومقوس الظهر. قال الجني الحارس:

- هذا هو بندو، حارس ريم، أصر أن يذهب إلى هناك ويظهر بصورته الأصلية كي يقودهم عبر الأنفاق إلى الواحة القديمة من أجل إنقاذ ريم.

سألتُه بسرعة:

- هل يمكنك إرسالي إلى هناك؟

قال:

- نعم، لكني أحتاج إلى دماء ذكرٍ من نسل يعقوب.

سألته رزان:

- وكيف يعود مرة أخرى إلى هنا؟

قال:

- بالطريقة نفسها؛ يصل إلى البركة ويقطر فيها دماء ذكرٍ من نسل يعقوب.

في تلك اللحظة، ظهر على سطح البركة مشهد لأهل الواحة وهم يجلسون في خوف ورعب بين جدران الحصن السداسي، ينتظرون مصيرهم المجهول بعد سقوط أسوار بيوتهم واحتراق المخزون الأكبر من الصمغ وموت صانعه. كان الأمر وكأن الجن الحراس يضعون أمامنا خيارين: إما البقاء مع أهل الواحة المنكوبين وإما الذهاب لمساعدة أسرتي.

كنت أعلم أن دمائي لن تصلح للانتقال إلى الماضي عبر البركة بعد ما حكاه الجني عن دماء الضيوف وكون أمي من نسل شيخون، مما يعني أن دمائي ليست نقية من نسل يعقوب. كما أن دماء رزان لن تصلح لأنها أنثى. فنظرتُ إلى ناجي وقاسم، اللذين كانا يراقبان مشهد الناس داخل أسوار الحصن. بعدها، التفت إليَّ ناجي وقال:

- سأبقى هنا، سأصعد إلى الأعلى وأنضمَ إلى أهلي في الحصن السداسي، إنهم في أمس الحاجة لي الآن.

وقال قاسم:

- أخبرني جني الحارس أن أمي ماتت بعد رحيلنا عن الواحة بأيام، لكني سأبقى مع أهل الواحة. قد تصعد أجساد أطفال البئر المتحركة إلى السطح في أي لحظة، وحينها سيكون أهلنا في حاجة إلى كل مقاتل.

هززتُ رأسي متفهمًا، بينما قالت رزان:

- سآتي معك يا يوسف، أريد الانتقام ممن قتل أبي.

ربتُّ كتفَها، وقلت:

- حسنًا، سنذهب معًا يا رزان، لا تزال لدينا دماء الجد يعقوب.

ثم نظرتُ إلى ناجي وقاسم، وقلت:

- اعتنيا بأهل الواحة، وسنفعل ما في وسعنا لإنقاذ ريم ومنع تحقق نبوءة ذلك الشيطان.

ثم مددتُ يدي بالكتاب إلى ناجي، وقلت:

- احتفظ بهذا الكتاب معك، أخشى أن آخذه معي بالقرب من شيخون أو خادمه، فيكون مصدر قوة لهما.

هز رأسه موافقًا، وأخذ الكتاب مني، ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج ثلاث بذور لنبتة الماهورا، وقال:

- لقد كذبتُ عليكم. لم أصبغ هذه البذور بدمي حين كنا في قبو بيت الطبيب سلطان، وإنما صبغتُ ثلاث حصى وزرعتها بدلًا منها في التربة. لقد خفت أن يصيبني مكروه إن زرعت هذه البذور.

ابتسمت وربتُّ كتفَه، ثم أخذتُ منه البذور ووضعتها في جيبي. ثم ودعتهما، فغادرا القاعة كي يبحثا عن مخرج إلى الأعلى، بينما بقيتُ أنا ورزان أمام البركة، ثم فتحتُ غطاء قنينة دماء الجد يعقوب، وقطرتُ بعض القطرات منها فوق الماء، فذابت فيه، وبعدها بدأ الماء ينشع من الجدران ومن سقف القاعة، وبدأ منسوب البركة يرتفع شيئًا فشيئًا. حينذاك صحت إلى الجني الحارس متسائلًا:

- كيف نصل إلى النفق الذي تسلكه أسرتي مع بندو؟

فقال بصوتٍ يتلاشى:

- اتبعا نجوم الحماية الخماسية على الجدران هناك.

ثم فجأة، تدفقت المياه بقوة من مدخل القاعة نحونا، واشتد سقوط الماء من كل جانب، فأمسكتُ بيد رزان. وفي تلك اللحظة ارتفع منسوب البركة فجأة وبكل قوة، وابتلعتنا المياه.

الفصل الأخير

عندما فتحت عيني، وجدتُ نفسي مُلقى في نفق جديد، وملابسي غارقة بالماء. بجواري كانت رزان، التي كانت بالكاد قادرة على التنفس، سألتُها في قلق:

- هل أنتِ بخير؟

أومأت برأسها وهي تحاول التقاط أنفاسها. فنهضتُ، ومددتُ يدي إليها، قائلًا:

- هيا، لنبحث عن الطريق المؤدي إلى غرفة الاتصال التي تقع في الواحة القديمة.

***

تحركنا ببطء وسط الأنفاق التي كانت جدرانها تلمع بوهج فيروزي خافت، وأخذنا نفتش فيها عن أي نجمة خماسية تمنحنا أملًا بأننا نتحرك في الاتجاه الصحيح، لكننا لم نجد سوى رموزٍ غريبة، تشبه تلك التي رأيناها في أعماق الواحة قبل وصولنا إلى بركة الجن الحراس. ومع مرور الوقت، بدأ اليأس يتسرب إلى قلبي، فصرختُ إلى الفراغ، وكأنني أخاطب الجن الحراس:

- لماذا لا تساعدوننا، أيها الجن؟ نحن بحاجة إلى أثرٍ أو دليل يقودنا إلى الواحة القديمة، أين تلك النجوم الخماسية التي تحدثت عنها، أيها الجني الأحمق؟!

تردد صدى صوتي في الأنفاق دون أن يحدث أي تغيير بعده، فقالت رزان مهدئةً لي:

- لنكمل البحث، يا يوسف، لا بد أننا قريبان.

أكملنا التقدم في الأنفاق التي بدأت تتشعب إلى ممرات أكثر ضيقًا، توغلنا فيها، وواصلنا بحثنا عن النجوم الخماسية، حتى توقفت رزان بعد وقت طويل من السير في تلك الممرات، وهمست في قلق وهي تشير إلى نقوش على الجدار:

- لقد سرنا هنا من قبل، أليس كذلك؟

كنت في داخلي أشعر بالتيه نفسه. كل ممر كان يشبه الآخر، وكل منعطف كان يبدو وكأنه يعيدنا إلى نفس المكان. وكأننا في متاهة تحاول استنزاف طاقتنا، فقلت:

- علينا أن نواصل التحرك حتى نجتاز هذه الممرات.

وأمسكتُ بيدها وتابعنا السير، لكن فجأة، انطفأت الجدران. لم يكن انطفاءً عاديًا، بل بدا وكأن الحياة نفسها قد غادرت المكان. الظلام حلَّ بكل قوته، ولم يعد هناك أي أثر للضوء. عندها، ضغطت رزان على يدي وسألت في خوف:

- يوسف! ماذا يحدث؟!

قلت بأنفاسٍ متسارعة:

- يبدو أن شيخون نجح في اقتلاع الحجر الرابع من مكانه الحصين في أرض الجن. أضواء الجدران في الأعماق كانت مرتبطة بوجوده.

صمتت لثوانٍ، وكأنها تحاول استيعاب ما يحدث حولنا. فأردفتُ لها:

- لننسَ أمر النجوم الخماسية الآن، ونبحث عن أي مخرج إلى الأعلى.

ثم أخرجتُ قطع زمير الثلاث التي تبقت معي بعد توزيع بعضها سابقًا على رزان وناجي وقاسم، وقلت:

- لنستخدم أحجار زمير التي لدينا لإضاءة الطريق.

أخرجت رزان حجر زمير الذي كان معها، فناولتُها قطعة أخرى من معي، ليحمل كل منا قطعتين، ونواصل السير مجددًا، بخطوات حذرة، نرفع تلك الأحجار أمامنا كأنها قناديل ضعيفة في بحر من الظلام، محاولين تخطي الممرات المتشابكة، لكن الأمر كان مستحيلًا. كل ممر كان ينتهي بطريق مسدود أو يتفرع إلى المزيد من الممرات. وكأننا كائنات صغيرة محاصرة في شبكة عنكبوت ضخمة.

ثم فجأة، وبينما كنا على وشك الاستسلام، ظهر أمامنا نفقٌ يتجه نحو الأعلى. انعكس ضوء أحجار زمير على جدرانه، كأنه يرشدنا أخيرًا إلى طريق الخروج. فصرختُ إلى رزان بنبرة مفعمة بالأمل المفاجئ:

- انظري، هذا الطريق يؤدي إلى الأعلى!

فركضت رزان نحو النفق، وركضتُ خلفها، ليلفح الهواء البارد وجوهنا ونحن نصعد إلى الأعلى، وبعد تعثر ونهوض أكثر من مرة، وصلنا أخيرًا إلى السطح، حيث كانت الأرض خاليةً إلا من الحصن السداسي المنتصب وسط العراء، والجبال الشرقية التي تقع أسفلها حظيرة القبور، بينما كانت الدوارة تلوح في الأفق بعيدًا بدواماتها الرملية الهائلة.

التقطتُ أنفاسي، ثم قلت لرزان وأنا أنظر نحو الدوارة:

- لا يمكننا الوصول إلى الواحة القديمة عبر الأنفاق، لكن يمكننا المحاولة عبر الدوارة.

سألتني في استغرب:

- كيف؟

قلت وأنا أخرج قنينة الدماء:

- لقد أخبرني أبي حين أعطاني هذه القنينة، أن دماء الجد يعقوب تستطيع فتح بابٍ في الدوارة.

نظرت رزان إلى القنينة التي لم يبقَ بها سوى قطرات قليلة من الدماء، وقالت محذرة:

- إذا نفدت هذه الدماء، لن نتمكن من العودة إلى زمننا مرة أخرى.

قلت:

- ليس أمامنا حل آخر. يجب أن نصل إلى أسرتي ونساعدهم في إنقاذ ريم، وربما يمتلك أبي خطة لإنقاذ الواحة من شيخون بعد استيلاء شيطانه على حجر زمير الرابع. وبعدها نفكر في أمر العودة إلى زمننا.

وأردفتُ في حزن:

- إن تمكن شيخون من إخضاع أطفال البئر لسيطرته، لن يكون هناك فارقٌ بين بقائنا هنا أو عودتنا إلى زمننا، سيقضي ذلك الشيطان على كل نسل يعقوب الباقين على قيد الحياة في الزمنين.

أومأت برأسها متفهمة دون أن تتكلم، ثم نهضت ومدت يدها لي، لنركض معا نحو الدوارة.

***

عندما اقتربنا من الدوارة، كانت دواماتها الهائلة تلتف حول نفسها بسرعة جنونية، كزوبعة لا نهاية لها. خلعتُ سترتي الخارجية، ومزقتُ قماشها إلى نصفين، ثم ناولتُ رزان نصفًا، وقلت بصوت عالٍ، محاولًا التغلب على ضجيج الرياح العاتية الذي كان يصم آذاننا:

- سنستخدم هذا القماش كغطاء وجهٍ يحمي أعيننا وأنوفنا. لن تكون الرؤية عبره واضحةً مثل الشفائف، لكنه سيكون كافيًا لتمييز أي عائق أمامنا. بعدها، سنتقدم نحو حافة الدوارة، وهناك سأرمي الدماء على الرمال.

أومأت برأسها موافقة، وعندما ثبتنا القماش حول وجوهنا، أمسكت بيدي، وتقدمنا معًا نحو الدوارة، محاولين الحفاظ على توازننا بينما تشتد حركة الرمال تحت أقدامنا، وكأنها تحاول سحبنا نحوها، حتى صرنا عند حافة الدوارة تمامًا، وبدأت الرمال الحادة تضرب وجوهنا وأجسادنا بلا رحمة، فأزلتُ بإبهامي غطاء القنينة، ونثرتُ ما تبقى فيها من دماء نحو الرمال الثائرة، ثم غطيتُ وجهي بذراعي.

فجأة، صدر صوتٌ مهيب من أعماق الدوارة، كصرير بوابة ضخمة تُفتح بعد قرون من الإغلاق. وبعد لحظات، انشقّت الرمال المدوِّمة أمامنا، مكوِّنة ممرًا ضيقًا هادئًا وسط الدوامات العنيفة. فصاحت رزان غير مصدقة:

- لقد فعلتها!

فقلت:

- علينا العبور بسرعة قبل أن يزول مفعول الدماء ويُغلق هذا الممر.

فأومأت برأسها موافقة، لنندفع إلى داخل ذلك الممر، بينما تدور الرمال حولنا من كل جانب دون أن تمسنا بسوء. حتى الرياح التي كانت تصرخ حولنا بجنون، لم تستطع اختراق ذلك الممر الذي ظل مفتوحًا،

يدعونا للعبور، لنجتازه راكضين بخطى متلاحقة. لكن عندما وصلنا إلى قلب الدوارة، شعرنا بالأرض تنهار تحت أقدامنا، وبدأت الرياح تتسلل إلى داخل الممر، لتصفع وجوهنا وتُعمي أبصارنا، وكأنها تحاول صدنا وإجبارنا على العودة. صرخت رزان التي كانت تتشبث بي بشدة:

- لا تتوقف، يا يوسف!

ركضتُ بأقصى طاقتي وأنا أجرُّ رزان، بينما أهمس لاهثًا إلى نفسي: من أجل ريم، من أجل أبي، من أجل أمي، من أجل عبير، من أجل أهل الواحة، من أجل البشرية كلها، وكلما تعثرتُ وسقطتُ نهضت من جديد وأكملت الركض، حتى شعرتُ بأن قدميَّ تلمسان الأرض الصلبة مرة أخرى، وبعدها قذفتنا فوهة الممر إلى الجانب الآخر من الدوارة. حينذاك قالت رزان وهي راقدة على الأرض تسعل بشدة، وتلتقط أنفاسها بصعوبة:

- لقد عبرنا.

نزعتُ القماش عن وجهي، والتفتُّ لأرى الدوارة خلفنا قد أغلقت نفسها مجددًا، وعادت رمالها إلى الدوران بشكل فوضوي، وكأننا لم نكن هناك قط.

***

عندما ابتعدنا عن الدوَّارة، شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي وأنا أرى الواحة القديمة أمامنا كأنها أرض هجرها الزمن. البيوت الطينية بدت متهالكة، جدرانها متصدعة، أبوابها مخلَّعة أو مفقودة، والنوافذ فارغة كأعين ميتة. آثار الحروق كانت تغطي الجدران، وبقع الدماء الداكنة امتدت كأنهار جافة على الطرقات، في حين تحولت الأشجار

القليلة المتناثرة بين البيوت إلى هياكل ميتة بلا أوراق. حتى السماء بدت كأنها سقف من الغيوم الثقيلة، يمنع أي ضوء من المرور.

تمتمت رزان بصوت مرتعش:

- مهما روت الحكايات القديمة عما حدث في الواحة القديمة بعد ثورة أرواح أطفال البئر، لم أكن لأتخيل ما أراه الآن.

فقلت وقلبي يخفق بقوة:

- علينا الوصول إلى البئر بسرعة، أشعر أن أرواح أطفال البئر تترصدنا من كل زاوية.

واصلنا السير وسط الخراب، نمر بين الأزقة المغطاة بطبقة من الغبار الأسود الذي كان يتطاير مع كل خطوة. وكلما خُيل إلينا أننا سمعنا حركة، وقفنا في أماكننا مرتعبين، نتحقق من تثبيت جفوننا. حتى سمعنا صوتًا مألوفًا ينادي باسمي، فالتفتُّ، لأجد أمي وأبي وعبير يقفون في زقاق جانبي. هرعتُ نحوهم وعانقتهم بقوة، وكأنني استعدت جزءًا من روحي.

همست أمي والدموع في عينيها:

- يوسف! كيف وصلت إلى هنا؟

قلت مطمئنًا وأنا أمسك يديها:

- الجن الحراس أخبروني ما حدث، ودلوني على الطريق إلى هنا.

ثم سألتُ أبي:

- هل استطعتم اقتفاء أثر خادم شيخون؟

أجابني في حزن:

- لم نصل إلى البئر بعد. لقد ضللنا الطريق بعدما تركنا بندو.

قلت بصوتٍ مضطرب:

- أخشى أن يكون الأوان قد فات، لقد انطفأت الجدران في أعماق أرض الجن، علينا أن نسرع للوصول إلى البئر.

أومأ أبي برأسه بقلق، وواصلنا السير معًا، نبحث عن البئر التي قد تحمل مصيرنا، حتى بدأت دلائلها تظهر بوضوح أمامنا، إذ ازدادت بقع الدماء الداكنة التي تلطخ الأرض من جديد، وتبعثرت أشلاء بشرية هنا وهناك، كنا ندرك أنها من بقايا أهل الواحة الذين انقضت عليهم أرواح الأطفال الثائرة. وبين هذه الفوضى، لاحت لنا أدوات بدائية غارقة في الدماء المتجلطة: سكاكين حجرية حادة، وسواطير مصنوعة من العظم، وأغلال صغيرة من حديدٍ غير مصقول، بدت وكأنها استُخدمت في طقوس التضحية المظلمة.

التقطتُ سكينًا حجريًا حادًا ووضعته أسفل بنطالي على جانب خصري، ثم تابعنا التقدم بحذر وسط هذا الخراب، محاولين تجنب الأشلاء وبقع الدماء، بينما نغلق أنوفنا من الرائحة النتنة التي كانت تزداد كلَّما تقدمنا، حتى أبصرنا في الأرض فتحة عميقة، اتساعها يقارب ساحة الحصن السداسي، بدت كفم مفتوح في قلب الظلام. لم تكن سوى البئر العظيمة.

فجأة، مزقت صرخةٌ رهيبة الصمت المطبق حولنا، كانت صرخة ريم. فاندفعت أمي نحو البئر، ونحن خلفها، لكن قبل أن نقترب من حافتها بدت الأرض وكأنها تتنفس. وبدأنا نسمع صوت دقات قلب هائلة، كالرعد، تنبض من أعماق البئر. فصرخ أبي إلى أمي بأن تتوقف، ثم أشار نحو صخرة بعيدة لنختبئ خلفها، فتبعناه بسرعة. وما إن اختبأنا حتى انبعث ضوء فيروزي قوي من أعماق البئر، بعدها، بدأت فروع ماهورا سوداء كثيفة الأوراق، تخرج من البئر، وتتلوى كالثعابين، وتمتد بسرعة رهيبة نحو الواحة المُدمَّرة.

ثم كادت قلوبنا تتوقف عندما خرج من البئر كائن عملاق، يكاد ارتفاعه يصل إلى ثلثي ارتفاع جدران الحصن السداسي، جسده مظلم ومليء بالأشواك، تحيط به فروع سوداء تنبض كأنها تنمو وتتنفس معه. كانت قدماه أشبه بجذوع أشجار متحجرة تضرب الأرض بقوة، تاركةً خلفها آثارٍ عميقة مع كل خطوة. بينما تتردد دقات قلبه الهائلة في الأرجاء كصوت مخيف يصم الآذان.

أما وجهه، فقد كان مزيجًا مرعبًا من الملامح البشرية والشيطانية؛ جانب منه يحمل ملامح شيخون التي ذكرتها الكتب القديمة، بتجاعيد قاسية وعين غائرة، فيما يكسو النصف الآخر عروق داكنة تتوسطها عين متوهجة بضوءٍ فيروزي مخيف. بينما كان فمه مملوءًا بأسنان حادة ملتوية، ويصدر منه زئير عميق مع كل خَطْوة يخطوها مبتعدًا عن البئر.

سألتُ أبي مذهولًا:

- ما هذا الوحش؟!

ردَّ أبي مصدومًا:

- يبدو أن شيخون لم يتحرر فقط من قيود النبتة، بل اتحد مع شيطانها في جسد واحد ليحقق أطماعه التي انتظرها لقرون.

قلت في ارتباك شديد:

- علينا أن نعود إلى أرض الجن بسرعة، لا بد أنه سيخترق الدوارة ليأخذ ثأره من الجد يعقوب ثم يقتل كل نسله الأحياء في هذا الزمن وزماننا. ويستولي على هذه الأرض وما حولها.

هز أبي رأسه إيجابًا وهو يلهث من الصدمة:

- نعم، يجب أن نحذر الجد يعقوب وأبنائه كي يحتموا داخل الحصن السداسي.

وأردف بأنفاسه المتسارعة:

- ما زلت أعرف طريق غرفة الاتصال التي توجد في هذه الواحة، نستطيع أن نعود من خلالها إلى أرض الجن مرة أخرى.

فقالت أمي:

- سأبقى هنا للبحث عن ريم، ربما لا تزال على قيد الحياة بعد تلك الصرخة التي سمعناها.

ونظرت إلى عبير، وقالت:

- وستبقى عبير معي.

نظرتُ إلى عبير، فأومأت برأسها موافقة. حينها قالت رزان:

- وأنا سأبقى أيضًا، لم أرَ خادم شيخون يخرج معه من البئر. ولا يزال لي ثأر معه.

أومأتُ موافقًا، ثم قبّلتُ رأس أمي وعبير، وودعتُ رزان، ثم قلت لأبي:

- هيا بنا يا أبي، ليس لدينا وقت.

***

انطلقتُ مع أبي إلى غرفة الاتصال التي تقودنا إلى أرض الجن، بينما كان الوحش يتقدم نحو الدوّارة. وقبل أن ننزل عبر الباب الأرضي المؤدي إلى الغرفة، أبصرنا الفروع السوداء تصل إلى حافة الدوّارة، وتلتف حول نفسها وتخترق الدوامات، لتصنع ممرًا واسعًا، بدأ الوحش يسير في داخله مطلِقًا زئيره. فالتفت إليّ أبي قائلًا:

- إنه بطيء الحركة، يمكننا الوصول إلى الجد يعقوب وأبنائه قبل أن يصل إليهم.

بعدها، نزلنا السلم الحجري المؤدي إلى غرفة الاتصال، حيث كان الباب الذي يتوسط جدار الفتحات الدائرية لا يزال مفتوحًا. عبرناه، ودخلنا إلى نفق حالك الظلام، فأخرجتُ قطعتي زمير اللتين كانتا بحوزتي، وقلت لأبي:

- بإمكانهما أن تضيئا لنا الطريق.

وناولته إحداهما، فرفعها أمامه مبهورًا بضوئها الفيروزي، بينما حملتُ الأخرى، وواصلنا التقدم بحذر والقطعتان تنيران النفق أمامنا.

بعد قليل، تشعَّب النفق إلى عدة أنفاق، فقال أبي بقلق:

- يبدو أننا ضللنا الطريق.

تذكرتُ ما حدث لي أنا ورزان حين ضللنا في متاهة الأنفاق، وقلت لأبي:

- علينا أن نبحث عن أي نفق يصعد إلى السطح.

لكن فجأة، بدأت أصوات غريبة تتصاعد من أعماق الأرض. فالتفتُّ إلى أبي، وهمست:

- هل تسمع هذه الأصوات؟

أومأ برأسه بصمت، وواصلنا السير، نبحث عن مخرج من هذه الأنفاق المتشابكة، حتى تسمرنا في أماكننا وكتمنا أنفاسنا، بعدما وجدنا تماثيل أطفال البئر التي رأيتها من قبل، تهرول في جماعات باتجاه واحد، دون أن يلتفت أيٌّ منها يمينًا أو يسارًا، وكأنها تتبع نداءً خفيًا يستدعيها.

أخفينا أحجار زمير في جيوبنا، وهمس أبي ونحن نلتصق بالجدار لتجنب ملاحظة التماثيل لنا:

- هذه أجساد أطفال البئر، لقد رأيتهم في أعماق الواحة قبل أن نأتي إلى هنا، لكنهم كانوا أكثر تيبسًا، وأعينهم كانت تتوهج بالضوء الفيروزي.

همست:

- نعم، لقد رأيتهم أنا الآخر. أخبرني الجني الحارس أنهم يستمدون بريق أعينهم من وهج الجدران في الأعماق، والآن بعد انطفاء الجدران يبدو أنهم فقدوا ذلك البريق.

وأضفت:

- تأكد فقط من أن جفونك مُثبتة، لأنهم مثل أرواحهم، يستشعرون حركة الجفون.

تحسس أبي جفونه وهمس:

- أنا بخير.

فقلت:

- لدي فكرة، إذا كان الشيطان يستدعيهم إلى السطح، فلا بد أن طريقهم سيقودنا إلى الأعلى. علينا أن نتبعهم وإلا بقينا في هذه المتاهة حتى نموت.

حينذاك، توقف أحد التماثيل أمامنا، والتفت نحونا وكأنه استشعر وجودنا، لكنه سرعان ما أعاد وجهه إلى الأمام، وواصل سيره من جديد.

فقلت لأبي:

- كما قلت لك، لقد فقدوا القدرة على الرؤية بعد انطفاء الجدران، إنهم خاضعون الآن لسيطرة شيخون ولن يستخدموا أعينهم إلا عندما يأذن لهم بذلك، يمكننا التقدم بينهم ما دامت جفوننا مثبتة.

فهمس أبي:

- حسنًا، لنفعل ذلك.

بعدما، تسللنا بينهم بحذر، واتبعنا طريقهم حتى وصلنا إلى نفق يصعد إلى السطح، وحين خرجنا، تسارعت أنفاسنا من هول المشهد، إذ وجدنا أطفال البئر يصطفون كجيش عظيم، خلف الوحش الذي كان يتقدم نحو الحصن السداسي. فقال أبي في اضطراب شديد:

- علينا الوصول إلى حظيرة القبور، قال بندو إن يعقوب وأهله هناك يؤدون بعض الطقوس.

ركضنا نحو الحظيرة، بينما كانت الشمس توشك على الغروب، لكن عندما وصلنا، وجدنا المكان خاليًا، فأدركنا أن يعقوب وأهله قد لجأوا إلى الحصن السداسي مع معرفتهم بقدوم ذلك الوحش إليهم.

***

عندما خرجنا من حظيرة القبور كانت تماثيل الأطفال لا تزال تتدفق من الأنفاق الأرضية، وتتشكل في صفوفٍ منتظمة تتحرك نحو الحصن السداسي، لتنضم إلى الصفوف الأخرى المصطفة خلف الوحش، الذي بدأ يضرب، جدران الحصن بجنون.

كانت كل ضربة تهز الأرض تحتنا. ورغم ذلك، بقيت الجدران ثابتة. تساءلت إلى أبي ونحن نختبئ خلف صخرة قريبة:

- لماذا لا يدافع الجن عن أرضهم؟

قال:

- يبدو أن اتحاد شيغون مع الشيطان منحه قوة لا تُقهر. لا بد أن سادة الجن يدركون ذلك ويعلمون أن المعركة معه ومع هذا الجيش خاسرة لا محالة، وأملهم الوحيد الآن هو صمود الحصن.

ثم أضاف وهو ينظر إلى الوحش الذي يواصل ضرباته العنيفة على الجدران:

- أخبرني أحد الحكماء في طفولتي أن هناك تعويذة تجعل الحصن يرمم نفسه تلقائيًا. إن كان كلامه صحيحًا، فلا أعتقد أن هذا الوحش سيتمكن من اختراق الحصن، حتى لو استمر في ضرب جدرانه إلى الأبد.

قلت، وأنا أنظر إلى السماء حيث بدأ الليل يقترب:

- أتمنى ذلك.

مع حلول الليل، واصل الوحش ضرباته على الجدران، قبل أن يتحرك ليضرب الباب الخشبي الضخم للحصن. في تلك اللحظة، لاحظتُ ضوءًا فيروزيًا يتوهج ويخفت داخل صدره، بإيقاع متناغم مع دقات قلبه الصاخبة. لم أكن قد انتبهت إليه أنا أو أبي في أثناء النهار مع التفاف الفروع السوداء حول جسده، فقلت لأبي بذهول:

- إن حجر زمير الرابع يرقد داخل صدر هذا الوحش، وكأنه قلبه الذي يغذيه بالقوة.

حدق أبي إليه، وبعدما تأكد مما أقوله، قال بإحباط:

- نعم، لن يشعر هذا الوحش بالتعب أبدًا، فطاقة تلك الأحجار لا تنفد.

لنجلس في أماكننا يائسين، ننتظر معجزة توقف هذا الوحش، الذي واصل ضرباته العنيفة على باب الحصن دون توقف.

***

مع مرور الوقت، شعرتُ أن الصمغ الذي يثبت جفوني بدأ يلين، بحثتُ في جيبي عن زجاجة أخرى، لكنني تذكرت أن الزجاجة الوحيدة

التي أعطانا إياها قاسم تركتها مع رزان. وعندما أدرك أبي الأمر، أخرج زجاجته كي يثبِّت لي جفوني؛ لكن وجهه تبدل حين وجدها فارغة، وبدأ يفتش في جيوبه عن أعواد الطوارئ؛ ليكتشف أنها قد فُقدت منه. حينذاك، قال لي بتوتر شديد:

- يمكنك أن تنجو بنفسك. هناك طريقة للعودة إلى زماننا؛ يمكنك التسلل مرة أخرى إلى الأنفاق الأرضية، والبحث عن قاعة البركة، وتقديم الدماء التي يطلبونها، فتعيدك البركة إلى زماننا.

ثم أردف بحزم:

- أعطني السكين الذي معك، سأجرح به ذراعي، لتلتصق بنصله دمائي. قدِّم الدماء إلى البركة، وعد إلى زماننا. هيا، أعطني السكين.

قلت:

- لن أتركك يا أبي.

قال بإصرار:

- يجب أن ترحل الآن، سيلين الصمغ لا محالة مع طلوع النهار واشتداد حرارة الشمس، ووقتها لن يرحمنا أطفال البئر.

كنت أعرف أن أبي لن يغادر هذا المكان مهما حدث دون أمي وأختيّ، حتى لو نهش أطفال البئر عظامه عظمة عظمة، وقد ورثتُ هذا العزم عنه، لست أنا من يغادر ويترك أهله وصديقته يواجهون الموت وحدهم، فقلت:

- سأبقى يا أبي، لن أغادر.

كان يعرف أن النقاش لن يؤدي إلى أي نتيجة أخرى، فقال برفق وهو يربِّت رأسي:

- كان الافتراق عن أمك وعبير ورزان قرارًا غبيًا.

قلت له:

- كانت نيتنا أن نحذر الجد يعقوب وأبناءه، كي ننقذ الواحة من هذا الشيطان. لا داعي لتأنيب أنفسنا.

أومأ برأسه، ثم خيَّم علينا الصمت ونحن نراقب الوحش الذي يواصل محاولاته لهدم باب الحصن، بينما ينبض الضوء الفيروزي داخل صدره.

***

مع طلوع النهار، أطلق الوحش زئيرًا عظيمًا اهتزت له الأرجاء، وتبعته تماثيل الأطفال بخوارٍ جماعي، نهضت من مكاني لأرى ما يحدث، فدق قلبي مرتعبًا عندما رأيت فجوة تظهر في باب الحصن، وصرختُ لأبي:

- لم يصمد الباب كما توقعنا!

حدق أبي إلى الباب بمرارة شديدة، ثم قال بخيبة أمل، وهو يرى الوحش يوسع الفجوة بيديه الضخمتين، ويلقي بأخشاب الباب بعيدًا:

- انتهى كل شيء.

في تلك اللحظة، فُتح باب الحصن، وخرج من الحصن رجل نحيل، أشيب الشعر، مقطوع الجفون، ووقف بشجاعة أمام الوحش، وصرخ فيه:

- إذا كنت تريد الانتقام، فها أنا أمامك. اقتلني واترك الآخرين.

همستُ إلى نفسي:

- الجد يعقوب!

ضحك الوحش بصوت كالرعد، فاهتز المكان مع صدى ضحكته. ثم قال بصوت مشحون بالكره:

- كنت عائقًا أمام أحلامي منذ ولادتك، واليوم سأقتلك، وأزيل نسلك من الوجود.

حينها، تمنيتُ أن يهاجم أطفال البئر الجد يعقوب لعلهم يكونون أرحم مما ينوي ذلك الوحش فعله، لكن مع جفونه المقطوعة بدا وكأنهم لا يرونه أصلًا، فقلت لأبي:

- يجب أن نفعل شيئًا!

لكن أبي وقف صامتًا، تتساقط الدموع على خديه وهو ينظر إلى الوحش الذي رفع الجد يعقوب بفروعه السوداء، وبدأ يعتصر جسده ببطء، بينما يصرخ الجد يعقوب بشجاعة:

- لن تنتصر أبدًا، أيها الشيطان.

بعدها شعرتُ أن قلبي وقلب أبي قد توقفا، إذ طعن الوحش بطن يعقوب بفرع من فروعه، فتدلت أمعاؤه خارج بطنه، ثم لفَّ فرعًا آخر حول عنقه وفصل رأسه عن جسده بقسوة مروعة، ثم ألقاه بعيدًا، فسقط الجسد مهشمًا، تتدفق منه الدماء. وحينها، زأر الوحش بصوتٍ مدوٍّ، وازداد توهج الضوء في صدره، وكأنه حقق انتصاره الذي انتظره طويلًا.

في تلك اللحظة، شعرتُ بفكرةٍ مجنونة تنبثق في رأسي، فالتفتُّ لأبي، وقلت بسرعة:

- لدينا فرصة أخيرة.

سألني في ارتباك شديد:

- أي فرصة؟

قلت:

- لطالما كانت أشجار الماهورا كاشفة لأحجار زمير، تلتف حولها وتقتلعها من مخابئها. سحرٌ صنعه شيطان النبتة بنفسه كي

يستعيد أحجار زمير المخبأة مرة أخرى. يمكننا استخدام السلاح نفسه ضده.

قال:

- لا أفهم شيئًا.

أخرجتُ البذور الثلاث التي أعطاني إياها ناجي قبل أن نُبتلع في البركة، وقلت:

- هذه البذور، يمكنها اقتلاع الحجر من صدر الشيطان.

تساءل أبي متخوفًا:

- ألا تنتمي إلى الشيطان نفسه، مثل الفروع السوداء التي تحيط بجسده؟

قلت وأنا أنظر إلى جسد الجد يعقوب الساكن على الأرض، بعيدًا:

- سأجعلها تنتمي إلى أعظم دماء عرفتها أرضنا.

وأردفت:

- إنها فرصتنا الوحيدة.

فهز أبي رأسه في أسف، وقال:

- لن تستطيع الوصول إليه بجفون مُثبتة، سيلين الصمغ في أي لحظة قادمة مع اشتداد أشعة الشمس.

ونظر إلى صفوف الأطفال الكثيرة أمامنا، وأضاف بنبرة اليأس نفسها:

- الوقت المتبقي قبل أن تتحرر جفونك لن يكفي لتجاوز هذه الصفوف.

وضعتُ يدي على جفوني وأنا أنظر إلى صفوف الأطفال التي تفصل بيني وبين جسد الجد يعقوب، ثم أخرجتُ السكين الحجري من موضعه عند خصري، فصاح أبي مرتاعًا:

- ماذا تفعل؟!

فأجبته:

- أنقذ أهلنا من شر هذا الشيطان.

ثم أمسكت بجفني العلوي الأيمن، وسحبته بقوة، وقطعته بالسكين، دون أن أسمح لنفسي بأن أتأوه. بعدها قطعت الجفن السفلي، وبدأت أركض نحو صفوف أطفال البئر، بينما أمسك بالسكين وأقطع جفنَيّ العين اليسرى، لتسيل الدماء على عينيَّ ووجهي وأنا أشق طريقي بين الصفوف دون أن يلتفتوا إليَّ، وكأنهم لا يرونني، حتى اقتربتُ من جسد الجد يعقوب، فألقيتُ البذور الثلاث داخل بطنه المبقور. لكن فجأة، شعرت بأنني أُرفع في الهواء. كان الوحش قد أمسك بي بقبضته، وقربني من أنفه الغليظ المُغطى بالعروق الداكنة، وشمَّ دمائي، وقال:

- تحمل دمائي، ودماء يعقوب أيضًا.

فقلت متحديًا:

- لا يمكن أن أكون من نسلك، أيها الشيطان.

أطلق ضحكة ساخرة، ثم صاح في صفوف الأطفال من خلفه:

- اقتلوا كل بشري تقع أعينكم عليه.

بعدها لمعت أعين الأطفال بالضوء الفيروزي من جديد، وكأنه غذَّاها من وهج حجره، ثم نظر إليَّ وفي عينيه كل غرور الدنيا، وفتح فكيه كي يلتهمني، دون أن يدري أن بذور الماهورا قد نبتت داخل جسد الجد يعقوب، وبدأت فروعها تتسلق بسرعة رهيبة حول ساقيه وتعتصرهما،

لتصل إلى صدره وتلتف حوله. حاول التخلص من الفروع وهو يمسكني بيده، لكنها كانت تنمو وتتفرع بكثافة لم أتخيلها. ثم بدأت الفروع ترسم نمط النجمة الثمانية على صدره، قبل أن يخترق طرفها الذي يشبه الجديلة العملاقة منتصف صدره، ويلتف حول حجر زمير الرابع وينتزعه من مكانه. حينذاك، توقفت دقات قلبه الصاخبة للمرة الأولى، وانطفأت أعين أطفال البئر، وكأنهم خرجوا من سيطرته.

في تلك اللحظة، حاولتُ التملص من قبضته، وحين تحررت يدي، أخرجتُ السكين الصغير الذي كان بحوزتي، فنظر إليّ بغرورٍ، مستهينًا بما قد يفعله ذلك السكين مع جسده العملاق، فقلت متحديًا:

- لا يزال فيك جزء بشري.

ثم ألقيت السكين نحو عينه الغائرة بكل ما أملك من قوة، فرمشت جفونه لا إراديًا، وفي هذه اللحظة التفتت أجساد أطفال البئر نحوه. وبسرعة رهيبة، انقضوا عليه ونهشوا ساقيه بلا هوادة حتى أسقطوه أرضًا، بينما سقطتُ أنا بعيدًا، وجلستُ أراقب جسده العملاق وهو يتآكل تحت أنيابهم، بينما كان زئيره المتواصل يضعف شيئًا فشيئًا، حتى انبعث من فمه الضخم دخانٌ كثيف، وكأن الروح الشريرة قد لفظت أنفاسها الأخيرة. ورغم ذلك، لم يتوقف الأطفال عن التهام ما تبقى من جسده اللعين، حتى لم يبقَ منه شيء.

بعدها، التفتوا نحو شجرات الماهورا الثلاث، ووقفوا حائرين، وكأنهم يتساءلون إن كانت تتبع الشيطان. فنهضتُ من رقدتي، متحاملًا على الألم الذي اجتاح جسدي، وتقدمتُ نحو حجر زمير الرابع الذي تلتف حوله أطراف الماهورا، ووضعتُ يدي عليه، فبدأت أوراق الماهورا تذبل، وانتشر الجفاف في الأغصان، قبل أن تتحول إلى ترابٍ تطاير مع الرياح. عندها، نظرتُ إلى أطفال البئر بحذر، خائفًا أن يهاجموا أبي أو أبناء

يعقوب الذين يحتمون بالحصن السداسي، لكنهم، بدلًا من ذلك، التفتوا نحو جسد الجد يعقوب الراقد على الأرض، وانحنوا بجلالٍ أمامه، قبل أن ينهضوا، ويرفعوا رؤوسهم نحو السماء، ويفتحوا أفواههم، لتخرج منها أطياف شاحبة كضباب خفيف، تماوجت في الهواء وتلاشت بهدوء. ومعها، سقطت أجسادهم على الأرض دون حراك.

تقدمت نحو أقرب الأجساد لي، ولمسته بيدي، كان باردًا، شاحبًا، أزرق الشفاه والأطراف، لا حياة فيه. حينها، اقترب مني أبي، بجفونٍ ترمش بحرية دون أن يصيبه مكروه، فقلت وأنا أنظر إلى أجساد الأطفال الساكنة على الأرض أمامنا:

- وكأنهم كانوا ينتظرون مقتل شيخون وشيطان البئر كل هذه القرون ليسامحوا البشر وتتحرر أرواحهم.

احتضنني أبي بقوة، ودموعه تنساب على وجنتيه كأنه يتأكد من أنني ما زلت بخير. وفي تلك اللحظة، رأيت في الأفق بعيدًا شيئًا يتغير، فقلت:

- أبي، انظر. إن الدوارة تتلاشى.

مسح دموعه، والتفت بعينين متسعتين نحو دوامات الرمال التي كانت تختفي شيئًا فشيئًا، وفي ذات اللحظة، كانت أجساد الأطفال أمامنا تتلاشى أيضًا، حتى اختفت الدوارة والأجساد في الوقت نفسه تقريبًا، فصرخ أبي بفرحة لم أشهدها على وجهه من قبل:

- لقد زالت اللعنة عن الواحة، لقد أنقذت الواحة، يا يوسف، لقد أنقذتها.

عندها، خرج إلينا من داخل الحصن، رجال ونساء وأطفال جفونهم مثبتة بأعواد عشبية رفيعة، ووقفوا يحدقون بعيدًا إلى موضع الدوارة التي اختفت، ووجوههم يملؤها الذهول والتساؤل، فهمس أبي:

- نسل يعقوب.

اقتربوا منا، وسألونا:

- من أنتما؟

فقال أبي باسمًا:

- أرسلنا القدر لإنقاذكم.

أزالوا الأعواد العشبية عن أعينهم واحدًا تلو الآخر غير مصدقين، قبل أن ينحنوا أمامي ويقولوا وهم ينظرون إلى جفوني المقطوعة:

- سيدنا، خليفة يعقوب، وقاهر شيخون.

ضحكتُ وقلت لأبي:

- يبدو أنهم لا يريدون التحرر من تقديس الأشخاص أبدًا. لنبحث عن أمي وأختيَّ ورزان، ونعود إلى زماننا. لا بد أن هناك أفراحًا تُقام الآن مع زوال اللعنة عن الواحة.

ثم قلت لهم:

- لست سيدًا لأحد، أيها السادة. عليَّ أن أرحل أنا وأبي الآن، وإن أردتم معرفة قصتنا، فربما يحكيها لكم الجن إن بقيتم في هذه الأرض واستطعتم فهم لغتهم والتواصل معهم.

أومأوا برؤوسهم باحترام، فتركناهم وانطلقنا في اتجاه الواحة القديمة، وقبل أن نصل إلى موضع الدوارة القديم، سمعنا صوت عبير تنادي:

- أبي! يوسف!

لنجدها قادمة هي ورزان، ومن خلفهما أمي، تحمل ريم بين ذراعيها. ركضنا نحوهن وعانقناهن، فقالت أمي:

- كانت الصغيرة لا تزال هناك، واستطعنا تحريرها من أعماق البئر بعد أن انهارت الأغصان السوداء وتحللت فجأة.

فسألها أبي وهو ينظر إلى ريم بقلق:

- هل أصابها مكروه؟

فأجابته أمي:

- إنها بخير، فقط جرح غائر في راحة يدها، سيلتئم مع الوقت.

تنفس أبي الصعداء، ثم سألها:

- وماذا عن خادم شيخون؟

فقالت عبير وهي تشير إلى رزان:

- منحته رزان موتة سريعة بخنجرها.

ابتسم أبي، وابتسمتُ أنا الآخر، ثم سألتنا رزان:

- ماذا حدث؟ أين ذهب الوحش؟ وكيف زالت الدوارة؟ وكيف نرمش بجفوننا بحرية؟

فقلت باسمًا:

- علينا الآن البحث في الأعماق عن قاعة بركة المياه، كي نعود إلى زماننا، وبعدها سأحكي لكنَّ كل شيء بالتفصيل.

***

اتجهنا بعدئذٍ نحو إحدى الفتحات الأرضية التي قادتنا إلى نفق تشع جدرانه بضوءٍ فيروزي خافت، فقال أبي:

- يبدو أن الجن أعادوا الحجر الرابع إلى غرفته الحصينة أسفل الحصن السداسي.

تقدمنا في النفق، وبينما كنا نبحث عن الطريق المؤدي إلى قاعة البركة، صاحت ريم:

- بندو!

فجأة، ظهر بندو أمامنا، بجسده الشاحب النحيل، وظهره المقوس، ووجهه الخالي من العينين، وعانق ريم بحنان غامر، ثم قادنا عبر الأنفاق حتى وصلنا إلى قاعة البركة، وهناك ودَّع ريم، ودموعه تنساب من محجري عينيه الخاليين، وقالت ريم وهي تبكي بحرقة:

- يقول إنني لن أراه مجددًا، بعدما لم أعد في حاجة إلى حمايته.

احتضنتها أمي وهدأتها، وهمست إليها بأنه سيزورها في أحلامها بالتأكيد، ونظرت إلى بندو وسألته مبتسمة:

- أليس كذلك؟

أومأ برأسه موافقًا، ثم ودعناه وشكره أبي على مساعدته لنا، فتقدم بندو نحو البركة وغاص في أعماقها، حينذاك، جرح أبي راحة يده، وقطر بضع قطرات من دمه في البركة، فبدأ الماء يتدفق من الجدران والسقف ومن خارج القاعة، وتعالى منسوب البركة بقوة، حتى ابتلعتنا المياه.

***

عندما استعدنا وعينا وجدنا أنفسنا في نفق جديد وثيابنا تقطر ماءً، صاحت عبير بسعادة وهي تنظر إلى ريم:

- انظروا، لقد اكتمل نمو جفون الصغيرة!

كانت ريم تنظر إلينا في دهشة وهي تلامس جفونها التي نمت بالفعل، وأخذت تغلقها وتفتحها كأنها تجرب هذا الشعور الرائع، فقال أبي:

- هنيئًا لأجيالنا القادمة بزوال لعنة الواحة.

وضعتُ يدي على جفوني، فوجدتها لا تزال مقطوعة، فقلت لهم مازحًا:

- كنت أتمنى أن تنمو هي الأخرى.

ربَّت أبي كتفي وقال:

- ستظل جفونك المقطوعة رمزًا لشجاعتك وتضحيتك في سبيل إنقاذ الواحة وأهلها. ولا تقلق، فلدينا في الواحة أفضل صانعة لمرطب العيون.

فضحكت أمي وقالت بحب:

- إنه لشرف عظيم لي، أيها البطل، أن تُغطى عيونك بمعجون أعشابي.

ضحكنا، ثم تحركنا عبر الأنفاق، حتى وصلنا إلى مخرجٍ يقودنا إلى السطح. لكن عندما خرجنا، فوجئنا بأننا لسنا في الواحة، بل في قلب الغابة المتحجرة. وما إن ابتعدنا قليلًا عن الفتحة الأرضية التي خرجنا منها، حتى أُغلقت من تلقاء نفسها، وتحجرت كحال بقية الأرض في تلك الغابة.

تساءل أبي عن المكان الذي نحن فيه، وقبل أن أجيب، قالت أمي وقد بدت على وجهها علامات الذهول:

- هذه الغابة تنتمي إلى بلدتي.

فقلت وأنا أنظر إلى الفتحة الأرضية التي أُغلقت، وتحجرت بعد خروجنا:

- يبدو أن هذا العالم قد أصبح عالمنا الآن، بعد زوال لعنة الواحة.

فسألت عبير في قلق:

- كيف سنعيش هنا؟!

فأجبتُها بطمأنينة:

- لا تقلقي، فالبلدة لا تبعد كثيرًا عن هنا، وفيها يعيش جدنا الطبيب سلطان، رجل كريم، سيبذل كل جهده كي نتأقلم على المعيشة هنا، ومعنا رزان.

في تلك اللحظة، صاحت رزان وهي تشير إلى حذاء مُلقى بين الأشجار المتحجّرة، يشبه أحذية رجال واحتنا:

- انظروا!

فقال أبي في هدوء:

- يبدو أن أهل واحتنا قد وجدوا طريقهم إلى هنا أيضًا.

بعدها، تقدمنا جميعًا لنخرج من الغابة، وعندما تجاوزناها، وقفنا ننظر إلى البلدة التي بدت في الأفق، بسمائها الصافية وشمسها الساطعة وطيورها المحلِّقة، لنخطو بقلوب مفعمة بالتفاؤل نحو حياة حرة لا تقيِّدها دوَّارة، ولا خوف فيها من أطفال البئر.

تمت بحمد الله



وُلدنا بلا جفون، في مكانٍ لا يعرف الرحمة. ففي واحة اليعقوب، رمشة جفنٍ واحدة تعني الموت، ومع اختفاء الظلال التي تحمينا، صار البقاء مجرد مسألة وقت.

صدر سابقاً عن الكاتب



تصميم الغلاف كريم آدم



للتواصل مع الكاتب



